تراثنا
وزارة الثقافة
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

كناسة الدكان

بعد انتقال السكان

حول

العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب

في القرن الثامن الهجري

تأليف الوزير ابن الخطيب

المتوفى ٧٧٦ هـ

تحقيق
دكتور محمد كمال شبانه

مراجعة
دكتور حسن محمود

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تراثنا

وزارة الثقافة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

كناسة الدكان

بعد انتقال السكان

حول

العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب

في القرن الثامن الهجري

تأليف الوزير ابن الخطيب

المتوفى ٧٧٦ هـ

تحقيق
دكتور محمد كمال شبانه

مراجعة
دكتور حسن محمود

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

محتويات الكتاب

تصدير

فى النصف الأول من القـــرن الثامن الهجـرى تألق فى ســماء مملكة غرناطة بالأندلس علم من أعلام التاريخ والأدب ، ذلكم هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب السلمانى .

شب ابن الخطيب فى رحاب بنى الأحمر وتوثقت صلته بالسلطان أبى الحجاج يوسف الأول النصرى (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) فقربه السلطان ووثق به ، وفوضه معظم شئون الدولة ، يختار العمال ، والقضاة ، ويصدر المراسيم ، بل أنابه السلطان عنه أثناء اشـــتراكه فى معـــركة طريف الشـهيرة عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م) .

وأسندت اليه الوزارة بعد وفاة ابن الجياب فى شوال سنة ٤٧٩ هـ (١٣٤٨ م) ، كما تقلد ديوان الانشاء . ثم ولى السلطان محمد الخامس الغنى بالله - اثر مقتـل والده يوسف الأول - فلم يفقد ابن الخطيب المكانة الرفيعة التى احتلها فى عهـــد السلطان السابق . ثم خلع السلطان الجديد ، ونفى الى بلاد المغرب ، ونفى معه ابن الخطيب (٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م) .

كان ابن الخطيب شيخ مؤرخى الأندلس بحـــق ، وترجم له كثـيرون من المشتغلين بتاريخ الاســـلام فى اسبانيا ، وفصلوا القـــول فى مؤلفاته « كالاحاطة » و « اللمحة البدرية » و « أعمال الاعلام » و « الكتيبة الكامنـــة » ، فكان « مقريزى الأندلس » فى غزارة الانتاج ، ونفاذ البصيرة .

ومن زاوية أخـــرى نرى مؤرخنـا قد احتـــل مكانة فريدة فى تاريخ الأدب العربى فى القرن الثامن الهجرى ، فملك زمام اللغة نثرا وشعرا ، بالاضـــافة الى ثقافة غزيرة ، وتجارب عديدة مكتملة . وظهر صدى ذلك كله فى رســائله السلطانية واخوانياته النثرية والشعرية ، تلك التى أعجب بها صـــديقه المؤرخ ابن خلدون فسماها « بالغرائب » . وقد جمع ابن الخطيب الكثير منها فى كتابه الكبير « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما نقل المقرى عددا منها فى كتابه « نفح الطيب » .

ولما نفى ابن الخطيب الى المغرب مع السلطان الغنى بالله ، استقر به المقام فى مدينة سلا قرب الرباط ، وأقام هناك ثلاث سنين (٧٦٠ - ٧٦٣ هـ / ١٣٥٨ - ١٣٦١ م) • وفى المنفى لم يكف ابن الخطيب عن الكتابة ، وتنقل فى بلاد المغرب، ولقى الكثيرين من العلماء ، ثم عاد الى سلا ، وأقام بضاحية « شالة » قرب أضرحة بنى مرين ، حيث ألف مجموعة من « كتب المنفى » (١) منها هذا الكتاب الذى حققه الدكتور محمد كمال شبانه •

لقد تضمن الكتاب تراثا سبق أن كتبه ابن الخطيب ، وسماه بهذا الاسم مشيرا الى الظروف السياسية السابقة واللاحقة •••

والكتاب يضم مقدمته ، ثم أقساما ثلاثة :

القسم الأول : وثيقة زواج نصرى جرت رسومه فى قصر الحمراء بغرناطه بين أخت السلطان أبى الحجاج يوسف الاول وبين القائد الرئيس أبى الحسن بن ابى جعفر • والوثيقه ـ بعد اطنابها فى تمجيد أعمال بعض الملوك الاوائل من بنى الأحمر ـ تضمنت تحقيقا لنسب هذه الأسرة انتهىبهم الى سعد بن عبادة الأنصارى•

والقسم الثانى والثالث : مجموعة من الرسائل تبلغ خمسا وعشرين رسالة كتبها ابن الخطيب على لسان السلطان يوسف الأول الى السلطان ابى عنان فارس المرينى ملك المغرب (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ / ١٣٤٩ - ١٣٦٠ م) • وهذه الرسائل توضح العلاقات الدبلوماسية التى كانت قائمة وقتذاك بين مملكتى غرناطة وفاس • وهى ـ بحق ـ وثائق هامة للباحثين فى أحداث المغرب والأندلس •

فالكتاب ـ اذن ـ مجموعة من الوثائق الفريدة فى تاريخ العلاقات بين المغرب والأندلس ، فهو الى الوثائق أقرب منه الى التاريخ •• ، وهو ـ لذلك ـ نص بالغ القيمة ، يضيف الى المكتبة الأندلسية اضافات نافعة ، ويلقى الضوء على فترة هامه من تاريخ تلك البلاد ••

وقد أقبل الزميل الدكتور محمد كمال شبانه علىهذا العمل العلمى الجيد بما اجتمع له من قدرات ابان دراسته الطويلة بغرناطة ، فضلا عن امساكه بزمام اللغـه ، وغوصه فىمعانيها ،وفهم أسرارها ؛ فقد كان نشر هـذا المخطوطاحوج الى قلم الأديب منه الى جهد المؤرخ •

---

(١) لعل أهم هذه الكتب بعد «الكناسة» ـ مؤلفة : « نفاضة الجراب » و «ومعيار الاختيار» و «الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة » و « رقم الحلل فى نظم الدول » •

لقد حقق الزميل وثيقة الزواج تحقيقا علميا جامعا ، وأثرى الهوامش بالكثير من الاضافات والاستدراكات والشروح . ثم نشر الرسائل سالفة الذكر فضبط تواريخها وحقق الكثير من الوقائع التى تضمنتها ، وفسر ما غمض من أسلوبها ، وأكمل ما وجد من نقص معتمدا على كتاب « الريحانة » .

فيسرنى أن أقدم هذا العمل الجيد للقراء العرب ، وأرجو أن يتابع الدكتور شبانه هذه الجهود الموفقة ..

دكتور
حسن أحمد محمود
أستاذ التاريخ الاسلامى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أحسب أننا بحاجة ملحة الى التعريف بالمؤرخ الأندلسي ابن الخطيب في اسهاب ؛ فقد تحدث عنه كثيرون من المشتغلين بتاريخ الاسلام في اسبانيا ، وأفاضوا في الاحاطة بترجمة حياته ، كما فصلوا القول عن معظم مؤلفاته ، لا سيما ما حقق منها وما نشر ، كالأجزاء الأولى من كتابه « الاحاطة في أخبار غرناطة » ، « اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية » ، القسم الأول من مؤلفه « أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، « الكتيبة الكامنة ، فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » .

لذلك سنتناول هذه الشخصية في هذه المناسبة في أضيق الرسوم ، وبعبارة أدق سنعرض لفترة من فترات حياته السياسية ، تسنى له فيها أن يتقلد منصب رئاسة ديوان الكتابة مع الوزارة ، فكان الناطق الرسمي بغرناطة ، باسم كل من السلطان أبي الحجاج يوسف الأول النصري (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ - ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) ، ثم ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله ، والذي وزر له - خصوصا - في الفترة الأولى من توليه السلطة (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ - ١٣٥٤ - ١٣٥٩ م) .

كان لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب السلماني حينما تولى يوسف الأول - في مثل سن هذا السلطان ، أو يتجاوزه بقليل ، وترعرع قرب قصر بني الأحمر ، ابان خدمة والده في ديوان الانشاء ، فتوثقت بينه وبين هذا الملك صلات فتوة وشباب ، وكان من الطبيعي أن يصل ابن الخطيب في عهده الى مرتبة الوزارة ، فضلا وعلما وأدبا ، ثم ثقة قبل كل هذا ، وكان لمهارته وذكائه وقع عظيم في نفس أبي الحجاج ، حتى فوضه معظم شئون الدولة ، من اختيار العمال والقضاة ، الى اصدار المراسيم ومكاتبة الولاة ، بل أنابه عنه في ادارة دفة الحكم ، عندما قاد السلطان

الجيش الأندلسي بنفسه في معركة طريف الشهيرة (٧ جمادى الأولى ٧٤١ هـ - ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م) ، ورمى اليه بخاتمه وسيفه حتى يعود من الجهاد ، بالرغم من أن أستاذ ابن الخطيب أبا الحسن بن الجياب كان على رأس ديوان الانشاء يومئذ ، مما يعطينا صورة جلية عن ثقة السلطان البالغة بصاحبنا ، بعد أن رأى فيه عزم الشباب وحصافة الشيوخ .

ولما أن توفي ابن الجياب في وباء الطاعون الجارف (شوال ٧٤٩ هـ / يناير ١٣٤٩ م) ، فخلف ابن الخطيب استاذه في الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لأبي الحجاج ، وكان قد ملك زمام اللغة نثرا وشعرا ، بفضل شيوخه من اعلام الأندلس ، وعلى راسهم ابن الجياب هذا ، بالاضافة الى ثقافته الشخصية وتجاربه الذاتية والنفسية ، حتى ظهر اثر كل هذا في رسائله السلطانية واخوانياته النثرية والشعرية ، والاولى منها تلك التي بعث بها على لسان كل من السلطان يوسف الاول وولده الغني بالله ، الى كل من ملوك المسلمين والنصارى المعاصرين ، والتي كانت محل اعجاب المؤرخ المعاصر ابن خلدون وتقديره ، فسماها بـ « الغرائب » ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير في كتابه الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما اورد المقري عددا لا باس به منها في كتابه « نفح الطيب » ، هذا المؤلف الذي أوقف صاحبه الجانب الأعظم منه على ابن الخطيب ، بل قرن اسم الكتاب به ، فسماه « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » .

هذا ، وحدث أن نفي ابن الخطيب مع سلطانه الغني بالله الى المغرب ، فاستقر في مدينة سلا قرب الرباط كما أشار الى ذلك في مقدمة هذه المخطوطة ، وذلك لفترة دامت ثلاث سنين (٧٦٠ - ٧٦٣ هـ - ١٣٥٨ - ١٣٦١ م) اقتنى خلالها الأموال والضياع . بيد أنه لم ينقطع عن الدراسة والبحث والتأريخ ، فجاس أنحاء المغرب ، والتقى في مدنه بالعلماء ، وفي خاتمة مطافه هذا رجع الى سلا ، حيث رابط قربها بضاحية « شالة » الى جانب أضرحة بني مرين ، حيث ألف مجموعة من كتبه (١) ، منها مؤلفه ، « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » الذي نحن بصدد تحقيقه (٢) ،

---

(١) هي : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ونفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، والحلل المرقومة في اللمع المنظومة ، رقم الحلل في نظم الدول ، وأراجيز وأشعار أخرى مختلفة ، نظمها ابن الخطيب في هذه الفترة أيضا . علاوة على كتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان .

راجع مقال د. أحمد مختار العبادي ، الذي نشره بالمغرب حول مؤلفات ابن الخطيب . (Héspérais 1959, 3-4 trimestres)

(٢) راجع مقدمة ريحانة الكتاب ، مخطوط خزانة الرباط رقم ٧٨٨ ، ٧٥٧ ، ٧٨٦ د ومخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥ .

وانظر كذلك (المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٥) حيث نص ابن الخطيب في بعض رسائله على أنه جمع ماكتبه في «الكناسة» بمدينة سلا في ذلك الوقت .

والكتاب كما يبدو من تسميته قد اشتمل على تراث فكرى سبق لمؤلفه أن دونه يوم كن بالاندلس ، وانه بقيه من البقايا التاريخيـة الأدبية التى حمل أشـتاتها معه الى المغرب ، بعد أن انتقل اليه بحكم ظروف خلع سلطانه الغنى بالله محمد الخامس ، كما أسلفنا • وقد لجا الى تسمية الكتاب بهذا الاسم الغريب قصد التلميح للظروف السابقه والظروف اللاحقه ، فى تعبير مسجوع مألوف ، شانه فى معظم مؤلفاته ان لم يكن فى مجموعها كلها •

ان هـذا الكتاب « كناسـة الدكان » لم نجد له سـوى مخطوطة يتيمة بمكتبة الاسكوريال بمدريد تحت رقم ١٧١٢ من فهرس الغزيرى ، هى التى نقلنا عنهـا ، وتقع فى احدى وسـتين لوحه من الحجم المتوسط ، قد كتبت بخط اندلسى جميـل انيق ، ومسطرتها ١٩ سطرا بكل صفحه ، بمقياس ١٤٫٢ × ٢٠٫٥ سم ، ومتوسـط كلمات السطر ١٢ كلمه • اما النسخه الموجـودة بدار الكتب المصريه بالقـاهرة ، والمسجلة تحت رقم ١٩٨٧٩ ز ، فهى نسخه مصورة بالفوتوستات عن الاصل المخطوط المحفوظ بمكتبة الاسكوريال بمدريد ، وقد نوه فى فهرس الدار بذلك ، وهو الفهرس الخاص بالمخطوطات والمطبوع فى عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) • بيد أن هذا لا يمنع القول بان جزءا ليس باليسير من رسـائل المخطـوطة قد ثبت ذكره فى مؤلف ابن الخطيب ايضا « ريحانة الكتاب » ، وقد اشار الناسخ للكناسة الى ذلك امام كل رسالة وفى بدايتها بقوله : « مثبوت فى الريحانه» او « ثبت فى الريحانة » • وقد دعانا هـذا ـ بطبيعة الحال ـ للرجوع الى « الريحانة » ، ووقع الاختيار على ثلاث نسـخ منها ، قوبل ما جاء بها من تلك الرسائل على ما ورد منها بـ (الكناسه) ، فالفينا بعض الزيادات هنا وهناك ، واحيانا بعض النقص فى كلا الجانبين ، وكانت النتيجة فى النهاية لهـذه المقابلات أن وصلنا الى صورة متكاملة فى الجملة لمخطوطة الكناسة ، ونبهنا عند كل نقص أو زيادة الى ذلك •

هذا ، وان النسخ الثلاث التى اعتمدناها من « الريحانة » هى :

(ا) نسختان بدار الكتب بالقاهرة :

الأولى : ونرمز لها بالرمز (أ) ويوجد منها الجزء الأول وبعض الجزء الاخير فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى أثنائها ثقوب ونقص واضطراب • وهـذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى ٣٠٩ لوحة ، تحت رقم ١٩٨٧٥ ز •

والثانية : ونرمز لها بالرمز «ب» ، بها نقص يسير من الخطبة ، أولها بعد الديباجة

« ... وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المشوقة ، بريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب ... الخ » ، فى مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم ٥٢٤ أدب ش ، ويقعان فى ٤٦٠/٦٥٠ صفحة ، ومسطرتهما ٢١ سطرا . وقد سجلا تحت رقم ٣٤٥٩ ز .

ب - ونرمز لها بالرمز « ج » وهى نسخة الاسكوريال بمدريد ، والمسجلة تحت رقم ١٨٣٥ فهرس الغزيرى ، - وهى نسخة جيدة للغاية ، وقد كتبت بخط أندلسى باهت ، وتقع فى ٢٨١ لوحة كبيرة اعنى ٥٦٢ صفحة ، فى كل صفحة ٢٧ سطرا ، وفى كل سطر ١٢ كلمة تقريبا ، وقد ذكر فى نهايتها انها كتبت فى سنة ٨٨٨ هـ . وهى عبارة عن مختارات من كتب ابن الخطيب ، ثم مجموعة كبرى من الرسائل عن السلاطين الذين وزر لهم بالاندلس والمغرب (ابو الحجاج - الغنى بالله - ابو سالم المرينى) .

ونعود للكناسة - بعد هذا - فنجد أنها تنتظم أقساما ثلاثة بعد المقدمة : وثيقة عقد زواج نصرى ، ورسائل سياسية فى شئون يغلب عليها الطابع المغربى ، ثم رسائل سياسية ايضا ولكن معظمها فى الشئون الأندلسية .

ان المقدمة لا تشغل أكثر من نصف لوحة من المخطوطة ، وهى بهذا تكاد تكون أقصر مقدمة لكتاب من مؤلفات ابن الخطيب ، وعلى أى حال فقد اشار فيها - على الخصوص - الى مضمون الكتاب ، والفترة التى جمعت هذا الشتات ، وهى فترة النفى الاولى التى قضاها بسلا بالمغرب ، على نحو ما اشرنا اليه آنفا .

أما القسم الأول من الكتاب فيمكن ادراجه تحت « الاجتماعيات » ، وفقا للمضمون ؛ حيث أنه عبارة عن وثيقة زواج نصرى ، تقع فى سبع لوحات تلى المقدمة مباشرة ، وقد جرت رسوم هذه الوثيقة فى قصر الحمراء بغرناطة ، بين السلطان أبى الحجاج يوسف الاول ، بصفته وليا ووكيلا عن أخته ، وبين أحد القواد من أبناء الأسرة النصرية ، وهو القائد الرئيس ابو الحسن بن جعفر بن نصر . وتلقى الوثيقة فى عمومها - ضوءا على تاريخ الملوك الأول من بنى الأحمر ؛ فقد نوه ابن الخطيب فيها بجهود هؤلاء السلاطين من خلال سلسلة تاريخ ارتقائهم لعرش غرناطة ، مشيدا بدفاعهم عن آخر ممالك المسلمين بالأندلس ، وأثناء الاشادة بتاريخهم نراه يحقق لنا نسب الأسرة النصرية هذه ، حتى يصله بأصول شجرتهم ، الى جدهم الأول الصحابى الجليل « سعد بن عبادة بن الصامت الخزرجى الأنصارى » .

أما القسم الثانى والثالث مما تحتويه هذه المخطوطة - وهو أهمها - فهو مجموعة من الرسائل السياسية ، ذات الشئون الأندلسية المغربية ، تبلغ خمسا وعشرين رسالة ،

من انشاء الوزير المؤرخ ابن الخطيب ، بعث بها كل من سابع سلاطين بنى الأحمر فى غرناطة يوسف الأول ، ثم ابنه ثامن هؤلاء السلاطين الغنى بالله محمد الخامس ، الى معاصره بالمغرب ، السلطان أبى عنان فارس بن أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى (٣٠ ربيع الاول ٧٤٩ هـ / ٢٨ ذى الحجة ٧٥٩ هـ) .

وهى رسائل تمثل – فى مجموعها – العلاقات الدبلوماسية التى كانت قائمة بين مملكتى غرناطة وفاس يومئذ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) ، وقد كانت علائق تتسم بالود والصفاء ، حيث تبودلت خلالها الرسل والهدايا ، وتدفقت معها على الأندلس المعونات الحربية والمادية المغربية ، جريا على سنة الأسلاف الأقدمين من ملوك المرابطين والموحدين تجاه الأندلس ، ولم يعكر صفو هذه العلاقات بين أبى الحجاج وبين أبى عنان مكدر ، اللهم الا مسألة الأمير أبى الفضل المرينى أخى أبى عنان ، والتى سنلمح اليها فى مناسبتها ، ثم عادت بعدها سماء البلدين صافية الأديم ، حتى قضى السلطان يوسف أبو الحجاج ، وذلك على نحو ما سنفصل القول فيه – بعد هذه المقدمة – عن علاقة هذا السلطان بالمغرب . ومن جانب آخر تعتبر هذه الرسائل – من الوجهة التاريخية – وثائق هامة للباحثين فى أحداث تاريخ المغرب والأندلس ؛ لما تكشف عنه من حقائق تاريخية ذات أهمية بالغة .

ولقد كان من الأنسب – فى هذا القسم من الوثائق – أن نميز بين لونين من الرسائل ، وضح فى الجزء الأول منها أنه يتعلق بأحداث مغربية ، واما تاليه – وهو الجزء الثانى – فيتعلق بأحداث أندلسية ، أو يغلب فيها طابع الأحداث الأندلسية ، كما أن القسم الأكبر من تلك الرسائل – بنوعيها – مرسل الى السلطان الابن (أبى عنان) معاصر أبى الحجاج حتى نهاية حكمه لغرناطة .

هذا ، وقد وردت فى نهاية المخطوطة عبارة ، أغلب الظن أنها من وضع الناسخ ، وهى : « الى هنا انتهى ما ألفى من المبيضات التى كتب بها عن السلطان أبى الحجاج رحمه الله ، ما عدا الثابت فى السفر المسمى بالسلطانيات » . ويهمنا من هذا أن نذكر أن جزءا كبيرا آخر من رسائل ابن الخطيب غير ماورد فى « الكناسة » قد ذكر بمؤلفه « الريحانة » ، كما أسلفنا ، ولما كان المؤلف قد اعتاد تقسيم كتبه الى أسفار ، وأنه ذكر أثناء ترجمته لحياته فى الاحاطة – أن كتابه « ريحانة الكتاب » يقع فى ثمانية أسفار ، فقد وضح اذن أن أحد هذه الأسفار قد خصصه برمته للرسائل السلطانية ، تبعا لما جاء موجزا بعبارة الناسخ للكناسة ، التى أوردنا ذكرها هنا .

كما تجدر الاشارة الى أننا قد وقعنا على رسالتين من رسائل (كناسة الدكان) لم تردا فى هذه المخطوطة التى نحن بصدد تحقيقها ، ولكن ابن الخطيب أشار اليهما فى

كتابه « الاحاطه » ، وأوردهما المقرى فى «نفحه» [1] وهما يتعلقان بالشفاعة عندسلطان المغرب أبى عنان فارس المرينى ، لصالح الشيخ محمد بن محمد بن احمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى بكر على القرشى المقرى ، المكنى بأبى عبد الله قاضى الجماعة بفاس بالمغرب ، وهو تلمسانى الأصل ، وجدُّ المقرى صاحب كتاب « نفح الطيب » ، الذى احتفل بأخبار هاتين الرسالتين ، وأورد أولاهما كاملة فى هذا الكتاب، أما الأخرى فقد اقتصر فيها على الغرض . لذلك رأيت أن أدرج هاتين الرسالتين فى نهاية رسائل هذه المخطوطة موضوع التحقيق ، اذ لا شك أن هناك نسخة أخرى من « الكناسة » قد وردت بها هاتان الرسالتان ، وان كنا لم نعثر عليها .

على أنه كان من الطبيعى ـ بادىء ذى بدء ـ أن نقدم لهذه الوثائق ـ على اختلاف مناسباتها ـ بالمامة موجزة لمملكة غرناطة النصرية ، وظروف اعتلاء صاحب هذه الوثائق ، أبى الحجاج يوسف الأول عرش المملكة ، ثم تبيان للأحداث التى تضمنتها وثائق المخطوطة فى الجملة ؛ حتى نلقى ضوءا على ما جاء فيها ، وليكون القارىء على فهم لما تضمنته الرسائل من اشارات قد تكون عابرة أحيانا ، ويحتاج الأمر معها الى الاحاطة بالمغزى الذى اليه تشير ، لا سيما ما يتعلق منها بالسياسة الخارجية لدولة يوسف الأول ـ الذى أنشئت الرسائل على لسانه ـ تجاه كل من المغرب وأسبانيا النصرانية (قشتالة وأراجون) ، كما ذيلت الكتاب فى النهاية بملحق خاص فى هذا الشأن ، ضمنته عرضا موجزا لفترات الحرب وفترات السلم ابان حكم هذا السلطان (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤ م) . وبذلك نضع تحت أنظار الباحث مرجعا متكاملا أكثر منه وثائق مجردة محضة .

وسيجد القارىء قبل بداية كل وثيقة مذكرة موجزة عن ظروف الرسالة التالية وملابساتها ، بعد أن بذلنا ـ مع هذا ـ أقصى جهد مستطاع لمحاولة تأريخ ما لم يكن مؤرخا من هذه الوثائق ، وذلك فى ظل الأحداث والظروف التى لابست كلاً منها على حدة .

أخيرا ، آمل أن أكون بهذا التحقيق لهذا الكتاب قد ساهمت بلبنة فى صرح المكتبة الأندلسية عامة ، وفى نشر ذخيرة من ذخائر ابن الخطيب خاصة . والله الموفق ؟

دكتور
محمد كمال شبانه
مدرس التاريخ الاسلامى ـ كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

القاهرة : المحرم ١٣٨٦ هـ مايو ١٩٦٦ م

(١) نفح الطيب للمقرى جـ ٧ ص ١٢٩ ـ ١٣٦ .

عرض موجز

للأحداث التاريخية، ذات الصلة بما ورد

في كتاب

«كناسة الدكان بعد انتقال السكان»

- ١ -

(بنو نصر ومملكة غرناطة)

نشأت مملكة بنى نصر قبيل منتصف القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ، واتخذت من مدينة غرناطة عاصمة لها ، وكانت الدولة يومئذ تشمل الجزء الجنوبى من الأندلس ، منحدرة جنوبا وراء نهر الوادى الكبير حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط وبوغاز جبل طارق ، بينما كانت حدودها الشرقية تشمل ولاية مرسية ، ممتدة شرقا حتى البحر ، كما وصلت الحدود الشمالية الى ولايات أشبيلية وقرطبة وجيان ، والغربية الى أرض الفرنتيرة وولاية قادس .

وكان تقسيم المملكة الادارى وقتئذ يشتمل على ثلاث ولايات كبرى :

ولاية المريَّة (١) :

وتشمل المساحة التى تشغلها مرسية حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وأهم مدنها : المـريَّة ، وأنْدَرَش ، ودلايَة وبُرجَة ، وبُرشانة ، والمَنْصورَة ، وبيِرة .

ولاية مالقة(٢) :

وموقعها متاخم لساحل البحر الأبيض شرقى غرناطة ، وأهم مدنها : مالقة ، ومرْبلَّة ، ورُندة ، وأنتقيرة ، وأرشدونة ، وبلِّيش مالقة ، وقُمارش ، كما تتبعها طريف ، والجزيرة الخضراء ، وجبل طارق .

---

(١) المرية ، وتعرف فى الاسبانية باسم Almaria ، وهى مدينة ساحلية كبيرة تقع جنوب شرق الاندلس ، بينها وبين مالقة ٢٢٢ كم ، من أجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وهى عاصمة الولاية ، يبلغ تعداد سكانها اليوم حوالى ٦٥٫٠٠٠ الف نسمة . وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفاكهة . وكانت فى العهد الاسلامى من أهم ثغور الأندلس الجنوبية . بناها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م ، وسقطت فى يد الاسبان فى فبراير ١٤٩٠ م/٨٩٥هـ.

راجع : الروض المعطار للحميرى ص ١٨٣ — ١٨٤ ، وكذا دائرة المعارف الاسلامية « زيبولد »
Enc. Ist., p. 319.

(٢) مدينة ساحلية اسبانية تعرف فى الاسبانية باسم Malaga تقع جنوب شرق الاندلس ، يرجع تأسيسها الى الفينيقيين عام ١٢٠٠ ق.م ، وحيث كانت تعرف لديهم باسم Malaca ، بمعنى المملح ، نسبة الى الاسماك المملحة التى اشتهرت بها . كانت عاصمة الحموديين الأدارسة من ملوك الطوائف ، كما كانت العاصمة الثانية لملوك بنى الاحمر ، راجع : المقرى فى **نفح الطيب ج ١ ص ١٨٦ ، وياقوت الحموى فى معجم** البلدان جـ ١٨ ص ٢٧٦ .

ولاية غرناطة :

وتتوسط المملكة ، ممتدة جنوبا حتى البحر ، وأهم مدنها : العاصمة نفسها . ووادى اش أو وادياش ، والحامة ، ولوشة وارجيــة ، وأشــكر ، وحصن اللوز ، وبسطة ، وشلوبانيَّة . وتخترق المملكة عدة أنهار أهمهـا نهر شنيل ونهر المنصورة ، كما تخترقها سلسلة جبال سييرًا نيفادا وهضاب البَشَرَّات ، وتنتشر سهولها الخضراء المترامية الأطراف ، والتى تمد المنطقة بثروة زراعية هامة ، زيادة على ما تجود به المناطق الجبلية من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس . هذه الطبيعة الكريمة للمملكة قد اجتذبت المسلمين من أفريقيا والشرق على مدى العصور منذ الفتح العربى ، كما بدأ سيل المهاجرين من الداخـل يفد على مملـكة غـرناطة منذ سـقوط الدولة الأموية بالأندلس ، علاوة على طوائف البربر الذين وفدوا من المغرب ، وطاب لهم المقام بأرض الفردوس ، حتى غدت بهم غرناطة يوما امارة تميزت بعنصر البرابرة ، رغم ما بها من سكان آخرين . وقد زاد تدفق هؤلاء البرابرة على مر الأيام ، وخاصة على القواعد الجنوبية ، فى عهد دولتى المرابطين والموحدين ، يضاف الى هؤلاء بعض المحاربين القادمين من أفريقيا أو المشرق ، والذين كانت تستهويهم خيرات البلاد ، وتغريهم نضرتها بالمقام ، فيتخلفون بها مستوطنين .

هذا ، ويلاحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية المتاخمة قـد بدأت تتزايد على مملكة غرناطة كلما سقطت فى يد الأسبان مدينة من المدن المسلمة ، سواء منها الشرقية أو الوسطى ، وبخاصة أولئك المسلمين الذين فضلوا الهجرة الى المناطق الاسلامية على الخضوع للنصـارى وقبول التـدجن ، ومن أولئك النـازحين أسرات عريقة أندلسية لجأت الى المناطق الجنـوبية والمـدن الساحلية . بيـد أن هذا لا ينفى أن بعض هؤلاء المغلوبين على أمرهم قد أقعدتهم مصالحهم وظروفهم حيث مقامهم الأصلى ، تحت السيادة الاسبانية الجديدة ، أولئـك الذين عـرفوا فى تاريخ الأندلس باسم المدجنين Los Mudejeros

وقد شاع استعمال هذا الاسم منذ ازداد عدد الرعية المسلمة التى دخلت فى طاعة النصارى ، بعد استيلاء الأخيرين على أراضى أولئك ، أوائل القرن السـابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

ويقترن اسم مملكة غرناطة فى تاريخ الأندلس باسم أسرة بنى الأحمر أو بنى نصر ، تلك الدولة الاسلامية الصغيرة التى أوجدتها ظروف غير عادية ، وبقيت صامدة

للفنن السياسة بالداخل ، والتيارات الحربية من الخارج قرابة قرنين ونصف من الزمان ، وفي صددها يذكر المؤرخون [1] ان السلاطين الذين تعاقبوا الملك على غرناطة من بني نصر يرجع نسبهم الى « سعد بن عبادة الأنصاري » ، أحد كبار صحابة رسول الله (ص) ، وسيد قبيلة الخزرج من الانصار بالمدينة ، مما يضفي على هؤلاء السلاطين عراقة في المجد ، ونسبا في التاريخ مشهور .

ولقد كان أول ملوكهم ومؤسس دولتهم هو « الغالب بالله أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري » . ولد في « أرجونة » من أعمال ولاية جيان عام ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م ، حيث تربى تربية دينية ، وعاش حياة بسيطة ، أملتها ظروف الجندية التي خاض غمارها بادىء ذي بدء ، فتمكن بهذه الصفات وغيرها من المؤهلات الزعامة أن يسود قومه ، وكانت الأندلس يومئذ على حال من الاضطراب جعلته يتبنى الأحلام الكبار ، وتغريه باقتحام هذا الميدان ؟ فقد أغار الأسبان وقتئذ على القواعد الأندلسية ، وفي الوقت نفسه تراجع الموحدون في الثغور الشرقية ، أمام أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود ، وكان أميرا قد شق عصا الطاعة على هؤلاء الموحدين ، واستقل بولاية مرسية ، فرأى ابن الأحمر أن الفرصة قد سنحت له في الأنحاء الوسطى من الأندلس . وبينما نرى ابن هود يثبت أقدامه في شرقي الأندلس وجنوبها نرى ابن الاحمر وقد دخلت في طاعته كل من مدينة بياسة ووادي آش وما جاورهما من البلاد والقواعد والحصون ، وبعدها توجه الى الموانى الجنوبية حيث يسهل عليه الاتصال بعدوة المغرب ، وحتى يبتعد عن مواقع الاسبان الشمالية . ولكي يحقق ابن الأحمر أطماعه في طمأنينة تامة فقد توجه الى الأمير «أبي زكريا الحفصي» صاحب أفريقية (تونس) يطلب منه العون ، ويستظل بالدعوة اليه ، فأجابه هذا الأخير الى مطلبه ، وأعانه على أمره ، حتى أطاعته قرمونة وقرطبة وأشبيلية ، وذلك لفترة محدودة ، أواسط عام ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م ، ثم تخلت عنه أشبيلية وقرطبة ، ودخلتا في طاعة ابن هود . وقد حدث حينئذ أن نشبت الثورة في أشبيلية ، وتمكن من الاستيلاء عليها أحد الزعماء الثائرين ، وهو « أبو مروان الباجي » ، وطرد منها عامل ابن هود عليها ، فانتهز « ابن الاحمر » هذه الفرصة ، وتحالف مع هذا الثائر ضد ابن هود ، وعقدا العزم على مقاتلته ، وكان أن هزماه في بعض المواقع . بيد أن ابن الاحمر نقض عهده مع حليفه ، ودبر له من قتله [2] ، وبعد فترة قصيرة تمكن من فرض

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ص ٢١ ، الاحاطة ج ١ ص ١٤٨ « عنان » .
(٢) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ص ٣١ ، وابن ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ١٦٩ .

سلطانه على كل من جيان ومالقة وشريش وغيرها من البلاد والحصون القريبة عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م ، وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يكون لنفسه جيشا عظيما ، قوامه مشاة وفرسان ، مزودين بالعتاد ، مدربين على فنون القتال .

وفى تلك الأثناء لعب ابن الأحمر دورا له طرافته؛ حيث مهد له الطريق لملك غرناطة ، ذلك انه أحس بأن سلطان غريمه «ابن هود» قدامتدحه نحو الغرب والجنوب، وأنه يدعو للخليفة العباسى فى المشرق ، والذى أقره بدوره على ما بيده ، فرأى ابن الأحمر أن ينحاز اليه هو الآخر فى الظاهر ، ولكن هذه الخطة لم تثمر شيئا ؛ فقد توفى « ابن هود » فى هذه الأثناء عام ٦٣٥هـ = ١٢٣٧ م ، بعد أن كان قد ولى على غرناطة « عتبة بن يحيى المغيلى » ، وكانت هناك خصومة شديدة بين هذا وبين ابن الأحمر ، كما ان حاكمها كان ظالما قاسيا ، حتى أن أهل غرناطة كثيرا ما تلمسوا الخروج عن طاعته ، وفعلا ثار عليه نفر من أعيان المدينة تحت زعامة أحدهم واسمه « أبو خالد » ، حيث هاجموه فى القصر وقتلوه ، وفى الحين أرسلوا فى طلب ابن الأحمر ، وأعلنوا طاعته ، ويبدو أن صاحبنا كان يعمل من جانبه فى الخارج لذلك ، كاتخاذه الأعوان والأنصار الذين ألبوا الرأى العام الغرناطى على « عتبة » حاكم المدينة، حتى جعلوا حداً لنهايته .

قصد ابن الاحمدبعدئذ مباشرة الى غرناطة تلبية لدعوة أهلها ، فدخلها فى أواخر رمضان ٦٣٥ هـ = أبريل ١٢٣٨م ، فى ثياب التقشف ومظاهر الزهد وسيماء التواضع ؛ حيث أضحت العاصمة لملكه منذ ذلك الحين ، ورفع لواء بنى نصر على حمرائها ، يعلن قيام ملكهم عليها . وسرعان ما أنفذ عزمه على الاستيلاء على «المرية» ، وطرد عامل ابن هود عليها ، المسمى « ابن الرميمى » والذى غادرها من جهة البحر ومعه أسرته وخاصته ومتاعه ، ويمم وجهه شطر تونس لاجئا سياسيا على أميرها « أبى زكريا الحفصى » ، وباستيلاء ابن الأحمر على المرية يكون قد بسط نفوذه على الشواطىء الجنوبية للأندلس .

أخيرا توفى مؤسس دولة بنى محمد ابن الأحمر فى جمادى الثانية عام ٦٧١هـ = ديسمبر ١٢٧٢ م ، بعد أن أصيب بجرح بالغ ، على أثر سقوطه من فوق جواده ، فور عودته من احدى المعارك التى خاضها ضد بعض الثوار ، الذين حاولوا اقتحام قصر الحمراء لاغتياله ، ولكنه ردهم على أعقابهم عنها خائبين ، وقد قارب عمره عند وفاته الثمانين ، وكان قد أعلن البيعة لمحمد أكبر أولاده ، وبذلك أضفى على أسرته مبدأ الملكية المتوارثة(١) ، وكانت المملكة قد استقرت لهم منذ عهده ، كما قويت دعائمها الى حد كبير .

---

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ص ٣٦ ، وكذا الاحاطة ج ٢ ص ٦٥ ط القاهرة ١٣١٦ هـ .

- ٢ -

ملوك بني نصر

منذ المؤسس حتى السلطان يوسف الأول « أبو الحجاج »

محمد الأول (الشيخ)

من أواخر رمضان ٦٣٥هـ (ابريل ١٢٣٨ م)

الى جمادى الثانية ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م)

محمد الثاني (الفقيه)

من جمادى الثانية ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م)

الى شعبان ٧٠١ هـ (مايو ١٣٠٢ م)

محمد الثالث (المخلوع)

من شعبان ٧٠١ هـ (مايو ١٣٠٢ م)

الى شوال ٧٠٨ هـ (أوائل ١٣٠٨ م)

نصر بن محمد الثاني (أبو الجيوش)

من شوال ٧٠٨ هـ (أوائل ١٣٠٨ م)

الى شوال ٧١٣ هـ (ابريل ١٣١٣ م)

اسماعيل الأول بن فرج (أبو الوليد)

من شوال ٧١٣ هـ (ابريل ١٣١٣ م)

الى رجب ٧٢٥ هـ (ديسمبر ١٣٢٤ م)

محمد الرابع بن اسماعيل

من رجب ٧٢٥ هـ (ديسمبر ١٣٢٤ م)

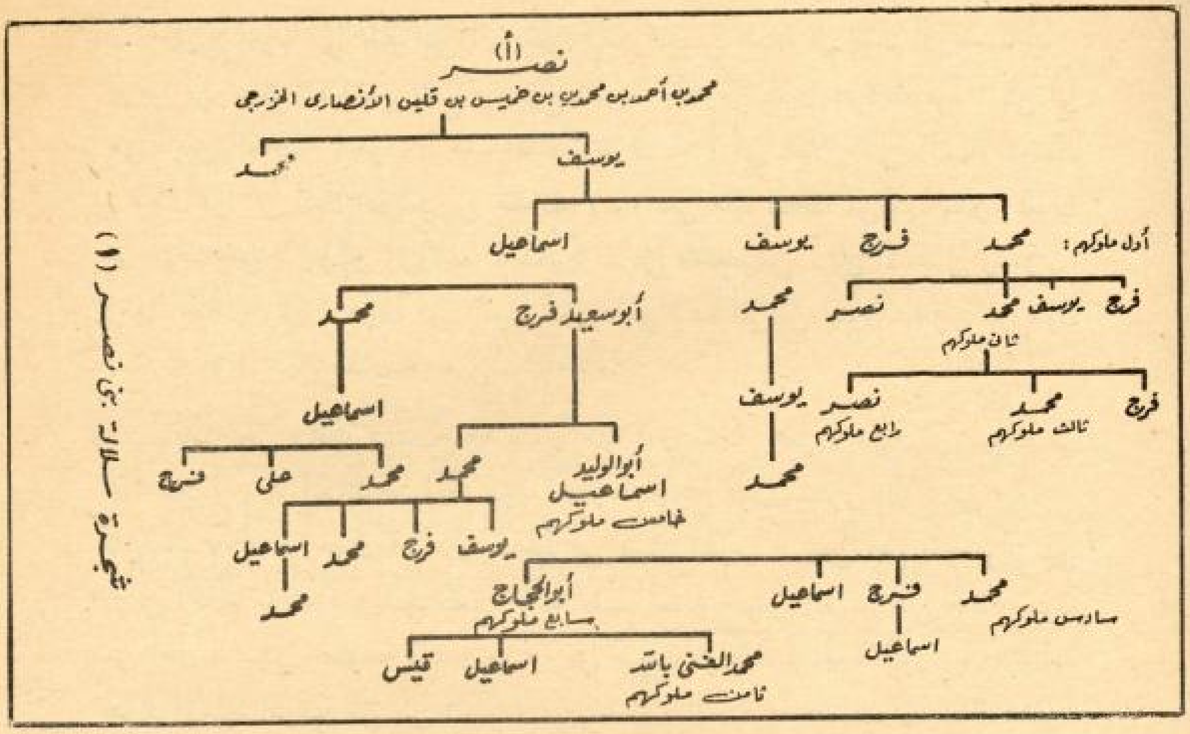
الى ذى الحجة ٧٣٣ هـ (أغسطس ١٣٣٣م)

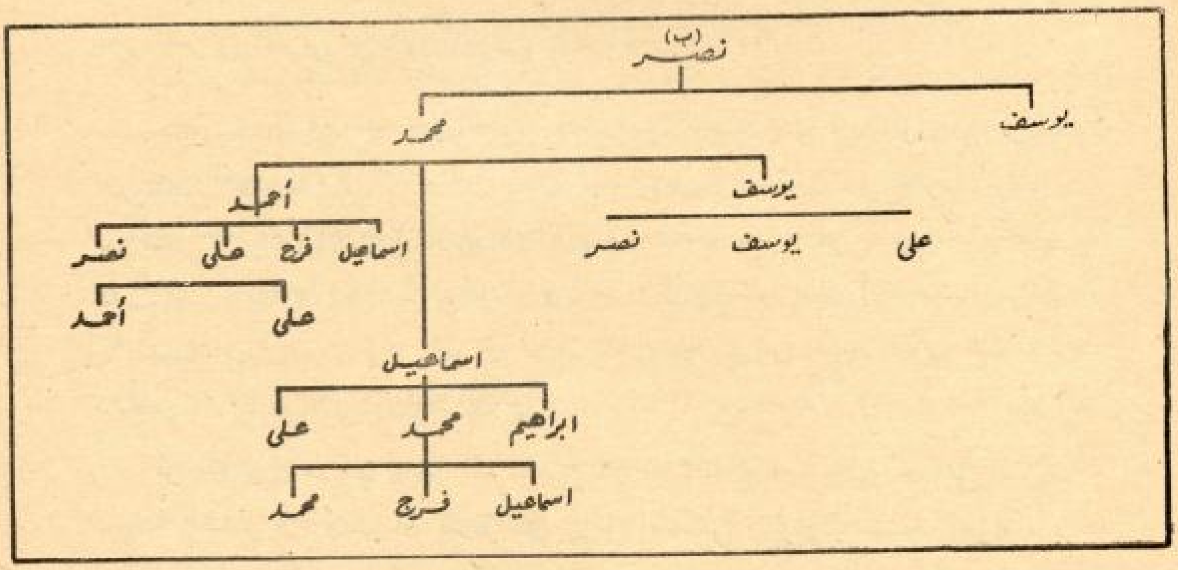
يوسف الأول أبو الحجاج (الغالب بالله)

من ذى الحجة ٧٣٣هـ (أغسطس ١٣٣٣م)

الى شوال ٧٥٥هـ (أكتوبر ١٣٥٤م)

شجرة بني نصر





---

(١) راجع اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية ص ١١٢ – ١٢٣ ، والاحاطة ص ٣٩ – ٤٠ ، حيث أرخ ابن الخطيب فى تسلسل تاريخى لبنى الاحمر حتى دولة من عاصر منهم اخيرا وهو «الغنى بالله محمد الخامس (ثامن ملوك بنى نصر) » ، وكذلك زمباور – معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى جـ ١ ص ٩٣ – ٩٤ ، وابن خلدون فى العبر : جـ ٤ ص ١٧٠ – ١٧٩ .

- ٤ -

ظروف اعتلاء يوسف الأول عرش غرناطة

درج ملوك بنى نصر على أن يكلوا قيادة الجيش العامة الى قواد أفارقة مغاربة ، عرفوا فى تاريخ الأندلس باسم « شيوخ الغزاة » ، ومن أبرز هؤلاء أسرة تنتمى الى بنى مرين الحاكمة بالمغرب ، هذه الاسرة تعرف به « بنى العلا » على راسها شيخها « عثمان بن ابى العلا ادريس بن عبد الله » ، وتعنى هذه الخطة من بنى نصر التقرب الى بلاط فاس ، وتوثيق الروابط العسكرية ـ على الخصوص ـ بين الاندلس والمغرب ، ومن ناحية أخرى لما عرف عن القواد المغاربة من شدة المراس لفنون الحرب ، وطول التجربة فى ميادين القتال ...

فاذا نحن رافقنا الشيخ أبا عثمان هذا ابان مقامه بالمغرب وقبيل قدومه الى الأندلس ، رأينا أنه شخصية عسكرية تحدوها أطماع فوق مستوى القادة من امثاله ، ففى عام ١٣٠٧ م حدث ان كان صاحبنا فى شمال المغرب ، يعلن عدم الخضوع لبنى مرين الحكام يومئذ ، ويشق عصا الطاعة عليهم تعضده بعض القبائل التى التفت حوله من اهل الشمال خصوصا ، لما رأوا فيه من صفات تؤهله لمثل هذه الثورة ، فهو احد أفراد الأسرة المرينية من بنى العمومة ، وشخصيته العسكرية قد بلورتها طبيعة العمل ، و كان أن اجتذب القبائل الى صفه الواحدة تلو الأخرى ، آملا ـ بعد كل هذا ـ أن يظفر بالعرش المغربى من دون الجالس عليه ..

تابع « عثمان » زحفه نحو الجنوب حيث مقر العاصمة فاس ، واستولى فى طريقه على بعض الحصون ، ودعا لنفسه ، منتهزا فرصة مصرع السلطان أبى يعقوب المرينى ، فى ذى القعدة عام ٧٠٦ هـ (ابريل ١٣٠٧ م) وماأعقب مصرعه من نشوب حرب اهلية فى البلاد ، يتزعمها ولداه الأميران : أبو ثابت ، وأبو سالم ليظفر أحدهما بعرش أبيه من دون الآخر ، ثم ما كان من انجلاء هذا الصراع عن مقتل « أبى ثابت » ، وتولى اخيه « أبى سالم » سلطة الحكم .

من هنا نرى ما كان يحدو أسرة بنى العلا من أطماع ، منذ ظهورهم على مسرح السياسة العسكرية ، وقبل أن يقدموا الى أرض الأندلس ويتولوا « مشيخة الغزاة » ، بعد أن تحطمت أحلامهم بالمغرب ، اثر هزيمة « عثمان بن أبى العلاء » قرب فاس مؤخرا ، أمام جيش السلطان سليمان بن الربيع المرينى عام ٧٠٧ هـ (١٣٠٩) م ، حيث خشى شيخ بنى العلا الثائر عاقبة أمره ، فاضطر الى الفرار ـ رفقة أسرته ـ الى الأندلس ، والتحق بغرناطة العاصمة فى نفس العام، حيث كان «نصر أبو الجيوش»

سلطانا يومئذ ٧٠٨ هـ - ٧١٣ هـ (١٣٠٨ - ١٣١٣ م) ، فولى الشيخ عثمان أبو العلا قيادة الجيش الاندلسى العامة ، فخاض هذا القائد معارك شتى فى ارض الجهاد ، وحقق فى معظمها نصرا مؤزرا ودعم بذلك مركزه ومركز اسرته تجاه ملك بنى الاحمر ، فاعظم هؤلاء قدرهم ، واعترفوا بكفايتهم ، الامر الذى جعلهم يتمسكون بهم ، ويابون تسليم شيخهم - خصوصا - لسلطان المغرب « أبى سعيد المرينى » الذى الح مطالبا برئيسهم ، ثم شفع الحاجة بالتهديد تارة ، وبالوعيد - بقطع المعونة المغربية عن الاندلس - تارة أخرى ، ولكن بنى الأحمر اختاروا الجفوة المؤقتة بين البلاطين (غرناطة وفاس) على ان يخفروا ذمتهم ، ويسلموا قائدهم المظفر ، ولقد كانوا على حق فيما ذهبوا اليه ، فالنصارى الأسبان يحيطون بالأندلس من كل جانب ، والمملكة ما تزال بعد فى طور النمو ، اذن فلا غنى لها - فى مثل هذه الظروف - عن هؤلاء القواد المغاربة المهرة ، أولئك الذين ظفروا - بحق - بشهادة المؤرخ (ابن خلدون[١])، حيث أثنى على جهودهم الموفقة فى المضمار الحربى ، وأردف يعلل لتلك الانتصارات التى أحرزوها بأن مرد الفضل فيها يعود الى الحالة التى كانوا عليها من التقشف ، والحفاظ على بساطة البادية وتقاليدها .

***

وحدث أن تولى العرش الغرناطى بعد فترة السلطان « محمد بن أبى الوليد اسماعيل » عقب مقتل أبيه فى رجب ٧٥٢هـ (يونيه ١٣٥٢م) ، فنشب خلاف بينه وبين « شيوخ الغزاة » ، وتمادى هؤلاء فى تمردهم الى حد الاعتصام ببعض الثغور الجنوبية ، ومنها - على الأخص - ثغر المرية ، وقد أعانهم على ثورتهم هذه الأمير محمد بن فرج بن اسماعيل عم السلطان الجالس وقتئذ على العرش ، بغية التخلص من ابن أخيه طمعا فى ملكه ، منتهزا فرصة هذا الخلاف الذى استشرى بين بنى العلا وبين السلطان ، واستمالهم اليه بالوعود ، فدعوا له والتفوا حوله ، وكان أن نشبت معارك محلية بين القوى المعارضة والقوى المؤيدة ، كان الفريقان ينتصفان فى معظمها، ولم تهدأ هذه النيران الأهلية نوعا الا عندما استولى القشتاليون على ثغر البيرة ، وعلى عدد من الحصون ، منتهزين - بدورهم - فرصة الخلاف على العرش النصرى ، الأمر الذى خشى عاقبته السلطان محمد فبادر الى مد يد المصانعة الى بنى العلا ، وصالحهم على أن يستقروا بوادى آش تحت طاعته . وقد تصادف - فى هذه الأثناء - أن صفا الجو بين غرناطة وفاس ، وتكرر من جديد - طلب فاس من غرناطة - تسليم « بنى العلا » ، فخشى هؤلاء عاقبة هذا الصفاء من زاويتهم ، وأوجسوا خيفة من

---

(١) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ .

السلطان النصرى ، خاصة وأنهم أضحوا أعداء للدولتين ، فرأوا أن يعاجلوا سلطان غرناطة ، قبل أن يفكر في تسليمهم او التخلي عنهم ، فدبروا مقتله أثناء عودته من معركة فاصلة استرد فيها جبل طارق من يد الاسبان ، واختاروا لتنفيذ مؤامرتهم ضده بعض غلمانه للاجهاز عليه ؛ مبالغة منهم في التخلص من تبعة مصرعه ، وتم تنفيذ الخطة عندما تعرضوا له في طريقه قافلا الى مالقة في بعض اساطيله ، وكان قد وصل الى الوادى المنسوب الى السقائين ، وعنده أوقعوا به ، في يوم الاربعاء ١٣ ذى الحجة ٧٣٣ هـ [١] = (٢٥ أغسطس ١٣٣٣ م) ، « وبقيت جثته في العراء أياما ، ثم حملت من بعد الى مالقة حيث دفن بها ، دون أن يغسلوه أو يكفنوه أو يصلوا عليه ، واجتمعوا بعد أيام من دفن اشلائه ، وحط علائه ، وكفران نعمه ، وآلائه ، فحشدوا صفات دينه ، بالطفر ، وكتبوا فيه عقدا بالكفر ، شهد فيه جملة من أعلامهم » . [٢]

وهكذا نرى أن بنى العلا بقدر ما حققوا من انتصارات للعرش النصرى ، حفاظا عليه من خطر الاسبان في الخارج ، وبقدر ما تفانوا في استتباب الامن في الداخل ـ بقدر ما كانوا شوكة خطيرة في جنب عرش بنى الاحمر يحسب لها حسابها ، ويقام لها وزنها ، فبعد أن تم لهم القضاء على السلطان محمد على هذه الصورة المؤسفة ، نراهم وقد تابعوا استبدادهم ووصايتهم على الأمور بغرناطة ، فتولوا بأنفسهم تنصيب الملك الجديد ، وأخذ البيعة له من الرعية ، وكان السلطان الحديث هو « أبو الحجاج يوسف الأول » الذى ارتقى العرش ولم يبلغ بعد سن الرشد ، فقد تولى في نفس يوم مصرع أخيه ، وكانت سنه اذ ذاك خمسة عشر عاما ، وثمانية أشهر [٣] . بيد أن المواهب التى اختص بها ، وما أهلته له التقاليد الملكية ، جعلته يضطلع بأعباء المملكة ، ويتمرس شئونها ، في ظل ادارة حاجب أخيه أبى النعيم رضوان ، حيث وقع الاجماع على اختياره للوزارة ، أوائل المحرم ٧٣٣ هـ = (منتصف أغسطس ١٣٣٣ م) فرضى به الكل ، وفرحت العامة والخاصة للخطة [٤] .

وهكذا كان اعتلاء السلطان يوسف الأول للعرش الغرناطى ...

---

(١) ابن الخطيب ـ اعمال الاعلام ـ تحقيق « ليفى بروفنسال » ص ٣٤٤ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) ابن الخطيب ـ اللمحة البدرية ص ٨٩ ، بينما يذكر النباهى قاضى الجماعة المعاصر أيضا أن أبا الحجاج تولى السلطة وعمره سبعة عشر عاما ، فلعله يقصد بتاريخه هذا السلطة الفعلية : « لافوينتى الكانترا ميجيل » ص ١٦٢ ، نقلا عن مخطوطة النباهى القاضى « نزهة البصائر » .

(٤) ابن الخطيب ـ الاحاطة ج ١ ص ٣٣٣ « عنان » .

- ٥ -

علاقة السلطان يوسف الأول
ملك غرناطة بالدولة المرينية فى المغرب

منذ أن جلس أبو الحجاج يوسف الأول على عرش غرناطة ، وهو يوطد العلاقات مع المغرب ، فقد كان معاصره فى اول الامر من المرينيين السلطان ابو الحسن على بن عثمان المرينى ، الذى كتب اليه - تحت ضغط النصارى - يستنجده ويستظهره على الاعداء ، فكان ان ارسل اليه النجدات والمساعدات ، تحت قيادة ولده الامير ابى مالك ، ثم استشهد هذا الامير بارض الاندلس ، وتلا ذلك قدوم ابى الحسن المرينى نفسه ؛ حيث باشر موقعة طريف المشئومة ، والتى تمخضت عن هزيمة الجيوش المغربية والأندلسية ، فى ٧ جمادى الآخرى ٧٤١ هـ (٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م) ، ومع كل هذه التضحيات فقد كانت بين غرناطة وفاس أكثر من وشيجة مودة وتجاوب ، اتخذت مظاهر شتى بين الملكين ؛ فقد تبودلت رسائل التهانى بالفتوحات والانتصارات ، وأبقى يوسف ابن الاحمر على تقليد رئاسة الجيش بالأندلس لابناء عم ملك المغرب (بنو العلا) ، واستمرت هذه العلائق حتى أخريات عهد السلطان أبى الحسن ، التى لم ينس خلالها السلطان يوسف الأول أن يقف الى جوار صديقه ، وخاصة فى محنته الاخيرة ، عندما ثارت عليه القبائل بافريقيا ، وجنح ابنه أبو فارس عنان الى الانتقاض عليه ، حيث كان السلطان أبو الحسن حينئذ بتونس « يرجو الأيام ، ويأمل الكره ، والأطراف تنتقض ، والخوارج تتجدد ، وقنط من كان معه من حاشيته ، وسئموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام ، فحسنوا له النهوض الى المغرب ، فأسعفهم وعزم على الرحلة . وفى هذه المدة كتب اليه السلطان أبو الحجاج يوسف ابن الاحمر كتابا من انشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ، يسائله عن أحواله ، ويعزيه عن مصابه ، ويتأسف له [1] » ، وكان ذلك قبيل عيد الفطر من عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م ، ويعتقد أن هذه الرسالة ربما كانت آخر رسالة وصلت اليه من صديقه أبى الحجاج ؛ فقد خاض أبو الحسن بعدئذ أهوالا جساما ، وضاع أسطوله فى البحر تجاه الجزائر ، وغرق معظم حاشيته ، ووصل الى المغرب بعد أن وهنت قواه ، وان كان قد لاقى بعض الانتصارات فى طريقه ، الا أنه انهزم أخيرا عند مراكش من قبل ابنه أبى عنان ، الذى دعا لنفسه ، الأمر الذى اضطره الى التسليم بالواقع ، والتنازل له عن العرش ، ثم توفى عقب ذلك بجبل هنتانة فى ربيع الثانى ٧٥٢ = يونيه ١٣٥١ م .

(١) الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى - للناصرى السلاوى - ج ٣ ص ١٦٦ .

وجلس السلطان أبو عنان على عرش المغرب ، وجدد السلطان يوسف الأول علاقاته معه ، أسوة بما كان بينه وبين أبيه ، وقد بدأ ذلك بسفارة خاصة عقدها لوزيره ابن الخطيب ، وحملها رسالة اليه يعزيه فيها عن مصابه فى فقد والده ، ويهنئه باعتلاء عرش المملكة ، ثم يخبره باحوال المسلمين ، وأنهم لا يزالون يعانون من غارات النصارى ، وانهم - لذلك - لا غنى لهم عن معونة اخوانهم أهل العدوة ، فبادله أبو عنان المشاعر الطيبة ، وعمل من جهته على توثيق هذه الصلة ؛ فأولى ثغر جبل طارق مزيدا من عنايته ، باعتباره نقطة الاتصال الوحيدة بالاندلس ، وتبودلت الرسائل بينه وبين يوسف الأول فى شتى المناسبات ، كما أبقى على تقليد قيادة الجيش لأبناء عم بنى مرين (بنو العلا) ، ولم يكدر صفو هذه العلاقات مكدر سوى مسألة أخيه الأمير أبى الفضل المرينى ، الذى حاول الانقضاض عليه بأرض السوس ، ولكن هذه السحابة ، لم تلبث أن انقشعت ، وعاد الصفاء كما كان بين غرناطة وفاس ، حتى نهاية عهد يوسف الأول ووفاته .

وتتلخص مسألة أبى الفضل هذه ، فى أن والده السلطان أبا الحسن المرينى كان قد ولاه على تونس ، وذلك عندما اعتزم العودة بحرا الى المغرب ، فثار عليه الحفصيون وأخرجوه منها ، فالتحق بأبيه بمراكش ، وبقى الى جواره فى كفاحه ، لاسترداد عرش المغرب من يد ابنه أبى عنان ، حتى توفى الأب ، وصار الأمر الى أخيه السلطان أبى عنان ، فبايعه أخواه أبو الفضل وأبو سالم ، ولكن أبا عنان خشى أن يخرجا عليه يوما ، ولذلك بعثهما الى الأندلس ليكونا الى جوار شيوخ الغزاة من أقاربهما ، فاستقبلهما السلطان يوسف الأول ، وأكرم مقامهما كاخوة لسلطان المغرب وأنزلهما وحاشيتهما فى « قصر السيد » بخارج غرناطة (لاتزال بعض أجنحة القصر ماثلة حتى يومنا هذا) . ولكن حدث أن ندم أبو عنان على ارسال أخويه الى الأندلس، خاصة وان ملكه قد استفحل ، واتسعت دائرة سلطانه ، بعد أن استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ، فبعث رسله الى السلطان يوسف الأول يطلب منه ان يرسل أبا الفضل وأخاه ؛ لأن فى مقامهما تحت يده بالمغرب احتياط لجمع الكلمة وتوحيد الصف ، وهو لا يستريح لمقامهما بعيدا عنه ، ولكن « خشى أبو الحجاج غائلته عليهما، فأبى اسلامهما اليه ، واجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته ، ولا يسىء جوار المسلمين المجاهدين لديه ، فغضب السلطان أبو عنان لذلك ، وقام وقعد ، وأمر حاجبه ابن أبى عمر أن يكتب اليه ، ويبالغ فى اللوم والتوبيخ ، ففعل الحاجب المذكور [1] » ، ووصل الكتاب الى السلطان يوسف الأول ، ولكنه أصر على موقفه بتأمين هذين

---

(١) المصدر السابق - ج ٢ ص ١٨٧ .

اللاجئين السياسيين ، ورد رسل أبى عنان للمرة الثانية ، وهنا خرج أبو الفضل المرينى من غرناطة الى أرض النصارى ، والتقى بملك قشتالة يومئذ (دون بطـره القاسى) وطلب منه مظاهرته على أخيه سلطان المغرب . فهل تم هذا اللقاء بتدبير من السلطان أبى الحجاج نفسه ؟ أم ان الأخ المتمرد هرب على صورة من الصور من غرناطة ؟ ان بعض المؤرخين المغاربة يذهبون الى الرأى الأول [1] ، ولكن أبا الحجاج فى رسـائله ـ الواردة بالكناشة ابان هذه الأزمة ـ الى أبى عنان يعتذر اليه عن هرب أخيه ، بأنه تم فى غفلة من الحرس ودون علمه ، منتهزا فرصة الاحتفال بمولد الرسول (ص) ، وفى ذلك يخاطب أبو الحجاج أبا عنان بقوله : « .. ومن الغد تفقـدناه ففقدناه ، ووصلنا عادتنا فى طلبه ، فتعرفنا ما كان من هربه ، فبادرنا الى توجيه الفرسان فى اثره ، وطيرنا من أنجاد الخدام من يعوقه عن وطره ، والمرحلة التى بيننا وبين بلد النصـارى قريبة على من يركض الخيل ، ويقطع بحث ركابه اليها ، فألفـوه قد لحق بأرض النصارى ، راكبا فى قصدها الخطة ، ومقتحما فى تأميلها الغرر ، فى جميلة تنتهى الى ثلاثة عشر ، ليس فيهم من به عبرة ، ولا من تميزه شهرة ، الا ما كان من يعقوب بن أبى عياد شيطانه الذى أغواه ، وجذبه شيطان هواه ، وأرداه فى ورطة يتعذر معهـا منجاة .. [2] » الخ ..

على أى حال نحن نرى أن موقف ملك غرناطة من معاصره أبى عنـان موقف سوى ، وذلك حتى لحاق أبى الفضل بأرض قشـتالة ، الأمر الذى يجعلنـا نرجح ترجيحا يصل الى اليقين ، أن السلطان يوسف الأول لا تغرب عن رجاحتـه وسياسته وضيعة غرناطة من النصـارى ، فيقـامر بعـلاقات بلاطه مع بلاط فاس ، أو يأمل أن ينتصر الأخ اللاجىء على أخيه . ان وضعية مملكة غرناطة تجاه جيرانها النصـارى حينئذ لم تكن تحتمل اللعب بالنار ، كما لا يسلم العقـل بأن أبا الحجاج يذهب فى تفكيره الى هذه المغامرة المظلمة ، والتى لا يجنى من وراء نجاحها كسبا مفروضا .

ونعود الى أبى الفضل ، لنجد أن ملك قشتالة قد جهز له أسطولا حربيا ضـد أخيه سلطان المغرب ، مجهزا ببعض الفرق المرتزقة من النصارى ، وكان أن وصل الأسطول عام ٧٥٤ هـ الى أرض السوس بمراكش ، ولما سمع أبو عنان به أرسل اليه أسطوله ، ونشبت معركة بحرية بين كليهما ، انجلت عن تحطيم أسطول النصارى . ولكن أبا الفضل كان قد لحق بصاحب جبل السكسيوى [3] (عبد الله السكسيوى) ، ودعاه

---

(١) الاستقصا ـ ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) نفس المصدر ـ ج ٢ ص ١٨٧ .

(٣) ويقع بالأطلس الجنوبى بالمغرب الأقصى .

نفسه ومن حوله أنصاره ، فسير اليه أخوه جيشا تحت قيادة وزيره « فارس بن ميمون ابن وردار » ، فسار اليه وحاصره بالجبل ، وبالرغم من أن صاحب الجبل نفسه قد طلب الأمان بعد شدة الحصار ، الا أن أبا الفضل رفض التسليم ، حيث لجأ الى جبال المصامدة ، وبقي يتنقل في هذه المنطقة حتى وصل الى قبيلة « صناجة » ، وطلب الاجارة ، فأجابه اليها ابن الحميدى أحد مشايخ هذه القبيلة ، ولكن عبد الله بن أبي مسلم صاحب درعه حارب أبا الفضل وأصحابه ، ومن جهة أخرى أرغب ابن الحميدى في القبض على أبى الفضل ؛ تلافيا للفتنة ، واستجابة لنداء السلطان أبىعنان ، الذى وعده بالمال ان أشخصه اليه ، فقام ابن الحميدى بما طلب منه ، وتقبض على أبى الفضل ، وأرسل الى أخيه أبى عنان فى الأغلال ، فقام هذا الأمير بايداعه السجن، ثم قتله بعد ليال خنقا بمحبسه [1] .

هذا ، وقد راسل السلطان يوسف الأول أبا عنان بهذه المناسبة ، وكتب اليه يهنئه بهذا الانتصار ، ويغتبط لجمع الكلمة بالمغرب ، ويعلن سروره بالقضاء على أبى الفضل والخوارج ، ممن التفوا حوله ؛ طمعا فى بارقة أمل كاذب .

***

بقى أن نذكر فى نهاية العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، أنه لم تكن هناك علائق ودية فى أية صورة بآخرين من ملوك تونس أو تلمسان بشمالى أفريقيا ؛ وربما كان هذا راجعا الى مجاملة يوسف الأول لملوك المغرب ، وفى مقدمتهم أبو الحسن المرينى ؛ حيث شعر باتجاه أبصار المرينيين الى الاستيلاء على هذه الأقطار الافريقية ، وقد حدث فعلا أن خضعت كل من تونس وتلمسان للسلطان أبى الحسن المرينى ، وطرد الحفصيون وبنو عبد الواد وبنو زيان ملوكها من هذه الأقطار ، وقد كان الأمر كذلك فى عهد ابن هذا السلطان أبى عنان فارس المرينى ؛ حيث استولى على افريقية وقسطنطينية وتونس ، وأصبح سلطانا على كل من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى .

---

(١) الاستقصا ـ ج ٣ ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

- ٦ -

علاقة يوسف الاول مع الدول المسيحية المجاورة

لم تكن علاقة مملكة غرناطة منذ نشأتها - على وجه العموم - بدول النصارى المجاورة تتسم يوما بالصفاء القلبي : فقد كان الهدف النهائي للصراع الاسباني المرير هو استرداد البقية الباقية من الأراضي التي احتلها العرب ، وقد رأينا كيف انتهى عصر السلطان محمد الرابع (ذو الحجة ٧٣٣ هـ = أغسطس ١٣٣٣ م) باستيلاء الأندلسيين بمعونة المغرب على جبل طارق ، بعد أن ظل تحت أيدي القشتاليين زهاء أربعة وعشرين عاما ، وكان لسلطان المغرب يومئذ أبي الحسن المريني أكبر الفضل في استرجاع هذا الثغر المنيع ؛ بالنسبة للامدادات التي زود بها المحاربين المحاصرين للجبل برا وبحرا ، وانجلى الموقف عقب هذا الانتصار عن معاهدة صلح ، عقدت بين ملكي المغرب وقشتالة ، وخاصة بعد أن فشلت عدة محاولات قشتالية لاسترداد الجبل ، بوساطة الأسطول النصراني الذي رابط فترة تجاه الأسطول الاسلامي المحيط بالجبل [١] ، ولكن هذه المعاهدة من جهة أخرى لم تكن تعني أكثر من الاستعداد لفرصة أسنح لأسبانيا النصرانية ، تلك التي كانت ترى أن وجود المغاربة على الخصوص والمسلمين على العموم بأراضيها شوكة تقض مضاجع المسيحية ، ولو لم يبادءوها بالهجوم .

هكذا استقبل السلطان يوسف الأول عهده مع جيرانه المسيحيين ، الذين لم يلبثوا طويلا حتى نقضوا عهودهم ، حيث تابعوا غزواتهم لمملكة غرناطة ، طبقا لمخطط حربي من لدن ملكهم « ألفونسو الحادي عشر » ، الذي عول على الاجهاز على آخر معاقل المسلمين بالأندلس ، جريا على سنة أسلافه السابقين ، آملا أن تسقط غرناطة نفسها على يديه ، وكان السلطان أبو الحجاج يحس من قشتالة - خصوصا - هذا التنمر المتوارث ، ورأى أن الأمر يملي عليه الاستنجاد بملوك بني مرين ، شأن سابقيه من ملوك بني نصر ، وكان على العرش المغربي يومئذ السلطان أبو الحسن المريني ، فكتب اليه يوسف الأول يستنجده ويستظهره ، فأرسل اليه عاهل بني مرين ملبيا نداءه ، وكلف ولده الأمير أبا مالك بدخول الأندلس محاربا ، وأصدر أمرا الى الوزراء بأن يضعوا كافة الامكانيات اللازمة تحت أمر ابنه ، وعبرت الكتائب المغربية البحر ، ثم اقتحمت الثغور الأندلسية ، حيث كانت كل من الجزيرة الخضراء وطريف من أملاك المغرب ، مخترقة سهول الجزيرة أواسط عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) ،

---

(١) اللمحة البدرية ص ٧٧ -٨٢ ، والاحاطة ج ١ ص ٥٤٠ - ٥٥٢ ، والعبر ج ٧ ص ٢٥٥ .

وتمادى أبو مالك فى زحفه حتى بلغ أراضى قشتالة نفسها ، واكتسح أجزاء منها ، مثل سهل بجانة ، وغادرها مثقلا بالسبى والغنائم ، ثم رابط مؤخرا فى صدر أراضيهم حيث بلغه أن النصارى عامة قد جمعوا له جموعهم وأنهم فى طريقهم اليه ، وتنفيذا لخطة قشتالية أرجونية مشتركة ، تقضى بملاقاة المحاربين المسلمين بقوى متحدة ، وفعلا تحرك أسطول مؤتلف ، لم يقتصر على الاسبانيين فحسب ، ولكن انضم اليه كذلك البرتغاليون • وقد رابطت الأساطيل المشتركة بسواحل جبل طارق ، بقيادة « الدون جوفرى تنوريو » ، وذلك ليحول بين الجيوش المغربية وبين النجدات والامدادات ، بعد أن بارك البابا نفسه الخطة ، وكان الأمير أبو مالك قد رفض نصيحة القواد المسلمين بالارتداد الى الأراضى الأندلسية ، « ولج فى ابايته ، وصمم على التعريس ، وكان قرما ثبتا ، الا أنه غير بصير بالحروب ، لصغر سنه ، فصبحتهم عساكر النصرانية فى مضاجعهم قبل أن يركبوا ، وخالطوهم فى بياتهم ، وأدركوا الأمير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوى على فرسه ، واستلحموا الكثير من قومه ، واحتووا على العسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ، ورجعوا على أعقابهم [1]» • وبذلك هزم المسلمون هزيمة شديدة ، وفجع سلطان المغرب فى مصرع ابنه ، وصمم من جانبه على الثأر مهما كلفه ذلك ، وفعلا أصدر أوامره الى وزرائه بالنهوض الى السواحل المغربية الشمالية ، وتجهيز الأساطيل للسير الى الأندلس مرة أخرى ، وأغدق عطاءه للجنود ، كما استنفر أهل المغرب قاطبة ، وسافر بنفسه الى أصهاره الحفصيين بتونس ، لتجهيز أسطولهم اليه ، فأجابوه ، وعقدوا عليه لزيد بن فرحون ، قائد أسطول بجاية ، ووافى سبتة فى ستة عشر أسطولا من أساطيل أفريقية ، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية • وفى الوقت نفسه توافت أساطيل المغرب بمرسى سبتة تناهز المائة ، وعقد السلطان عليها لمحمد بن على العزفى ، الذى كان صاحب سبتة يوم فتحها ، أيام السلطان أبى سعيد[2] • ورافق السلطان أبو الحسن الحملة الى الأندلس ، أوائل عام ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) ، حيث نزلت القوات البرية بأرض طريف ، وتقاربت القوات البحرية بأساطيلها ، حتى بلغت أساطيل النصارى ، ثم ما لبث الطرفان أن التحما ، ودارت رحى المعركة ، التى تمخضت فى النهاية عن فوز المسلمين ، بعد أن خالطوا النصارى فى أساطيلهم ، وأعملوا فيهم سيوفهم ورماحهم ، حتى سقط منهم الجم الكثير فى البحر ، وخر قائدهم صريعا ،

---

(١) ذكر المؤرخون فى هذا الصدد أن جثة الامير مالك قد حملت الى شالة بالرباط ، حيث اقبر بها ، راجع فى هذا : « الاستقصا » للسلاوى جـ ٣ ص ١٣٥ ط• الدار البيضاء ١٩٥٥ م ، « ابحاث فى تاريخ المغاربة » جـ ٣ ص ٢٣٧ ، لمؤلفه القنصل الفرنسى « شيني » الذى وقف على رخامة ضريح الامير •

(٢) السلاوى فى الاستقصا جـ ٣ ص ١٣٥ •

وبذلك غنمت الأساطيل المغربية كثيرا من المال والسلاح ، وسيقت الأساطيل النصرانية الى مرسى سبته ، حيث نزل منهـا الأسرى ، ثم « برز النـاس لمشاهدتها ، وطيف بكثير من رءوسهم فى جوانب البلد ، ونظمت أصفاد الأسرى بدار الانشاء ، وعظم الفتح ، وجلس السلطان للتهنئة ، وأنشد الشعراء بين يديه ، وكان ذلك يوم السبت السادس من شوال سنة أربعين وسبعمائة [1] » .

هذا ، ولا تعتبر تلك المعركة الا رد فعل حتمي للمعـركة التى سـبقتها ، التى استشهد فيها الأمير أبو مالك ، وذلك لا يعنى أنها كانت المعركة الفاصلة بين طرفى النزاع ، ولكنها ـ على كل حال ـ تعتبر مقدمة مباشرة لمعركة طـريف الكبرى التى تلتها ، تلك التى يؤرخ بها الأسبان لانتصاراتهم فى حروب الاسترداد ، التى خاضوها ضد كل من المغاربة والأندلسيين على السواء .

معركة طريف الكبرى :

تعتبر طريف أول بقعـة اسبانية حل بها العرب فى اسبانيـا ، منذ أن تطلعت أنظارهم الى فتحها ؛ فقد حدث خلال عام ٩١ هـ (٧١٠ م) أن جازت البحـر من سبتة حملة اسلامية صغيرة ، قوامها زهاء ٤٠٠ محارب كبعثة للكشف والاختبـار ، بعث بها الى أفريقيا موسى بن نصير ، بقيادة أحد مواليه من البربر ، واسمه طريف ابن مالك ، فنزل هذا القائد الرسول برجاله فى المنطقة المقابلة لسبتة تجاه الغـرب ، ومنذ ذلك الحين والمنطقة هذه تعرف باسم قائد هذه البعثة العسكرية «طريف» [2] ، وقد أصبحت فيما بعد مدينة أندلسية متوسطة ، تقع على لسان يمتد فى البحر الأبيض المتوسط من الناحية الجنوبية الغربية ، فى مواجهة مدينة الجزيرة الخضراء ، التى تقع فى الجهة الشرقية ، وبين المدينتين هضاب وسهول ، تفصلها أحيانا بعض الأودية الصغرى ، وتأخذ هذه الهضاب فى الارتفاع شيئا فشيئا حتى تعلو ساحل البحـر ، ثم تأخذ فى الانخفاض تدريجيا حتى تبلغ طريف نفسها ، فى منطقة تكاد تخلو من الزراعة ، اذا استثنينا أشجار الزيتون المنبسطة قرب المدينة ، والقليل من الحشائش والنباتات التى تنتشر هنا وهناك .

هذا ، وللمدينة تاريخها التليد ، كمدينة أندلسية ذات موقع بحرى هام ؛ فقـد كانت ابان العصر العربى بأسبانيا محطا « استراتيجيا » لنزول المغاربة المحاربين ، شأنها فى هذا شأن جبل طارق والجزيرة الخضراء ، فهى بهذا الاعتبار همزة وصل ـ هى

---

(١) نفس المصدر صفحة ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢) المقرى ـ نفح الطيب ـ جـ ١ ص ١٥٢ .

الأخرى ـ بين الأندلس والمغرب ، وقد لبثت كذلك منطقة حربية هامة حتى سقطت في يد الأسبان . في هذه الموقعة التي نحن بصددها ، ولم يتمكن المسلمون المغاربة أو الأندلسيون بعدئذ من استرجاعها ، بالرغم من أكثر من محاولة بذلت في هذا الشأن .

ان مدينة طريف الأندلسية القديمة كانت تقع ـ في أغلب الظن ـ تحت أسوار حصنها الذي ما يزال قائما في شرقها ، ولا يوجد الآن من آثارها العربية سوى باب « شريش » ، وهو يحتوى على ثلاثة عقود داخلية ، بها اصلاحات وتجديدات زالت بعض معالمها العربية ، وقد ثبت بهذا الباب لوحة ذات نقش تاريخي :

ترجمتها : « مدينة طريف عظيمة الشرف ، ذات ولاء وبسالة وافرين ، استولى عليها من العرب « سانشو الرابع » الشجاع ، في ٢١ سبتمبر عام ١٢٩٢ م » .

وقد زالت معظم أسوار المدينة الأندلسية ، ولم يتبق منها اليوم الا أجزاء ضئيلة متفرقة ، كالجزء الذي يمتد الى اليسار من باب شريش ، الذي يوجد به عدة كوى صغيرة ، ثم جزء آخر يبلغ حوالى ٥٠ مترا ، يمتد في الداخل قبالة الحصن العربي ، هذا بالاضافة الى جزء ثالث من هذه الأسوار القديمة يقع ملاصقا لمنتزه المدينة ، أما الحصن فيقع على مرتفع من المدينة ، يشرف على البحر من الناحية الخلفية ، ويعتقد أنه بقية القصبة العربية ، وهو عبارة عن قلعة ذات فنائين واسعين ، نصل اليه بوساطة باب ذي عقد عربي ، وبعد اجتياز اللقاء الأول نجد بابين متواليين معقودين . أما الأبراج العليا فقد زالت مواقعها ومعالمها ، ولكن الغزال الفاسي [1] الرحالة يؤكد لنا ـ عندما زار أسبانيا ومر بمدينة طريف عام ٩٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ـ أن القصبة الأندلسية كانت متكاملة المباني ، متناسقة الأبراج ، اذ يقول : « ولما وصلنا القصبة ، وجدناها باقية على ما تركها رحمهم الله ، لها من الأبراج ثمانية عشر ، وقدر ارتفاع السور والأبراج عشر قامات ، وفيما بين البرج والذي يليه في نفس السور آجر مزدوج مرقوم ، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة ، وقدر مساحة الزليج المذكور أربعة أدراج طولا وعرضا ، وبناء هذه القصبة بالحجر المنجور الشبيه بالرخام، وبأعلى بابها رخامة مكتوب عليها بخط كوفي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما . أمر عبد الله عبد الرحمن الداخل أمير

(١) هو أحمد بن المهدى الغزال الفاسي ، كان سفيرا من طرف سلطان المغرب المنصور بالله أبو عبد الله ، الى ملك أسبانيا كارلوس الثالث،وتجول في معظم قواعد الاندلس يومئذ ، وبعد أن عاد الى المغرب دون رحلته هذه وسماها « نتيجة الاجتهاد ، في المهادنة والجهاد » ، المنشورة بعناية معهد فرانكو بتطوان في المغرب .

المؤمنين ..... ، وما بعده قد محي تماما [1] ، وعلى هذا فقد تأسس الحصن فى عهد مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، ثم توالى عليه من جاء بعده من ملوك وامراء الجزيرة ، حتى سقطت المدينة فى أيدى الاسبان .

***

تعرف معركة طريف فى الأسبانية بمعركة « سالادو «Batalla de salado» » وتشتهر فى الرواية الاسلامية بمعركة طريف ، وسماها ابن الخطيب فى كل من « الاحاطة واللمحة البدرية باسم « الوقيعة العظمى » خلال حديثه عن السلطان أبى الحجاج ، أو عن تراجم من استشهدوا فى هذه المعركة من أعلام الأندلس .

وتلخص الرواية الاسلامية المعركة ، فى أن السلطان أبا الحسن المرينى لم يكتف بأن له ثار لولده الامير ابو مالك على الصورة التي ذكرناها ، وما كان من انتصاره على اساطيل النصارى ، بل اراد ان يضاعف من ثاره له ، ويعاود الكرة الى ارض الجهاد ، فجهز الاسطول وبرفقته حرمه وخدمه وحشمه ، وذلك فى اواخر ٧٤٠ هـ (١٣٤١ م) ، وكان الجنود المغاربة قد عبروا من قبله البحر الى الاندلس ، وكان عددهم يناهز الستين الف مقاتل ، كما بلغ الاسطول المغربى يومئذ مائه واربعين سفينة ، معظمها من السفن الحربية ، ونزل السلطان وجنوده بالسهل شمال غربى طريف ، على مقربة من نهر « سالادو » ، فى التاسع من صفر ٧٤١ هـ (١٤ أغسطس ١٣٤٠ م) ، ولما سمع السلطان يوسف الاول بقدوم ملك المغرب أناب عنه بالحمراء وزيره ابن الخطيب ، ثم وافاه بفرق من الجيش الاندلسى ، وبعض الغزاة الأفارقة من حماة الثغور ، وعسكر هؤلاء وأولئك الى جانب جند المغرب ، وطوقوا مدينة طريف من كل ناحية ، ونصبوا عليها الآلات الحربية [2] .

كان جيش النصارى قد توغل فى أراضى المسلمين ، حتى وصل الى الجزيرة الخضراء ، وكان خليطا من القشتاليين والأرجونيين والبرتغاليين أيضا ، اما الأسطول النصرانى فقد رابط فى بحر الزقاق ، ليمنع قدوم المساعدات والامدادات من المغرب للسفن والجيوش الاسلامية ، ثم مضت ستة أشهر قبل أن يلتقى الطرفان ، شحت خلالها الأقوات والمؤن بين المسلمين ، ودب بينهم الضعف والوهن ، نتيجة هذا الحصار الخانق ، « ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب الى طريف جيشا من النصارى أكمنه بها الى وقت الحاجة اليه ، فدخلوها ليلا على حين غفلة من العسس ، الذين أرصدوا لهم ، وأحسوا بهم آخر الليل ، فثاروا بهم من مراصدهم ، وأدركوا أعقابهم

---

(١) راجع رحلة الغزال ص ١٦ .

(٢) السلاوى ـ الاستقصا ـ ج ٣ ص ١٣٦ وما بعدها .

قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عددا ، وقد نجا أكثرهم ، فلبسوا على السلطان أنه لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته ، ثم زحف الطاغية من الغد فى جموعه ، وعبأ السلطان مواكبه صفوفا ، وتزاحفوا ، ولما نشبت الحـــرب برز الجيش الـكمين من البلد ، وهو الذى دخل ليلا ، وخالفوا المسلمين الى معسكرهم (١) » .

وكان السلطان يوسف الأول قد تولى قيادة فرسان الأندلس ، الذين اشتبكوا مع جيش البرتغال ، بيد ان الكمين النصرانى قد نجح فى مهمته ؛ اذ انقض على مؤخرة الجيش الاسلامى ، فوقع بينهم الاضطراب ، وأصابهم الخلل، فى الصفوف ، واحتدمت المعركة فى شدة ، واريقت دماء عـزيزة ، وسـقط من المسلمين عدد كبير ، ووصل النصارى الى حيث ضرب السلطان أبو الحسن فسطاطه ، وهاجموه فى قسوة مريرة ، بعـــد ان دافع عنه الحرس الخاص ، فاتوا عليه ، وخرج النســاء بظاهره يدافعن ، فقتلوهن كذلك ، وكان من بين حظايا السلطان ممن صرعن عائشة بنت عمه أبى بكر ابن يعقوب بن عبد الحق ، وفاطمة بنت السلطان أبى بكر بن أبى زكريا الحفصى ، ولم يكتف جنود النصارى بقتلهن بل استلبوهن ، ومثلوا بجثثهن ، ثم أضرموا النار فى المعسكر . وقد حدث وقتئذ أن الأمير تاشفين بن السلطان أبى الحسن جمع فرقة من الجيش ، ثم هاجم النصارى فى جانب منهم ، ولكنه غلب كذلك على أمره ، وسقط أسيرا فى أيديهم ، فعظم خطب المسلمين ، وتشتت قواهم ، ونجا السلطان أبو الحسن بأعجوبة بعد أن سقط علمه فى أيدى النصارى ، وما زال بكنيسة طليطلة العظمى ، وكانت هزيمة منكرة فى ضحى اليوم السابع من جمادى الآخرة ٧٤١ هـ (٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م) ، ثم « تقدم الطاغية القشتالى حتى انتهى الى فسطاط السلطان من المحلة ، فأنكر قتل النساء والولدان ، وكان ذلك منتهى تأثره ، بعدها انكفأ راجعا الى بلاده ، ولحق ابن الاحمر بغرناطة ، وخلص السلطان أبو الحسن الى الجـزيرة الخضراء ، ومنها الى جبل الفتح ، ثم ركب الأسطول الى سبتة ليلة غده ، ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم (٢) » . وكان ممن استشهد فى هذه المعركة من أعلام الأندلس والد ابن الخطيب وأخوه الأكبر ، وقاضى الجماعة محمد بن يحيى الأشـــعرى المـالقى وآخرون .

بعد ذلك غزا النصارى قلعة بنى سعيد أو قلعة يحصب (٣) ، وحاصروها حصارا

---

(١) السلاوى ـ الاستقصا ـ جـ ٣ ص ١٣٦ .

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٣) تنسب القلعة لبنى سعيد الكتاب المؤرخين ، وهم أول من دخل الاندلس من ولد عمار بن ياسر رضى الله عنهما مع سيدهم « عبد الله بن سعد بن عمار » ، كما تنسب ليحصب ، وهو قبيل من اليمن نزل بالقلعة هذه عند فتح الاندلس . راجع : نفح الطيب للمقرى جـ ٣ ص ٩٦ .

كاملا فى عام ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، ولم يدم هذا الحصار المطبق سوى بضعة أشهر، حتى اضطر اثره السكان الى التسليم ، بعد أن فنيت الأقوات ، وأصاب الناس جهد شديد [٢] •

هذا وقد ترتب على هذه الهزيمة أن انكسرت شوكة بنى مرين تجاه النصارى بأسبانيا ، ولم تقم لهم قائمة بعدئذ ، وان كان السلطان أبو الحسن قد عول بعد رجوعه للمغرب على معاودة الكرة ؛ فقد نادى فور وصوله الى سبتة بالجهاد فى كل أنحاء المملكة فلبى نداءه جيش من المتطوعة والمرتزقة وغيرهم ، وجهز القواد والاساطيل ، واستعرض الجنود تحت قيادة محمد بن العباس بن تاحضريت ، وموسى بن ابراهيم البريتانى ، فلما بلغ الخبر ألفونسو الحادى عشر جهز هو الآخر أسطوله ، ودفع به الى بحر الزقاق ، ونشبت بين الطرفين ملحمة بحرية هائلة ، تمخضت عن هزيمة المسلمين ، وتمزيق أسطولهم فى البحر وذلك عام ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) •

تابع النصارى زحفهم على المسلمين بالأندلس ، فحاصروا الجزيرة الخضراء فى نفس العام ، وعندئذ بادر السلطان يوسف الأول بنفسه لانقاذ الجيش الاندلسى المحصور بالمدينة ، ورغم أن النجدة كانت مجهزة بالآلات القاذفة الجديدة ، الا أنها لم تغن شيئا أمام تصميم النصارى على امتلاك هذه المدينة ، فاضطرت الى التسليم تحت هذا الضغط الشديد • وبذلك فقد المغاربة والأندلسيون الثغرين الحربيين الهامين : طريف والخضراء ، وهما همزتا الوصل بين الأندلس والمغرب ، ولم يبق فى يد المسلمين من الثغور بعدئذ سوى جبل طارق ، والذى تعرض من بعد بدوره لحصار النصارى كما سنذكره ، وكانت قد جرت بعدئذ بين السلطان يوسف الأول وملك قشتالة مفاوضات حول الصلح والسلم فاستأذن الأول السلطان أبا الحسن المرينى ، فأذن له فى ذلك ، ومؤدى هذه المعاهدة أن يجيز ألفونسو ١١ المحاربين المغاربة الى المغرب ، وأن ينزل سلطان المغرب له عن الجزيرة الخضراء بعد الأمان للمحاربين وللسلطان على السواء « وخرجوا فوفى لهم ، وأجازوا الى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ماعوضهم بما فاتهم ، وخلع عليهم ، وحملهم ، ووصلهم بما تحدث الناس به ، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت ، عقوبة له على تقصيره فى المدافعة مع تمكنه منها ،

---

(١) راجع من المصادر الاجنبية فى شأن معركة طريف ما يأتى :

A. — Ambrosio Huici Miranda «Las grandes batallas, de la reconuiqsta durante las invasiones africanas» (Madrid, 1956), p. 331 a 377.

B. — Luis Seco de Lucena Paredes «La fecha de la batalla del Salado, en Al-Andalus», XIX (1954), 228-231.

وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعا الى حضرته [1] » ، ولم يتسن له أن يعود بعدها للأندلس حتى وفاته ، وذلك لتفرغه عقب عودته لغزو افريقية ، ثم استيلائه على تونس واعمالها ، ثم ما كان من انتقاض عرب سليم بافريقية والقيروان ، وأخيرا ثورة ولده عليه أبو عنان فارس وانتزاعه الملك منه ، كل هذا فى أوقات متقاربة ، حتمت عليه أن ينصرف بتفكيره عن الأندلس نهائيا .

السفارة السياسية بين المغرب ومصر :

كان من نتائج الهزائم التى منى بها السلطان أبو الحسن برا وبحرا منذ واقعة طريف ، ان اتجه بانظاره نحو المشرق العربى ، بامل المساعدة والمعونة استعدادا لفرصة مستقبلة ، فأرسل الى القاهرة سفارة ملكية ، معها كتاب منه الى السلطان ابى الفداء اسماعيل ابن الملك الناصر قلاوون ، على يد كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبى الفضل بن ابى عبد الله بن ابى مدين ، وفى صحبته الحرة أخت السلطان ابى الحسن ، كما اصحب الوفادة الهدايا الثمينة ، والتحف النفيسة الى سلطان مصر .

وقد تضمن الكتاب أولا تعزية فى وفاة والد الملك الناصر قلاوون ، وتهنئته باعتلاء عرش مصر ، والتنويه بما كان بينه وبين والده من وشائج الصداقة ووسائل المودة ، ويشرح له ما حدث من استصراخ أهل الأندلس به على لسان مليكهم السلطان يوسف الأول ، ثم ما كان من تجهيزه الأساطيل وارسالها للأندلس لقتال الأسبان والنصارى المناصرين ، ثم ما لحق أساطيله مؤخرا من هزيمة أمام هؤلاء وأولئك ، كذلك يفصل له فى الكتاب ما كانت من مساعداته بالمال والرجال للسلطان يوسف ، وأن مدينة الجزيرة الخضراء الأندلسية قد عانت من الحصار الاسبانى ما عانت ، حتى استطالت الحرب ، ووهنت قوى المحصورين ، ثم كانت الهزائم ، وانه بعد كل هذا أذن لصاحب الأندلس بعقد معاهدة صلح باسمه ، وفيها التنازل عن الجزيرة الخضراء ، ولكن الله كان قد أكرمه باسترداد جبل طارق قبل ذلك بفترة ، وأنه ينوى خوض المعركة من جديد ، ويتأهب لها من الآن ، والرسالة مؤرخة ٢٦ صفر ٧٤٥ هـ = ٩ يوليو ١٣٤٤م [2] . وقد وصلت هذه السفارة الى القاهرة فى منتصف شعبان من نفس العام ، فاستقبلهم سلطان مصر ، ثم أجاب ملك المغرب على رسالته بكتاب «ديبلوماسى» ، يفتحه بالتأسف على فقده أسطوله ، ثم مالحقه من هزائم ، وما كان من سقوط الجزيرة

---

(١) السلاوى - الاستقصا - ج ٣ ص ١٣٨ .

(٢) انظر الرسالة كاملة فى نفح الطيب ج ٦ ص ١٢٠ - ١٢٩ .

الخضراء ، ويعتذر له عن النجدة بعدم امكانيتها عمليا ، كما يطوى ذلك الكتاب على تهنئته بالسلامة ، وفى ذلك الكفاية ، وأن الله قد يفتح عليه بالنصر مرة أخرى ، فالحرب سجال . ولا ينسى سلطان مصر قبل ختام الرسالة أن يبدى سروره لاستيلاء السلطان أبى الحسن على جبل طارق ، وكان الجواب هذا مؤرخا ٦ رمضان ٧٤٥ هـ (١ يناير ١٣٤٥ م)[1] .

محاولة القشتاليين استرداد جبل طارق :

عاد القشتاليون مرة أخرى الى جنوب الأندلس ، يقومون بحملات حربية متفرقة، وذلك خلال عام ٧٥٠هـ = ١٣٤٩ م ، وكانوا وقتئذ يقتربون من السهل المحيط بجبل طارق ، تحدوهم أمنية كبرى فى استرداد الجبل ، باعتباره همـــزة الوصل الوحيدة الباقيـة فى أيدى الاندلسـيين ، حتى تنقطع عنهم أية معونة مغربيـــة ، ثم يسهل على النصارى بعدئذ الاستيلاء على المعقـــل الاسلامى الاخير « غرناطة » . وتنفيـذا لهذه السياسة قاد الفونسو الحادى عشر الجيش القشتالى بنفسه ، ثم حاصر الجبل الذى كان متمنعا بحماية مغربية قوية ، واشتد الحصار يوما بعـد يوم ، وجاء السـلطان يوسف الأول فرابط بجيشه خلف جيش النصارى ، ولبث الوضع الحربى على هذه الكيفية، وكلا الطرفين قد عقد العزم على غايته ، حتى انقضى عام كامل على هذا الحصار ، وفى ذلك يروى ابن الخطيب الوزير المرافق لأبى الحجاج قائلا : « كنت منفـردا بالسلطان ـ رحمه الله ـ وقد غلبه اليأس ، وتوقعه الفضيحة ، حتى انجلت بعجايب الفرج بعد الشدة ، وتوجهت بصيرته فى التماس لطف الله ، وهو يرى الفرج بعيدا ، ويتوقع من الأمر عظيما ، وورد الخبر بملكه ، فاستحالت الحال الى ضـــدها ، من الشرور الى الاستبشار[2] » ، وذلك أن الوباء الكبير قد تفشى بين جنود النصارى وقضى على ملك قشتالة فى مقدمة من قضى عليهم من جيشه ، الأمر الذى اضطر الأعداء الى فك الحصار، فكان ذلك بشارة بخلاص الجبل والمدافعين عنه فى الداخل والخارج ، وكان ذلك فى ليلة عاشوراء من عام ٧٥١هـ (٢٦ مارس ١٣٥٠ م) ، وسمح المسلمون لموكب الملك المتوفى باجتياز الطريق الى اشبيلية ، وأظهروا مروءة وتسامحا فى ذلك ، حيث ارتدى معظم الاعلام المسلمين شارات الحداد مجاملة[3] ، وعلى اثر هـذا تولى مملكة قشتالة بيدرو الأول ابن الفونسو الحادى عشر ، المعروف بـ « القاسى » .

وقد تحدث الرحالة ابن بطوطة عن هذا الحادث وعن استعدادات الجبل المغربية،

(١) انظر هذا الجواب بأكمله فى نفح الطيب ج ٦ ص ١٢٩ ـ ١٣٥ .
(٢) الاحاطة ـ مخطوطة الاسكوريال ١٦٧٣ ج ٢ ص ٢٨٢ ومابعدها .
(٣) العبر ج ٣ ص ١٨٣ .

وكان قد زار الأندلس عقب ذلك بقليل ، فذكر أن الفونسو المذكور قد دام حصاره للجبل عشرة شهور « وظن انه يستولى على ما بقى من بلاد الاندلس للمسلمين ، فاخذه الله من حيث لم يحتسب ، ومات بالوباء الذى كان أشد الناس خوفا منه • وأول بلد شاهدته من البلاد الأندلسية جبل الفتح ، فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى ، وقاضيه عيسى البربرى ، وعنده نزلت ، وتطوفت معه على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن ـ رضى الله عنه ـ وأعد فيه [1] » •

وهكذا اجتهد السلطان أبو الحسن المرينى فى تحصين جبل طارق بعد استرداده، وبذل فى سبيل ذلك جهودا ضخمة ؛ فقد جدد أسواره وحصونه ، وعزز حاميته ، وزودها بالمعدات الحربية الكافية ، كما أنشأ به دار الصناعة ، وحذا ولده أبو عنان من بعده حذوه ؛ فقد جدد تحصيناته ، وخزن بها الذخائر والأقوات [2] •

وتجدر الاشارة الى أن ذلك الحصار ، وما أعقبه من موت ملك قشتالة ، كان له أعمق الأثر فى كل من الأندلس والمغرب ، بل وفى أنحاء العالم الاسلامى ؛ فعندما وصل السلطان يوسف الأول بعدئذ الى العاصمة غرناطة ، كلف وزيره ابن الخطيب بأن يكتب لملك المغرب بذلك ، فسطر له رسالتين فى هذا الصدد [3] ، كما بادرالسلطان يوسف بتبشير الشعب الأندلسى بهذا الخبر ، فى رسالة وجهها اليه ، على يد ابن الخطيب أيضا [4] •

أما عن العلاقات السياسية بين غرناطة وأراجون ، فقد كانت هذه الأخيرة أقرب مسالمة للأندلسيين من قشتالة ، وذلك اذا ما استثنينا مؤازرتها لها فى بعض الأحيان ، وبخاصة فى معركة طريف ، وعلى كل حال فقد أقام السلطان يوسف الأول بعض العلائق الديبلوماسية مع أراجون ، اتسمت بتجديد صلح أو معاهدة سلم ، أو تبادل للهدايا فى المناسبات ، حتى بلغت هذه المكاتبات من طرف مملكة غرناطة فى عصر أبى الحجاج المذكور أربعون رسالة سياسية ، بعضها من السلطان يوسف نفسه ، وبعضها بتكليف منه على يد القائد الحربى العام ، والبعض الآخر على يد المستشار العسكرى قائد غرناطة « ابن كماشة) [5] •

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٥٤ وما بعدها باريس ١٩٢٢م •

(٢) نفس المرجع السابق والمواضع •

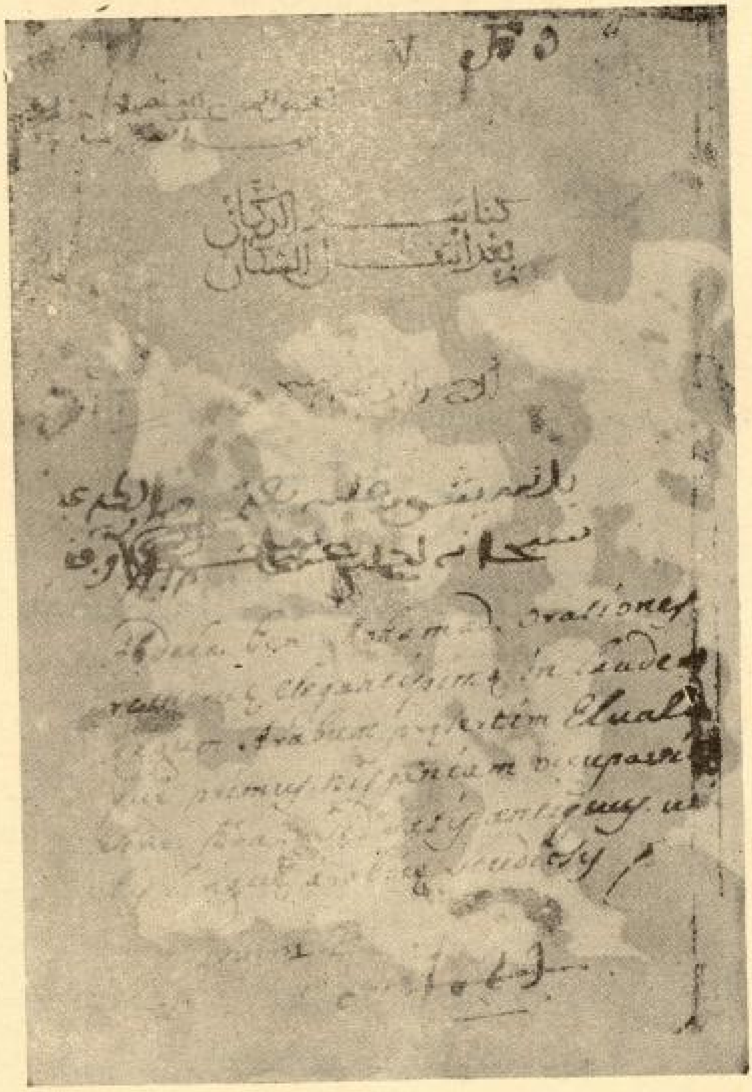
(٣) نفح الطيب ج ٦ ص ١٧٦ ـ ١٧٩ •

(٤) نفح الطيب ، ج ٦ ص ١٥٣ ـ ١٥٧ ، الاستقصا ، ج ٣ ص ١٦٦ ـ ١٦٩ •

(٥) Alarcon, y Garcia de Linares — Los documintos arabes diplomaticos del ar chivo de la corona de Aragon, (Madrid-Granada, 1940).

كتاب

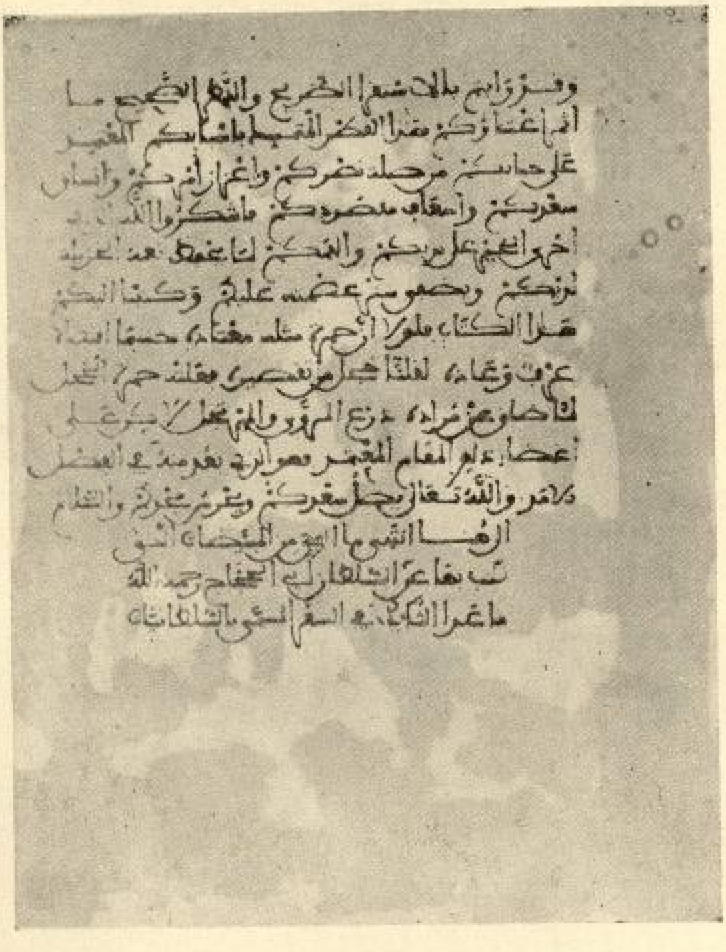
كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان



غلاف مخطوطة
« كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان »
النسخة الوحيدة للمخطوطة بالاسكوريال
بمدريد رقم ١٧١٢



الصفحة الاولى والثانية من مخطوطة كتاب « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » مخطوطة الاسكوريال رقم ١٧١٢



الصفحة الاخيرة من كتاب «كناسة الدكان»

مخطوط الاسكوريال رقم ١٧١٢

مقدمة المؤلف

ورقه ١ : أ

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

أما بعد حمد الله الذى لا يغـادر صغيرة ولا كبيرة كتابه[١] ، ولا يخلف عملا صالحا ثوابه ، ولا يسد عن أمل بابه ، وصلاته على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، الذى هو صفوة هذا الكون ولبابه ، والرضا عن اله وأصحابه ، فحبذا آله الكرام وأصحابه.

فانى عثرت ـ لما فك العقال ، وصح الى خدمة جناب الله الانتقال ، وحللت مرعى الحرمة ـ ولله المنة ـ فطاب الانتقال ، واستقر القرار بمدينة سلا ، لاستدراك ما فات ، مما أوجب الانعطاف والالتفات ، وتهنى صبابة أنى العمر [٢] ، واغتنام أغضا الدهر[٣]ـ على مسودات عديدة ، تشرق نجوم معانيها فى ظلم التسخيم[٤] ، وتستجير كرائمها من سكنى المكان الوخيم ، لم يتفرغ الوقت لاثباتها ، فتشبثت جسومها البالية برمق حياتها، وفيها تحميد وغرض للبلاغة سديد ، وتاريخ لم يهتد اليه تقييد ، وأساليب ينتفع بها كاتب الدول ويسـتفيد ، فأثبتها على حسبها لتلحق بأمثالهـا ، مما دوّن قبـل الحـادثة المزعجة [٥] ، والفتكة الجالية عن الوطن المخرجة ، والله لا يجعـل هذا السعى خليا من مثوبة تنفع ، وحسنة فى سيئة تشفع ، بفضله .

---

(١) اقتباسا من قوله تعالى « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها، ووجدوا ماعملوا حاضرا ، ولايظلم ربك أحدا » سورة الكهف ، آية : ٤٩ .

(٢) أنى العمر : قربه ، ودنو نهايته .

(٣) أغضا الدهر : بقيته .

(٤) التسخيم : السواد .

(٥) يعنى ابن الخطيب بهذه الحادثة المزعجة ، تلك الثورة التى اندلعت بغـرناطة العاصمة ، فى رمضان من عام ٧٦٠هـ = ١٣٥٩م ضد سلطانه الغنى بالله محمد الخامس ثامن ملوك بنى الاحمر ، ابن السلطان أبى الحجاج يوسف الاول . حيث تمخضت الثورة عن جلوس أخيه الامير اسماعيل على العرش ، ولجوء السلطان المخلوع ووزيره ابن الخطيب الى المغرب ، حيث وصل ركبهما فاس عاصمة بنى مرين ، فى ٦ محرم ٧٦١هـ = ٨ ديسمبر ١٣٥٦م ضيوفا ـ مع الحاشية ـ على السلطان أبى سالم المرينى ، وبقى ابن الخطيب فى منفاه بمدينة سلا بالمغرب قرابة ثلاث سنوات ، حيث الف بعض كتبه ، ومنها « كناسة الدكان » هذا .

راجع : اللمحة البدرية ص ١٠٨ ، والاحاطة (المقدمة) ج ١ ص ٣٨ ـ ٤٣ . «تحقيق عنان» ، وابن خلدون فى العبر ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

القسم الأول

اجتماعيّات

الوثيقة الأولى

عقد زواج نصرى

جرت رسومه فى قصر الحمراء بغرناطة فى ٢٤ صفر ٧٥٣ هـ

بين : السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر ملك غرناطة ، بصفته وليا على أخته .

وبين : الرئيس أبى الحسن بن أبى الحسن بن جعفر ابن نصر .

فمن ذلك صداق منعقد على (ورقة أ : ب) أخت السلطان الكبير المجاهد أبى الحجاج (١) ـ قدس الله روحه ـ لعريسه الرئيس أبى الحسن بن أبى الحسن ، ابن أبى جعفر ، بن نصر •

نصه : « الحمد لله مانح أشتات الهبات ومسديها ، وفاتح أبواب الآمال البعيدة المنال ومدنيها ، وجاعل البركات الطاهرة منوطة باتباع أوامر هذه الشريعة الطاهرة واجتناب نواهيها ، حمداً يصل المنن بالمنن ، ويربط المواهب بالمواهب ، الذى أنشأ الانسان من نفس واحدة ، وجعل العالم علامة صفاتنا ، حدوثها بقدمه شاهدة ، وجاد على الخلائق من نعماه وعواطف رحماه بأفضل صلة وأكرم عائدة ، وأوردهم من موارد لطفه كل عذب المشارب • **هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة**(٢) ، ومنهى عباده الى ما سبق فيهم من سابق الارادة ، وجاعلهم قسمين : فمنته الى الشقاء ومنته الى السعادة، لا اعتراض على حكمه الفصل وأمره الغالب ، تقدس عن لحاق الحوادث والأغيار ، وتعالى عن هواجس الخواطر وخطرات الأفكار ، وسع الأكوان ظاهرها وباطنها باللطف الخفى والجود المدرار ، فشملت نعمته الهامية السحائب • أوجد العالم ليعبدوه ، وألزمهم أن ينزهوه ويمجدوه ، وعرفهم وجوده الضرورى ولولاه ما عرفوه ولا وحدوه ، وخلقهم من بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق فى ظلمات الغياهب (٣) •

شرع لنا الاسلام سبيلا واضحا ، وأطلع (ورقة ٢ : ٢) لنا من مراشده الباهرة نورا لائحا ، وبعث الينا نبيه الكريم رسولا أمينا هاديا ناصحا ، فعرفنا برسالته المستحيل من الجائز والمحظور من الواجب ، والحمد لله الذى تنزه فى عظمته ، وتوحد فى كبريائه ، وتعالى ملكه القديم وسلطانه ، الكريم فى أرضه وسمائه ، وأحاط علما بأسباب كل أمر وأحواله ، وانبعاثه ومآله ، وابتدائه وانتهائه ، وصور نوع الانسان

---

(١) هو السلطان يوسف الاول بن اسماعيل بن فرج بن نصر ، سابع ملوك بنى الاحمر ، تولى الملك فى ١٢ ذى الحجة ٧٣٣ هـ = ٢٥ أغسطس ١٣٣٣ م ، وقتل بمسجد الحمراء أثناء صلاة عيد الفطر من عام ٧٥٥ هـ = ٩ أكتوبر ١٣٥٤ م ، وقد وزر له ابن الخطيب ، ثم لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس •

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم » سورة الحشر ، آية : ٢٢ •

(٣) اقتباسا من قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ، ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، لااله الا هو ، فأنى تصرفون » سورة الزمر ، آية : ٦ •

بحكمته من الطين اللازب[1] • نحمده سبحانه على ما أجزل من احسانه ، وخوّل من رفده ، ونسبح آناء الليل وأطراف النهار ، وأن من شيء الا يسبح بحمده[2] ، ونعترف بأن كل عارفة ، ونعمة واكفة ، ومنة تالدة وطارفة ، فانما هي من عنده ، ونبرأ من المجادلة والمناصبة ، ونشكره ـ عز وجهه ـ على ما أسبغ من الانعام ، ونقر له بالوحدانيه المنزهة عن الانتهاء والانصرام ، ونستزيده من مواهبه الفياضة وعوارفه الجسام ، والآئه المحسبة للمآرب ، ونسأله أن يمدنا بالتوفيق والعصمة ، ويصل لنا أسباب العناية والنعمة ، وينور أبصارنا بنور هداه الذى يشفي من العمى ويذهب بالظلمة ، ويحملنا من رضاه على أوضح المذاهب • ونشهد أنه الله الذى لا اله الا هو الغني عن الانداد ، المبرأ عن الانفصال والاتصال والصاحبة والاولاد ، المنفرد بالقبض والبسط والاعدام والايجاد ، الملك الذى (ورقة ٢ : ب) لا تفيض خزائنه على كثرة المسترفد والراغب• ونشهد أن محمدا النبى العربى الكريم عليه عبده ورسوله الطيب العناصر ، ونبيه العميم المكارم العظيم المفاخر ، وأمينه المحرز فضل الاول والآخر ، وصفيه الطاهر المناصب الكريم الضرائب ، تخيره من أشرف القبائل محتدا ومنتسبا ، وآتاه من كل الفضائل سببا يتلو سببا ، واختار له البطون الطاهرة والأصلاب الفاخرة أما فأما وأبا فأبا ، واختصه بما اختصه من شرف الأخلاق وكرم المناسب ، وألبسه من المفاخر الرائقة الطرر والمحامد ، المتألقة من الغرر أشرف الباس ، وآتاه من كمال الخصائص كل مطرد القياس ، وجعل أمته التى كرمها باتباعه ، والاستبصار بنور شعاعه ، خير أمة أخرجت للناس[3] ، وملكها بعز دعوته مازوى[4] له من المشارق والمغارب• فشرع ـ صلى الله عليه وسلم ـ النكاح ذريعة الى النماء وحفظا للأنساب ، ومألفة لمفترقات الأهواء وصلة لمتباعدات الأسباب ، ورفعا لما يهجس من الشك ويختلج من الارتياب ، وصونا لبيوت الشرف عن الأوشاب[5] والشوائب[6] ، وخَطَب عليه السلام وخُطِب اليه في الأحياء ، وقبل الخِطبة وأصغى للدعاء ، وجدع بانحلال أنف الغيرة والاباء ، وأمر بالتخير للنطف ، والارتياد لعقائل الشرف ، تكريما للمناسب وتنزيها للمناصب ،

---

(١) اقتباسا من قوله تعالى : « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب » سورة الصافات ، آية : ٦ •

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا » سورة الاسراء ، آية : ٤٤ •

(٣) اقتباسا من قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون ، وأكثرهم الفاسقون » سورة آل عمران، آية : ١١٠ •

(٤) زوى له : جمع له •

(٥) الأوشاب : الأوباش والأخلاط ، واحده : ـ وشب بالكسر • كذا فى القاموس المحيط •

(٦) الشوائب : الأقذار والأدناس •

فسعد باتباعه (ورقة ٣ : أ) كل سالك لطريقه ، وأوى الى جناب الله كل آوٍ لحزبه المفلح وفريقه ، وبان المبتدع من المتبع بتمييز الحق وتفريقه ، ليميز الله الخبيث من الطيب [1] وما الأخابث كالأطايب • فصلوات الله وسلامه ، وتحيته واكرامه ، تستلم بشريف ترابه ، وتزاحم الوفود على بابه ، وتعرس[2] ركائبها بين روضته الطاهرة ومحرابه ، وتحدو جنائبها أيدى الصبا والجنائب ، صلاة نجدها زلفى فى المعاد ، وقربة الى رب العباد ، وذخرا يوم قيام الاشهاد ، ووسيلة تنال بها من رضا الله أسنى الرغائب • والرضا عن آله وأصحابه نجوم الاقتداء والائتمام ، وسيوف دين الاسلام ، السادة البررة قادة الاعلام ، أحلاس الخيل [3] ، ورهبان الليل ، وأسد الكتائب ، ما لهجت الألسن بترداد أبنائهم ، وتولعت بنشر ثنائهم ، وضُربت الأمثال بمآثر عليائهم ، ونظمت مفاخرهم نظم التوام العجائب • ونستوهب من الله المقام العلى المولوى السلطانى الكريم اليوسفى النصرى سعداً ضافية حلله ، وعزا يساعد به الدين الحنيف أمله ، وتمهيدا يتوفر بجميل صنع الله فيه جذله ، وعناية الاهية يدل حاضرها على الغائب ، ولا زال نظره الجميل يعم الأقارب والأباعد ، وعطفه وشفقته يقدمان للخلق الموارد ، وخلاله الكريمة تقيد الأمداح الشوارد ، والزمان يتحلى من حلاه ومآثر علاه (ورقة ٣ : ب) ما نفس من عقود الترائب •

أما بعد هذه المقدمة التى كرمت اختتاما وافتتاحا ، ووجدت فى ميدان الرضا والسعد وبلوغ الأمل واحراز القصد مغدى ومراحا ، وأوسعت العيون قرة والصدور انشراحا ، فان من المعلوم الذى لا يحتاج الى دليل ، والمسلَّم الذى لا يتطرق اليه بتعليل ، ولا يخاف على محكمه وارد نسخ ولا عارض تأويل ، فقد وضح منه كل سبيل ، وحل توأم الايمان فى قلب كل قبيل ، ما خول الله هذه الدولة النصرية [4] ، كتب بفضله نصر كتائبها ، وجعل محامدها قلائد تجعلها الأيام فوق نحورها وترائبها ، من الكمال الذى وردت غير مدافعة حياضه ، والمجد الذى تفيأت أنقى رياضه ، والعدل الذى رفعت فوق العباد ظلاله ، والفضل الذى استشعرت شيمه وخلاله ، والجهاد الذى تلفت رايته بالاستحقاق ، وقامت بفرضه كفاية عمن دونها من ملوك الآفاق ،

---

(١) اقتباسا من قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً ، فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون » سورة الانفال ، آية : ٣٧ •

(٢) من قولهم : عرس القوم بالتضعيف : نزلوا آخر الليل للاستراحة فى مكان ، كذا فى لسان العرب •

(٣) ج : حلس ككتف ، وهو الشجاع ؛ فالمراد بهم : الفوارس الشجعان •

(٤) آخر دولة للمسلمين بالاندلس ، وتعرف أيضا بدولة بنى الاحمر ، وقد حكمت مملكة غرناطة مايربو على مائتين وخمسين عاما ٦٣٥ – ٨٩٧ هـ = ١٢٣٨ – ١٤٩٢ م ، ومؤسسها محمد بن يوسف ابن الاحمر ، وآخر ملوكها أبو عبد الله محمد علي بن سعد بن محمد بن يوسف النصرى • انظر ص ١٧ – ٢٢ فيما سبق •

وأن الله سبحانه نصر الدين الحنيف بسلفها فى القديم ، ثم تداركه بخلفه غريبا فى هذا الاقليم ، فضاء بنورهم جنح الليـل البهيم ، وأينع دوح العز فلا بالمصوح [1] ولا بالهشيم ، وتوارثوها صدرا عن صدر ، وهلالا عن بدر ، وولدا عن أب ، وراثة حق ونسب ، من كل ملك صادع بالحق ، مبرز فى حلقة السبق ، مراقب لله فى الخلق ، وهمام يجيل جياد النصر ، ويطلع شمس السعادة فى العصر ، كلما أفل شهاب ثاقب، (٤ : ١) طلع بدر أفلاكه مفاخر ومناقب ، صانوا حلل العليا عن ابتذالها ، وحفظوا على الأيام روق جمالها ، وعالجوا الملة الحنيفية من اعتلالها . وماذا عسى أن يبلغ القول وان اطرد ، أو ينتهى المدح وان شرد ، فى أبناء صحابة الرسول وأنصاره ، وسلالة سعد بن عبادة [2] ، وزيره الذى لا يضاهى فى رفعة شأنه وعلو مقداره ، ووليـه الذى أعلن باجلاله فى قومه الأنصار واكباره ، وقال لهم لما أطل : قوموا لسيدكم تسجيلا لعقـد افتخاره ، الى أن ألبس الله طوق هذه الخلافة النصرية أشرفها فى العشيرة جيـدا ، وأكرمها أبا وجدودا ، وجعل زمامها فى أولى الناس مقادتها ، وأحقهم عنـد اجالة القداح بسهم سعادتها ، وأطولهم باعا فى توفر الخـلال التى تقتضيها ، والمحـامد التى تختارها وترتضيها، مولانا السلطان الكبير، الشهير ، الخطيب ، العادل ، الفاضل ، الماجد، الكامل ، الأورع ، الباسل ، المجاهد ، الحافل ، الماضى الصفاح فى ذات الله والذوابل، هضبة الثبات اذا هفت من الروع الهضاب ، وسيف الله المـاضى اذا لهمت السـيوف العضاب ، الذى استهل بالطهارة يافعا وكهلا [3] ، وكان مذ كان لخلافة المسلمين أهلا ، المجاهد السعيد ، الشهيد أبى الوليد[4] ، بن مولانا الهمام الأخطر ، العـلم الأشـهر ، عنصر المجد اللباب ، وبحـر النوال الفياض العباب ، وطود الرياسة العالى الجناب ، وصارف (٤ : ب) عنان الدولة الى أبنائه بالعزم الثاقب الشهاب ، والرأى المصمى ثغرة الصواب ، ومستحقها بالاكتساب والانتساب ، ومخلدها منهم فى الأعقاب ـ ان شاء الله ـ وأعقاب الأعقاب ، أبى سعيد فرج ، بن اسماعيل ، بن يوسف ، بن نصر، المباهى من نضار الانتساب ، الرفيع بغير الزائف ولا البَهْرَج ، المنتمى فى ذؤابة كرام الخزرج ، جدد الله عليه ملابس الرحمة ، وجزاه الله أفضل ما جزى الصالحين من ملوك هذه الأمة .

---

(١) المصوح : الجاف اليابس ، كذا فى اللسان والقاموس .

(٢) هو الصحابى الجليل سعد بن عبادة الانصارى ، شيخ الأنصار بالمدينة .

(٣) هكذا فى الاصل وجدناها معطوفة بلا اسناد لفعل آخر غير الاسـتهلال المناسب لليفاعة دون الكهولة .

(٤) هو السلطان أبو الوليد اسماعيل النصرى ، خامس ملوك بنى الاحمر ، تولى السلطة فى شوال من عام ٧١٣ هـ = ابريل ١٣١٣ ، وقتـل بيد ابن عمه محمد بن اسـماعيل صاحب الجزيرة ؛ لأسباب شخصية ، فى اواخر رجب ٧٢٥هـ = يونيه ١٣٢٥ م .

فلله من سنة أحياها ، وسيرة عدل أطلع محياها ، وسبيل بر أوضحها ، وحديث مجد عن سلفه من صحابة رسول الله أثبتها وصححها ، وصير الله ملكه الى قرارة رضاه واختياره ، وخلاصة حبه من بين سائر بنيه وايثاره ، بدر أقماره وندرة نضاره ، وعنوان سعده وبركة داره ، الذى أعلا عماد ملكه ورفعه ، وضم شمل المسلمين من بعده وجمعه ، وبنى على أساسه ، وأنتج الكمال من مقدمات قياسه ، مولانا وعمدة ديننا ودنيانا ، الواحد المعدول بالآلاف الملوك الصيد ، درة السلك وبيت القصيد ، الجامع لما تفرق من محاسن الدهر ، كفى الخلافة الملى لها بالمهر ، ذى العزم الأمضى ، والسعى الأرضى ، والسياسة التى أقرت العيون الموهى والنفوس المرضى ، الشهير الحلم والاناة فى شرق المعمورة وغربه ، الميمون النقية فى سلمه وحربه ، المصنوع له فى أعدائه عناية من ربه (٥ : أ) أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ، أبقاه الله وأيامه عن غرر السعد سافرة ، وأقسامه من النصر والعضد وافرة ، وكتائبه ظاهرة ظافرة ، والحوادث عن مقامه شاردة نافرة .

فمن ذا له مجد كمجد هذه الدولة التى لها الفخر الحقيق ، والنسب الصريح العريق ، والسبب المتين الوثيق ؟ واقتدى بهذه الشجرة النصرية الشماء [١] ، الذى أصلها ثابت وفرعها فى السماء [٢] . فروعها من الأقارب الرؤساء ، فكانوا نجوما أمدتهم شمسها المنيرة بالسناء ، فلم يألوا فى الاهتداء بها والاقتداء ، فضلا منشور اللواء ، وعدلا مديد الأفياء [٣] ، ومجدا كريم الابناء ، وجهادا قامعا للأعداء ، يقوم منهم الابناء فى ذلك بحقوق الآباء ، ويتوارثون كابرا عن كابر مذخور ذلك العلاء ، فأصبحوا صوارم جلادها ، وولاة بلادها ، وظهراء سلطانها ، وزين أوطانها . حفظ الله عليهم من عز هذه الايالة النصرية اليوسفية مادة سعدهم ، وعنصر مجدهم ، وان من أفضل من أنجبتهم هذه البيوت الرياسية من أبنائها ، وأبنته من فروع عليائها الرئيس الكذا [٤] أبو فلان ، ابن الرئيس الكذا أبى فلان ، وصل الله سعده ، وحرس مجده ، فانه نشأ والعفاف يظله ، والمجد ينهله ويعله [٥] ، والطهارة تضفى عليه سابغ أذيالها ، والأصالة توردة عذب زلالها ، والسعادة (٥ : ب) تأخذ بضبعه [٦] صعدا ،

---

(١) انظر : سلالة بنى نصر ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : « الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت، وفرعها فى السماء » سورة ابراهيم ، آية : ٢٤ .

(٣) الأفياء : الظلال ، ج فىء .

(٤) هو الرئيس أبو الحسن على بن أبى الحسن بن أبى جعفر بن نصر ، كما ذكره ابن الخطيب فى مقدمة الوثيقة وكذا فى مقدمة مخطوطة القاضى النباهى « نزهة البصائر والابصار » المسماة « المقامة النخلية » المحفوظة بالاسكوريال تحت رقم ١٦٥٣ .

(٥) النهل : الشرب الاول ، والعل : الشرب الثانى ، والمراد : حاز المجد أولا وآخرا .

(٦) الضبع : مثلثة ، الكنف ، يقال « هي في ضبع فلان » مثلثة ، أي في كنفه ، كذا فى القاموس .

وتفسح له من بلوغ الآمال مدى • لم يعلق بأثواب شبيته ما يريبها ويشينها ، ولا تلبّس بما ينافيه فضلها ودينها • وأسندت اليه الولاية فسلك فيها سيرة العدل ، وحلى بحلى النزاهة والفضل ، وأنه ـ أعزه الله تعالى ـ ترقت الى الغاية القصوى من الشرف العز آماله ، وانفسح فى التماس العز الاقعس [1] مجاله ، وتشوقت نفسه الى احراز الوسيلة التى لو طعمت فيها الكواكب الزهر لتزحزحت عن مراكزها استلطافا ، ومشت من آفاقها استنزالا واستعطافا ، وسأل الله أن يكيف لها من المقام اليوسفى مصاهرة تزيد مجده العالى أضعافا ، فوافقت دعوته من الله اجابة ووافقت رغبته فى خليفته اسعافا ، وما برح يستخير الله سبحانه ونعم المستخار ، وعائد الضراعة اليه والله يخلق ما يشاء ويختار [2] ، وعرض على المقام المقتدى بالرسول الذى خطب اليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما توجهت اليه آماله ، وتوسل بالقربى التى يتوسل بها أمثاله ، فلما اتصلت رغبته واتئالت [3] ، وتمادت وتوالت ، ورّى بالسعادة زنده ، وخفق بالنصر بنده ، ورأى مولانا ـ أيده الله ، وأعز نصره وأعلاه ـ أن وصل سببه ، وزكى حسبه، وأوضح فى الانعام عليه مذهبه ، وأوجب له العقد السَّنى والاملاك السُّنى ، (٦ : ١) فى أخته الحرة ، الجليلة ، الطاهرة ، المعظمة ، السعيدة ، فلانة ، ابنة والده مولانا أمير المسلمين أبى الوليد ، وصل الله لها عوائد اليمن والسعد ، وعرفها فى انتقالها أضعاف ما عرفته فى منشأ المجد ، ايجابا حالفته السعود ، وأنجزت به للآمال الوعود ، وأسس بنيانه على تقوى الله ورضوانه [4] الذى تؤسس عليه العقود الدينية والعهود • فعرف الرئيس الاجل ـ أعزه الله ـ قدر هذه النعمة التى لا تقاس بالنعم الا ترفعت عن أجناسها ، وخرجت عن حكم قياسها ، وتلقاها بما يجب من الشكر الذى تقابل به جلائل النعم ، وتستزاد به عوارف الكرم ، وانعقد بينهما الاملاك السعيد ، على الحرة الجليلة المخطوبة المسماة ، على صداق أوجبت السنة تعين مقدمه وتاليه ، وبينت نقده وكاليه [5] ، وأجرى قبوله من المقام الكريم اليوسفى حرس الله أسباب معاليه ، فجرى رفده الذى يصله واحسانه الذى يواليه ، مبلغه بين نقد حاضر وكالى مستأخر ، ألفا دينار

---

(١) العز الأقعس : العز الثابت •

(٢) اقتباساً من قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون » سورة القصص ، آية : ٦٨ •

(٣) ائتالت : تتابعت ، فعلها المجرد تيل بفتح الفاء والعين •

(٤) اقتباسا من قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين » سورة التوبة ، آية : ١٠٩ •

(٥) كاليه : المؤخر والمؤجل منه ، من قولهم : كلأ الدين ، يكلؤه مهموز بفتحتين ، كلواء بمعنى تأخر ،فهو كالىء ، بالهمز ، ويجوز تخفيفه • كذا فى القاموس • ومعلوم ان الأندلسيين وأهل المغرب يسهلون الهمزة •

اثنان من الذهب العين[1]، وكذا ، وكذاء على هذا انعقد النكاح، وبه تم ، وبسببه كمل. ولو كان هذا الصداق يوازى مقدارا، أو يكافى منصبا ملوكيا ونجارا ، لم يكن لهذا المنصب الرفيع فى عروض الدنيا ونقودها ـ على اختلاف أقطارها وتباين حدودها ـ ما يكافىء قدرا ، (٦:ب) ويوفى مهـرا ، لكنها سنة الاسـلام ، واقتفاء مذاهب الشرع الواضحة الاعلام، وسبيل العقود الشرعية فيما يحضها من الأحكام. تزوجها بكلمة الله التى علت على جميع الكلم، وعلى سنة سيدنا ومولانا محمد رسوله المنبعث للعرب والعجم، الماحى بنور هداه أسداف الظلم، وبما أخذه الله عز وجل ـ للزوجات على أزواجهن فى كتابه العـزيز الذى أوضـح لأولى الألبـاب قصـده ، من الامسـاك بالمعروف أو ما بعده [2] . فليعاملها بما يجب لمنصبها الكبير ومجدها الشهير ، من المكارمة المتـكلفة باستخلاص الضمير ، وهى ـ وصل الله لها أسباب السعد ، وحرس مالها من رفيع المجد ـ تعامله بما يقتضيه حالها ، وتعرف له الدرجة التى لا ينكرها أمثالها .

عقد عليها هذا الاملاك السعيد وكيل المولى أخيها ، وهو فلان ، بمـا بيـده من مقامه التفويض العام الذى من فصوله انكاح من يرجع الى نظره ـ أيده الله بنسب أو ملك أو ولاء ـ حسبما يعرفه شهوده ، وهى بكر فى حجر المقـام المولوى ، وتحت ولاية نظره العلى ، وبعد تقدم الاستئمار ، واقتضاء الاذن من مقامها الرفيع المقـدار ، وتحصيل ما يجب فى هذه الحال شرعا على حسب الاختيار . والله تعالى يجعـل هـذا العقد المبارك أسعد عقد جادت البركات الهامية أرجاه (٧:أ) وأجابت السعادة المعادة نداه، ويبقى عليهما من عناية هذا المقام الكريم المولوى ما يحمدان اعادته وابتداه ، بفضل الله.

شهد على الرئيس الكذا والوكيل بما فيه عنهما من أشهداه به ، وهما بحـال كمال الاشهاد ، فى الرابع والعشرين لصفر عام اثنين وخمسين وسبعمائة [3] .

---

(١) ذكر لسان الدين ابن الخطيب فى « الاحاطة » : « أن الدينار يومئذ كان فى الأوقية منه ستة دنانير وثلثا دينار ، وفى الدينار الواحد ثمن أوقية ،فى شق منه « قل اللهم مالك الملك بيدك الخير » ، ويستدير به قوله تعالى : « الهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم » ، وفى شـق منه « الامير عبد الله يوسف امير المسلمين ابو الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن نصر ، أيد الله أمره » ، ويستدير به شعار هؤلاء الامراء (لا غالب الا الله) » . وقد كان الدينار الذهبى المذكور يساوى خمسة وستين درهما فضيا مما كان سائدا حينئذ ، ولما كان من العسير تحديد النسبة بين هذه النقود، وبين عملاتنا المتداولة الآن ، فانه من الممكن أن نتخذ أساسا لتقـديراتنا وزن الوحدة الذهبية للعمـلة الغرناطية ، والعلاقة بين هذه ووحدة العملة الفضية كان وزن الدينار الغرناطى الوفى المعيار اثنين وعشرين قيراطا ، أى جيرامين من الذهب على وجه التقريب .

راجع فى هذا : الاحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ١٤٣ (تحقيق عنان) .

ثم راجع : « وثائق عربية غرناطية » تحقيق وتقديم ودراسة د. لويس سيكو دى لوثينا المستشرق الاسبانى . طبعة مدريد ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) ، نشر معهد الدراسات الاسلامية باسبانيا (مدريد) .

(٢) يرمى بهذا الى الآية الكريمة : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فامسكوهن بمعروف ، او سرحوهن بمعروف ، ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولاتتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ، يعظكم به ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بكل شىء عليم» سورة البقرة ، آية : ٢٣١.

(٣) الموافق : سبتمبر ١٣٥٠ م

القسم الثانى

التاريخ المغربى

رسائل ذات أحداث مغربية

الوثيقة الثانية

رسالة من السلطان يوسف الأول ملك غرناطة الى سلطان المغرب أبى عنان فارس المرينى ، بشـأن مراجعة عن هـدية بعث بها الأخير الى الأول أثناء مقامه فى تلمسان ، يشكر له فيها أبو الحجاج هذه المهاداة ، وينوه بمعونات المغرب الحربية ، لصالح الجهاد المقدس بالأندلس • والرسالة مؤرخة فى شهر المحرم ٧٥٢ هـ الموافق ٢٨ فبراير – ٢٨ مارس ١٣٥١ م •

ومن ذلك كتاب (١) عن السلطان أمير المسلمين بالاندلس أبى الحجاج بن نصر ، الى السلطان بالمغرب وما اليه ، أمير المسلمين الملك الكبير الشهير أبى عنان فارس (٢) ، ابن أمير المسلمين أبى الحسن على (٣) ، بن عثمان ، بن عبد الحق ، مراجعا عن هدية بين يدى حركته الى تلمسان ، فى شهر المحرم من عام اثنين وخمسين وسبعمائة (٤) ، تشتمل على خيل عتاق ومهندات ومهاميز (محكمة) (٥) ، كل ذلك من خالص الذهب ، وذهب عين ، قدس الله أرواحها ، وشكر عن المسلمين سعيها :

« المقام الذى شأنه هبات تبث ، وعزمات تحث ، وهمم يبث اليها الاسلام همومه فيذهب البث ، مقام محل أخينا الذى قضايا مجده منتشرة فى الجهات ، ضرورية بحسب الوصف والذات ، عرفية فى الأزمات ، مشروطة فى المواقف العزمات ، يزهى بوجوديها الزمن الحاضر وباستقبالها الزمن الآت ، ويطرز بها فخر الدين أوراق آياته البينات . السلطان الجليل ، الرفيع ، الأسنى ، الأنجد ، الأسعد ، الأوحد ، الأسمى ، الأعز ، الأمنع ، الأصعد ، الأشهر ، المجاهد ، الأمضى ، المؤيد ، المعان ، المنصور ، الأعلى ، الأظهر ، الأعدل ، الأفضل ، الأظهر ، الأحفل ، الأصيل ، الأطول ، الباسل ، الهمام ، المعظم ، الموقر ، المبجل ، المؤمل ، المبرور ، أمير المسلمين أبى عنان ، بن محل أبينا الذى نعظمه ونجله ، ونوجب له الحق الذى هو أهله ، السلطان (٧ : ب) الجليل ، الرفيع ، الماجد ، الطاهر ، العادل ، الباسل ، الأوحد ، الأشهر ، الأخطر ، الكامل ، المجاهد ، الأمضى ، الأوحد ، الأسعد ، الأكمل ، الأرضى ، الهمام ، الأورع ، الباسل ، الحافل ، المعظم ، المقدس ، صاحب الجهاد المبرور ، والسعى المشكور ،

---

(١) « من الريحانة » ، تبعا لما ذكر أمام الرسالة فى « الكناسة » .

(٢) بويع بتلمسان فى حياة أبيه فى ٣٠ ربيع الاول ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ثم حدث أن تنازل الأب لابنه عن العرش ، حيث جدد السلطان أبو الحجاج يوسف الاول العلاقات السياسية معه ، جريا على عادة غرناطة تجاه المغرب . ولد السلطان أبو عنان فارس فى ١٢ ربيع الاول ٧٢٩هـ ، ومات خنقاً على يد وزيره الحسن بن عمر الفودوى فى ٢٨ ذى الحجة ٧٥٩هـ ، وله ثلاثون عاما . ودفن بشالة بالرباط ، ولا زال شاهد قبره حتى الآن . استمرت فترة حكمه تسعة أعوام وتسعة أشهر ، وفى عهده ملك ـ ضمن المغرب ـ مدينة تلمسان بعد قتله لملكها يومئذ عثمان بن عبد الرحمن العبد الوادى ، كما ملك مدينة تونس . راجع: روضة النسرين فى تاريخ ملوك بنى مرين ، تحقيق : باولى وجيورجيس ، طبعة باريس ١٩١٧ م ،

(٣) بويع بعد وفاة أبيه يوم الجمعة ٢٥ من ذى القعدة عام ٧٣١هـ ، ومات بجبل هنتانة قرب مراكش ، ليلة الثلاثاء ٢٧ ربيع الاول عام ٧٥٢ هـ . وله ستون سنة ، ودفن بشالة بالرباط ، وكانت ولادته فى صفر عام ٦٩٧ هـ . فكانت دولته عشرين سنة وبضعة أشهر .

ملك المغرب بأجمعه ، واستولى على ملك تلمسان ، بعد أن قتل سلطانها أبا تاشبين العبد الوادى . كما استولى على تونس ، وسائر مدن افريقية ، بعد أن قتل كذلك ملكها عمر بن أبى يحيى الموحد الهنتاتى. راجع : روضة النسرين ـ للامير اسماعيل بن الاحمر ، ص ٢٠ ط باريس ١٩١٧ م .

(٤) الموافق : فبراير ١٣٥١م .

(٥) هذه الكلمة زيادة بنسخ الريحانة الثلاث التى نوهنا عنها فى التمهيد .

أمير المسلمين أبى الحسن ، بن السلطان الجليل ، الرفيع الشهير ، الخطير ، الكبير ، الاوحد ، الاحفل ، الاسمى ، الاسعد ، الارضى ، الطاهر ، الجواد ، الاعلى ، المجاهد ، الفاضل ، الطاهر ، الكامل ، المؤيد ، المعان ، صاحب المكارم الشهيرة ، والمآثر التى هى أوضح من شمس الظهيرة ، أمير المسلمين أبى سعيد ، بن السلطان الجليل ، الشهير ، الاسمى ، الخطير ، الاصيل ، الكبير ، الحافل ، الفاضل ، الكامل ، الأسعد ، الأمجد ، الأعلى ، الأطهر ، الاظهر ، الاسمى ، المجاهد ، المؤيد ، المعان ، الأمضى ، صاحب (الجهاد) [1] الأمضى ، والسعى الارضى ، امير المسلمين أبى يوسف يعقوب ، بن عبد الحق [2] • أبقاه الله وحيد العلماء على تعدد فضله واشتراكه ، فذلكة حسابه أولى الأحساب من خلائف (٨ : ١) الاسلام وأملاكه ، ولا زال بدر هدى صهوة الطرف من أفلاكه ، وبحر ندى ينسب جيد الوجود الى عنصره العميم الجود درر أسلاكه ، فمتى حاول قصدا جنح منه النجح الى املاكه ، ومهما كاد ضدا كانت النجوم الشوابك من شباكه ، حتى يرمى سعده عن قوس الافق ويظفر بسماكه • معظم مقامه الذى هو بالتعظيم مخصوص ، وموجب حمده الذى محكمه فى كتاب البر منصوص ، وموقر ملكه الذى تاؤه على أساس الأصالة مرصوص ، الامير عبد الله يوسف ، بن امير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر •

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الاعلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته •

أما بعد حمد الله الذى جعل الشكر مفترضا ، وألف بين القلوب بعواطف فضله الموهوب فلم يبق فيها مرضا ، وخلص جواهر الاعتقاد من شبه الانتقاد فلم يترك عرضا ، وسدد الأعمال الودية والأقوال الاعتقادية الى مرامى التوفيق فأصابت سهامها غرضا • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى سل من الحق حساما منتضى ، وندب الى التماس الخلال التى تحمد والاخلاق التى ترتضى ، وبين من المآخذ والمسالك ما كان مسلما أو معترضا • والرضا عن آله وأصحابه الذين اقتضوا من آدابه الكريمة أسنى مقتضى ، وباعوا نفوسهم (٨ : ب) النفيسة من الله فى نصر دينه ففازوا بدار

---

(١) زيادة فى نسخ الريحانة ا ، ب ، ج •

(٢) تولى رياسة بنى مرين بعد وفاة أخيه (ابى بكر بن عبد الحق الملقب بأبى يحيى) عام ٦٥٦هـ ، واتخذ من فاس عاصمة لملكه ، وفى عهده نشبت الحرب بين بنى مرين وبين بنى زيان بالمغرب الاوسط ، بقيادة ملكهم الأمير يغمراسن الذى هزم فى النهاية ، وارتد الى تلمسان عام ٦٥٧ هـ • وفى عهده أيضا هاجم الأسطول الاسبانى ثغر « سلا » على حين غفلة ، فقتلوا وسبوا كثيرا من أهل المدينة ، فاسرع أبو يوسف اليهم ، حيث حاصر الاسبان أياما حتى أجلاهم عن الثغر عام ٦٥٨هـ • وتجدر الاشارة الى ان هذا السلطان تمكن من القضاء على ملك الموحدين نهائيا ، بعد موقعة « وادى غنو » بين فاس ومراكش ، حيث استولى أبو يوسف على معسكر المرينيين ، ودخل مراكش عام ٦٦٨ هـ ، وحيث تسمى من ذلك الحين بامير المسلمين ، وبذلك إنتهت دولة الموحدين فى كل من المغرب والأندلس ، بعد أن عمرت قرابة قرن وثلث • راجع : الذخيرة السنية ص ١٠ ، ١٦ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣ — ١٤ •

الخلد عرضا • والدعاء لمقـامكم الأعلى بالنصر الذى لا يبقى فى فؤاد الدين مضضا ، والعزم الذى يحرض النفوس على جهاد عدو الدين حتى يعود حرضا • فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم من العز أفسحه جنابا ، ومن السعد أسبغه أثوابا ، وملأ صحائف صفاحكم الماضية فخرا وثوابا ، وجعل الصنع الالهى لنداء دعواتكم جـوابا ، وأسعد الاسلام بايالتكم (١) التى استأنفت شبابا ، ووصلت بأسباب التمهيـد ـ أسبابا ـ من حمراء غرناطة (٢) ، حرسها الله ، والتشيع فى سلطانكم العـلى سبـيل لا يلتبس ،

---

(١) ايالتكم : دولتكم ، والكلمة هذه وردت فى تاريخ كل من المغرب والأندلس على الخصوص •

(٢) هى Granoda، ومعناها (الرمانة) ، شعارها التاريخى ، تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى العربى لجبال (سييرا نيفادا) ، ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادى الكبير ، بينما يخترق فرعه (حدره) المدينة فى الوسط ، والى يمينه يقع حى البيازين ، ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبة الحمراء فى الناحية الاخرى • وقد سقطت غرناطة بالتسليم فى يدى الملـكين الكاثوليكيين (فرناندو ، وايسابيلا) فى ٢ يناير ١٤٩٢ م = ٢ ربيع الاول ٨٩٧هـ • ويعتبر سقوطها خاتمة الفتوح التى توجت حروب الاسترداد La Reconqueista : لذلك تحظى المـدينة بمنزلة خاصة فى نفـوس الاسبان وفى تاريخهم القومى ؛ فهى المرقد الأبدى لفاتحيها الكاثوليكيين ، ومن ثم فقد حباها ملوك أسبانيا برعايتهم ، وفى مقدمتهم الامبراطور «شرلكان» الذى أسس جامعتها الشهيرة • وغرناطة اليوم ولاية ومدينة ، فكونهـا ولاية تشتمل على مساحة قدرها ٥٠٠٠ ميل مربع يحدها البحر من الجنوب ، وولايتى قرطبة وجيان من الشمال ، وولايتا المرية ومرسية من الشرق ، وولاية مالقة من الغرب ، وتخترقها جبال (سييرا نيفادا) ، ويرويها كل من نهر الوادى الكبير وفرعه شنيل • جوها حار ولا سيما فى الوديان المنخفضة ، بينما هو بارد فى التلال ، وتربتها خصبة جدا ، ولا سيما فى الغرب والجنوب ، ويبلغ سكان الولاية ٩٠٠ر٠٠٠ نسمة تقريبا ، ويتبعها من المدن : وادى آش ، وأشـكر ، وشلوبانية ، وبسـيطة ، ومتريل ، والحامة ، وسنتاف ، ولوشة ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، والمنكب ، وأرجبة • أما غرناطة المدينة فهى عبـارة عن ثلاثة أحياء : أنتكيرويلا ، وغرناطة ، والبيازين • وهى مدينة زراعية صناعية ، يبلغ سكانها اليـوم ١٣٥ر٠٠٠ ألف نسمة تقريبا ، وتمتاز المدينة بكثرة منشآتها العلمية والفنية ، وقد تأسست جامعتها عام ١٥٣١ م ، وتشتمل اليوم على خمس كليات هى : العلوم ، والحقوق ، والآداب ، والطب ، والصـيدلة • ويلحق بكلية الآداب معهدان هما : معهد تاريخ الملكيين الكاثوليكيين ، وقد أنشىء عام ١٩٤٢ م ، والآخـر مدرسة الأبحاث العربية ، التى تعمل بالتعـاون مع نظيرتها فى مدريد ، ويصدران معا مجلة الاندلس • وبغرناطة عدد من المتاحف ، منها متحف الحمراء والمتحف الأثرى ، ومتحف البلدية • أما المعالم الأثرية والآثار الأندلـسية الباقية فهى قصر الحمراء ، وحى البيازين ، وميدان باب الرملة ، والقيسـارية ، ومدرسة غرناطة ، والخان ، وبعض الابواب ، وأجزاء من الاسوار المحيطة بالمدينة ؛ وقصر شنيل ، ومجرى نهر شنيل •

راجع : رحـلة ابن بطـوطة ج ٢ ص ٨٧ ، وسيمونيت فى وصف مملكة غرناطة ص ٢٧ ـ ٦٨ •

هذا ، وان الحمراء المشار اليها فى المتن هى عبارة عن المدينة الأثرية الهامة ، التى تعرف بهـذا الاسم ، وتضم القصبة والقصر فوق التل المشرف على المدينة (غرناطة) •

أما قصر الحمراء فهو عبارة عن المنشآت التى تقوم على تل يعرف بتـل السـبيكة ، تنبه المسـلمون الأولون فى الأندلس لذلك الموقع الحصين فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فأنشأوا حصنا عرف باسم القلعة الحمراء • وعندما تولى بنو زيرى الصنهاجيون الملك بالاندلس فى القرن الخامس جعلوا مركزهم فوق الهضبة ، ثم أقاموا بعض الحصون ، وهذا هو أساس الحمراء • ثم جاء المرابطون وبنوا على حافتها الجنوبية الغربية الابراج الحمراء • ولكن الفضل الاكبر فى انشاء الحمراء يعود الى مؤسس دولة بنى نصر محمد الاول ابن الاحمر ، ثم أولاده من بعده ، حيث أصـبحت الحمراء على أيديهم مدينـة ملوكية تضم الحصون والقصور ودواوين الدولة • على أن الانشاء الحقيقى لمبانى الحمراء قد تم خلال القرنين السـابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) أما خلال القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى الميلادى ، وهو الاخير من تاريخ غرناطة فلم ينشأ بمدينة الحمراء شىء ذو بال =

والأعتقاد فى رفيع جلالكم [1] نور يقتبس منه المقتبس .

والى هذا – أيد الله أمركم ورفع قدركم – فقد تقرر – جبلة مطبوعة ، وسنة متبوعة [2] – أن المهاداة تغرس المحبة وتنبتها ، وتؤكد المودة وتثبتها ، وتسرح الأضغان وتزعها [3] ، وتسل السخائم [4] وتنزعها ، فكيف اذا وردت على ضمائر أصفى فى ذات الله من نطف الغمام ، وأصون من درر الازهار فى أصداف الكمام ، وقلوب متعاقدة على مرضاة الله والاسلام . فيا لها من مودات تزكو حينئذ ثمارها ! واعتقادات تسطع أنوارها ! وأننا ورد علينا كتابكم الكريم على حال اشتياق لوارده ، وظمأ الى موارده ، حائزا فى ميدان البلاغة مزية التقديم ، واصلاً سبب البر الحديث بالقديم ، (٩ : ١) الى ألفاظ مصقولة الأديم ، ومعان حلت من البيان محل الكأس من كف النديم ، مصحبا بالهدية الجهادية ، والمقاصد الودادية ، والمواعد السنية ، والعزائم

= كان تل السبيكة – عندما بدأ محمد ابن الاحمر يحيله الى حصن ضخم لمملكته – منفصلا تقريبا عن جبال « سييرا نيفادا » ، وكان معظم اهتمام ابن الاحمر موجها نحو الحصون ؛ فاليه ينسب تجديد الأبراج المرابطية الحمراء ، وكذا انشاء الأسوار الهائلة التى تدور بحافة الهضبة كلها ، ثم جاء محمد الثانى الفقيه (٦٧١ – ٧٠١هـ / ١٢٧٣ – ١٢٩٢م) فاتم بناء هذه الاسوار .

وان منشآت الحمراء التى تغطى الهضبة كلها تنتظم ثلاثة أقسام :القصبة ، والقصور ، والحدائق.

فأما القصبة فهى مقامة على الطرف الغربى من الهضبة ، على هيئة مثلث ذو تحصينات ، تحيط به أسوار تتخللها الأبراج . وهذه القصبة هى عبارة عن القسم العسكرى من الحمراء . أما القسم المدنى وهو القصور فهى الجزء الذى يمتد الى الشمال حتى حدائق جنة العريف ، وهى مجموعة من الابنية تتوسطها ابهاء مكشوفة ذات نافورة أو بركة ، وتتصل هذه المجموعات بعضها ببعض بوساطة غرف أو دهاليز . فأما المجموعة الأولى منها فلم يبق منها الا بركة البهو الاوسط المسمى بهو « ماتشوكا » . وأما المجموعة الثانية فهو عبارة عن قاعة المشور ، ثم القاعة المذهبة ، ثم البهو المذهب . وهذه المجموعة كانت جزءا من القسم الادارى لقصر الحمراء ، وأهم ما تحتوى عليه – غير ما ذكر – بهو الريحان وقاعة السفراء التى يعلوها برج قمارش . وهاتان المجموعتان من مبانى الحمراء أنشأهما السلطان أبو الحجاج يوسف الاول (٧٣٣ – ٧٥٥ هـ/١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) سابع سلاطين بنى الاحمر بعد أن هدم ماكان قد أقامه كل من جده الاول ثم ابنه من بعده (محمد الثانى الفقية) . أما المجموعة الثالثة من القصر فهى تدور حول بهو الأسود ، وهى قاعة المقرنصات وقاعة بنى سراج وقاعة الاختين ، وكل من هذه المجموعات – بما فى ذلك البهو – قد أنشأه السلطان محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ – ٧٥٩هـ / ١٣٩٨ – ١٣٩٢م) ثامن سلاطين بنى الاحمر .

هذا ، وان حدائق الحمراء هى التى تسمى جنة العريف ، بالاضافة الى الحدائق الأخرى الفرعية التى تظلل القصر وتطوف به من كل جانب ، وبين هذا وذاك ، وفى وسط كل ذلك تقوم برك المياه والنوافير ، وأجملها بهو السواقى الذى يمتد بين خميلتين ، حيث يصب الماء من الجانبين صاعدا ثم نازلا فى البركة ، مشكلا اقواس نصر تتألق تحت أشعة الشمس .

راجع : توريس بلباس فى كتابه « الفن الموحدى والفن النصرى ... » ، ص ١٠٠ وما بعدها ، وكذا الاحاطة ج ١ ص ١٢٢ تحقيق « عنان » ، ثم « حضارة العرب » لجوستاف لوبون ص ١٤٧ – ١٦١ ط. برشلونة ١٨٨٦م .

(١) فى نسخ الريحانة الثلاث « فى ربيع جلالتكم » .

(٢) فى الأصل : مطبوعة .

(٣) تزعها : تزجرها ، فعله : وزع بفتحات ، والمراد : ان المهاداة تطرد الأضغان .

(٤) السخائم : الأحقاد ، ج سخمة بضم السين ، أو سخيمة بفتحها ، كذا فى لسان العرب والقاموس .

المتكفلة بنيل الأمنية • فوقفنا من ذلك كله على أنواع بر فى أصنافها مختارة ، وضروب فضل تختال من الاحتفاء فى أكمل شارة ، وتشير الى ما وراءها من العزم الجهادى أكرم اشارة ، من كل طرف ذكى الجنان ، طموح فى العنان ، مسرج بالهلال ملتحف بالعنان ، منقاد لوحى الطرف واشارة البنان ، مهتد فى ظلام النقع بذبال السنان ، كأنما زاحم النجم بتليله [1] ، فألجم بثرياه وقلد بأكليله ، وكأن الصباح غمر وجهه بمسيله، والنسيم اللدن مسح عطفه بمنديله، ونهر المجرة أبقى الليل فى تحجيله، فلو رآه القس لمثله فى ظهر انجيله • متبختر فى مشيه ، مختال فى عصبه ووشيه • يلاعب ظله نشاطا وترفيها ، ويطرف عن مقلة ملئت تيها ، وأودع سحر هاروت فيها • وكل صارم صقيل الحد ، كامن الفضل فى الخلد ، تميمة من تمائم المجد • ماشئت من ماء فى الجلد مسكوب ، وضرام فى الغمد مشبوب ، ورومى الى الهند منسوب ، كلف بالعلا ، وازدان بأبهى الحلى ، وهام ببيض الطلى [2] ، حتى بان نحوله بالهوى ، ورق جثمانه ، وتضاءل بين الاجفان انسانه ، من اللاتى عودتها الايالة الفارسية [3] (٩ : ب) خوض الغمار ، وجردتها من مخيطها اللحج بين يدى مقامها والاعتمار ، وعلمتها بنثار الجماجم رمى الجمار ، وكل محكمة المقدار محلاة ببحت النضار ، منظومة الخرز نظم الفقار • أبدعتها أرباب الحروب فى أشكال المحاريب ، وأبرزتها فى المرأى الأنيق ، والشكل الغريب ، تهمز بها حروف الجياد عن سكونها ، وتثار عقبان الصفوف من ركونها • فيالها من هدية أزوى [4] فيها العيان بالسمع !! وتثنيه قامت عندنا مقام الجمع !! وذكرتنا بازدواجها الحكمة فى ازدواج الجوارح كالعين والسمع ، وعرفتنا بتثنية أشكالها ، وانفراد الكتاب المعرب عن جلالها ، بركة الوتر والشفع • فأغرينا لسان الشكر بخلال مهديها ، وأقبلنا وجوه الود وفادة مؤديها ، وقلنا : لا ينكر العذب من منبعه ، ولا النور من مطلعه ، ولا الفضل اذا صدر من موضعه •

وهذه البلاد ــ أيدكم الله ــ أسماع أعدائها مصيخة الى مثل هذه الأنباء ، وقلوبها من اتصال اليد (بذلك العلا) [5] محملة بأثقل الاعباء ، فاذا عرفت اعتناءكم بأمرها ، وعملكم على نصرها ، واهتمامكم بشأنها ، ومواعيدكم المتكفلة باتصال أمانيها، قصر شأو عدوانها وتضاءل نار طغيانها ، ووازنت الأحوال بميزانها •

---

(١) تليلة : قوته وشدته ، فعله : تل ، بفتح فتضعيف •

(٢) بالفتح : ولد الظبى ساعة ولادته •

(٣) يعنى بها دولة أبى عنان فارس السلطان المخاطب •

(٤) أزوى : فعله زوى ، بمعنى جمع • والمراد : أن الهدية جمعت بين السمع والمشاهدة فى المطابقة •

(٥) زيادة وجدناها بنسخ الريحانة الثلاث •

ونحن ان ذهبنا الى تقرير ما عندنا من التشيع الذى آياته محكمة ، ومقدماته مسلمة ، فلا يعترض منها رسم ، (١٠ : أ) ولا ينازع فيها — والحمد لله — خصم ، لم يتسع نطاق النطق لأداء معلومها ، ولا وفىّ المكتوب ببعض مكتومها . فحسبنا أن نكل ذلك الى من يعلم ما خفى من السرائر ، ويبلو مخبآت الضمائر ، وعرفتمونا بعزمكم على الحركة الشرقية[١] التى قدحتم زندها فأورى ، وأبريتم طرفها . وأنكم تمهدون الى الجهاد فى سبيل الله سبيلا ، وترفعون الشواغب جملة وتفصيلا . وتكون نيتكم الصادقة تقصد هـذا المرمى ، وتخطب هذا الغرض الأسمى . خصكم الله بالأثرة الأثيرة ، ونصركم فى المواطن الكثيرة ، فانكم انما تعاملون من لا يضيع عمل عامل[٢]، ولا يخيب أمل آمل ، والله تعالى يقدم الخيرة بين يديكم ، ويتم نعمته عليكم[٣] . ويجزل عوارف المواهب لديكم بفضله .

وقد حضر بين يدينا خديمكم فلان ، فألقينا اليه من شكر مقامكم ما لزم ووجب، وجلونا منه بعض ما تستر بالعجز عن ادراكه واحتجب . فلمجدكم الفضل فى الاصغاء لما يلقيه ، والقبول على ما من ذلك يؤديه . والله سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته[٤]) .

---

(١) يعنى مسير السلطان أبى عنان الى تلمسان ، وفتحه لها ، وتملكه اياها ، حسبما أشار ابن الخطيب الى هذا ، فى التعريف بمضمون الرسالة فى البداية .

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب» سورة آل عمران آية : ١٩٥ ».

(٣) اقتباسا من قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما » سورة الفتح ، آية : ٢ .

(٤) جاءت نهاية الرسالة فى نسخ « الريحانة » الثلاث هكذا :

« ويجزل عوارف المواهب لديكم بمنه وفضله . واعلموا — وصل الله لكم سعادة متصلة الأسباب ، ووقاية سابغة الأثواب ، والأذيال ضافية الأثواب — أنه حضر بين يدينا خديمكم الشيخ الأجل الأعز الموقر ابو فلان ، كتب الله سلامته ، وولى كرامته ، فالقينا اليه من شكر مقامكم الكريم ما لزم ووجب ، وجلونا منه بعض ما تستر بالعجز عن ادراكه واحتجب ؛ فلمجدكم — أبقاكم الله — الفضل فى الاصغاء لما يلقيه ، والقبول على ما من ذلك يؤديه . والله سبحانه يصل لكم عوارف الأيد ، ويحملكم من مرضاته على مايضاعف لديه مواهب نعمائه ، ويحقق الظنون فيكم من الدفاع عن دينه وجهاد أعدائه ، والقيام بسنن الجلة من خلفائه . وهو — جل وعلا — يحفظكم فى كل الاحوال ، ويسدد عصمه الوارفة الظلال ، والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتبه فى كذا من التاريخ ، عرفنا الله خيره .

الوثيقة الثالثة

رسالة مؤرخة ١٥ ربيع الأول من عام ٧٥٢ – أول مايو ١٣٥١ م من السلطان يوسف الأول الى معاصره بالمغرب السلطان أبي عنان فارس في التهنئة باسترداد مدينة تلمسان من بني زيان ، بعد أن كابد من المشاق في هذا الفتح .

ومن ذلك جوابه (١) للسلطان المذكور « أبى عنان » ، عن كتابه بالهزيمة التى أفلج على بنى زيان (٢) ، بعد أن فر عنه الجيش (١٠ : ب) ، وأقدم بنفسه وحاشيته ، ففتح عليه ، وتملكه مدينة تلمسان ، وذلك فى وسط ربيع الأول (من سبعمائة واثنين وخمسين) (٣) .

« المقام الذى مقدمة سعده تسلم ولا تمنع ، وحجة مجده لا ترد ولا تدفع ، ونوافل فتوحه المؤيدة بملائكة الله وروحه توتر وتشفع ، والصنائع الالاهية فى دولته الفارسية تثنى وتجمع ، ويحمل منها ما يقاس على ما يسمع ، مقام محل أخينا الذى تبسم النصر فى ثغور نصوله ، واحتفل الفخر فى تدوين محصوله ، وشهدت مخايله الظاهرة بكرم أصوله ، وتألفت حدود المجد سالمة من النقد بين أجناسه وخواصه وفصوله ، السلطان الكذا (أبى عنان فارس) ابن السلطان الكذا (أبى الحسن على المرينى) ، أبقاه الله يورق أعواد المنابر كلما سقتها من أنباء فتوحه الغيوث ، وتفرق أسود الشرى كلما زأرت من أبطال حماته الليوث ، وتأمن فى ظل اياالته العادلة وخلافته الفاضلة السهول من الأرض والوعوث ، ويتعاضد بالمكسوب من فخره الموروث ، ويفضى الى استلام ركن يمينه ومشاهدة نور جبينه الركاب المحثوث ، معظم مقامه الذى تعظيمه مفترض ، القائم بحق بره الذى لا يقدم عليه غرض ، فلان (أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر (٤)) .

سلام كريم ، طيب بر عميم ، كما حسر وجه الفجر عن نقابه ، وتقدمت طلائع نسيمه وشهب الصبح فى أعقابه ، يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله وبركاته .

(١١ : أ) أما بعد حمد الله العليم الفتاح ، مطلع غرر المسرات المستمرات أوضح

---

(١) ثبت فى نسخ الريحانة أيضا ، أ ، ج .

(٢) هم أمراء مملكة تلمسان الواقعة غرب الجزائر (٦٣٣ - ٧٩٦هـ) = (١٢٣٥ - ١٣٩٣ م ؛ ولما امتد سلطان بنى مرين فى المغرب عام ٧٩٦ هـ (١٣٩٣م) شمل الجزائر ، وأضحى ملك بنى زيان تابعا لبنى مرين ، وبقى الامر كذلك حتى دب الضعف فى الدولة المرينية ، واستبد بنو وطاس ووزراؤهم بالامر ، فهيأ ذلك لبنى زيان أن يستقلوا مرة أخرى بأمر الجزائر ، كما هيأ - بدوره - للأشراف أن يظهروا فى مراكش فى الجنوب .

راجع : ابن خلدون ، فى «العبر» ج ٧ ص ١٦٦ - ١٨٠ ، والذخيرة السنية ص ١٤٨ ، والاستقصا ج ٢ ص ٦١.

(٣) ساقطة من الكناسة ولكنها ثابتة بنسخ الريحانة أ ، ج ، والتاريخ المذكور يوافق : أكتوبر ١٣٥٠ م .

(٤) راجع الوثيقة السابقة ، ثم نهاية المخطوطة حيث العبارة « الى هنا انتهى ما ألفي من المبيضات التى كتب بها عن السلطان أبي الحجاج .. » .

من فلق الصباح، وميسر الآمال السنية وفق الأمنية وحسب الاقتراح، مورث الأرض كما وعد أئمة الهدى والصلاح ، المتكفل لهم بحسن العواقب وفوز القداح ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله نور الهدى الوضاح ، ذى القدر الرفيع ، والجاه المنيع ، والمجد الصراح ، المؤيد بالرعب ، المنصور بهبوب الرياح ، حتى أشرقت أنوار دعوته السمحة فوق الربا والبطاح • والرضا عن آله وصحبه ليوث البأس وغيوث السماح ، الذين راضوا صعاب النصر من بعد الجماح ، ورفعوا سماء قبة الاسلام على عمد الرماح ، ولم يشغلهم ليل التبتل عن يوم الكفاح ، فكانوا لأمته أهدى من القمر اللياح ، وعلى أعدائه أعدى من الحين المتاح ، والدعاء لسلطانكم الاعلى بالنصر الذى ترتسم آثاره (فى صحف الصفاح)[1] ، وتسطر أخباره فى صفحات الحسان الصحاح ، والعز الذى تبدى الخيل له سيماء الخيلاء والمراح •

فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم فتوحا منظومة العقود معقودة النظام ، وآلاء دائمة الاتصال متصلة الدوام ، وسعودا معلومة الوضوح واضحة الاعلام ، ونصرا يرتاح به قد القناة ويبسم له ثغر الحسام ، وصنائع تبهر حلاها (١١ ـ ب) على لبات المنن الجسام ، ويروق مجتلاها فى غرر النعم الوسام ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زايد ـ بفضل الله جل وتعالى ، ثم بما عود من آلائه التى تترادف وتتوالى ـ الا الخير الذى أنجزت وعوده ، والصنع الذى تألقت فى أفق الدين الحنيف سعوده ، والفتح الذى تفتح به زهره وأوراق عوده ، جعلنا الله ممن استمر فى مقام الشكر قيامه وقعوده ، فكلما اعتلت قوى ادراكه جاءه الامداد من الله يعوده ، ونحن من السرور بما يسنيه الله لكم بحيث لا تلبسون حلة صنع الا لبسنا مثالها ، ولا تنالون سبب نعمة الا حمدنا منالها ، ولا تجتلون غرة فتح الا استجلينا جمالها ، نشرب من ذلك فضل شربكم ، ونَرِدُ عقب وِرْدكم ، ونَمُتُّ اليه بمثل مَتّات مجدكم ، فكلما امتد لدولتكم العلية ظلُّ عِزٍّ انفسحت آمالنا وامتدت ، أو اشتدت للمككم عروة نصر قويت أعضادنا واشتدت •

والى هذا ـ أيدكم الله بنصره ، وحكم للمككم الرفيع باعلاء أمره ـ فانكم جئتمونا بزهرة الفتح الأول أظلال فصله ، وأتحفنا ملككم ببواكر نصره ، قريبة العهد باقتطاف نصله ، وعرفتمونا بما كان من الظفور الذى خفقت عليكم رايته ، والنصر الذى أنزلت اليكم آيته ، والفخر الذى (١٢ : أ) دخرت للمككم غايته • وان عدوكم لما ضاقت عليه المسالك ، وفغرت أفواهها اليه المهالك ، أقدم اقدام من استعجل الحِمام ، ولم يمطل به الأيام ، وأول انتهاز فرصة كانت وقاية الله من دونها ،

---

(١) زيادة فى نسخ الريحانة أ ، ج •

واغتنام غرة كان مدد العزم بعض عيونها ، وأقبل والمحلات تخيم بيوتها تخييم الحباب ، وتطفو قبابها البيض طفو الحباب ، فناشب حاميتها الحرب ، وأعمل الطعن والضرب ، وسولت له الأطماع خطة أبتها قلوب ضمائرها قد خلصت ، وأبطال من بعد الاقدام ما نكصت ، وأقدام ثبتت فى موقف الهول واستقرت ، وقبائل من مرين [1] عاهدت الله فوفت وبرت ، وأنكم - لما عقدت الحرب حباها ، ورجمت الظنـون الكاذبة فى عقباها - فديتم من دونكم من الخليقة بالنفس الحرية بالمجد الخليقة ، وافتديتم بأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الحديقة ، فانهم - رضى الله عنهم - لما ارتابوا بأوشاجهم ، وعولوا على أديانهم وأحسابهم ، تبوءوا من الصـــبر حصـونا ، ونادى أمراؤهم أخلصونا ، فخلصت منهم كتيبة كانت الحمـــلات لا تهزها ، والاهوال لا تستفزها ، حتى علت أيديها ، وحيعل [2] بالنصر القريب مناديها ، فما كان الا أن طلعت شمس غرتكم يحملها من الطرف العتيق فلك ، وخفق منصور علمكم يتبعـه ملك ويقدمه ملك ، ونهر (١٢ : ب) موكبكم يهديه من الرأى صبح ويحجبه من القتام حلك ، وتراكمت من النقـــع جوز السحائب ، وماجت على الارض بحـــور الكتائب ، وضحكت النصول فى اليوم العبوس ، ودارت بين الرجال للآجال الكؤوس ، وأحفرت عزمات المغافر ، وتجلت رماح الحـــرب بالحد السـافر ، واشتبهت الطرق ، ورمدت من الأسنة العيون الزرق ، وأجرى الله مقامكم من النصر على عادته ، وأثبت فى درجة ذلك الاجتماع سهم سعادته ، فكذبت من مناوئكم العزيمة ، وصدقت عليه الهزيمة ، وأدبر ادبار أمسه ، ومضى وهمه تجاه نفسه ، وانقلب مغلوبا مفلولا ، يرى

---

(١) يرجع المؤرخون نسب هذه الأسرة الى «مضر» ، وذلك بالانتساب الى بر بن قيس عيلان بن مضر ابن نزار . وجدهم الأعلى «جرماط بن مرين ورتاجى بن ماخوخ» . وقد حدث فى أوائل القرن الســابع الهجرى أن نشبت الحرب بين بنى مرين هؤلاء وبين بنى عبد الواد ، ونزلوا بوادى ملوية الواقع بين المغرب والصحراء ، حيث أقاموا يترقبون انهيار دولة الموحدين ، ثم نفــذوا أخيرا الى أرجاء المغـــرب وجنباته ، واشتبكوا لاول مرة مع الموحدين عام ٦١٣هـ وهزموهم ، وولوا على المغرب أميرهم يومئذ أبو محمد عبد الحق ابن خالد بن محيو ، الذى قتل فى العام التالى فى احدى المواقع ، فخلفه فى الامارة ولده سعيد عثمان ، والذى قاد قومه فى كفاحهم ضد الموحدين حتى أمكن لهم . وتعتبر دولة بنى مرين من الدول المغربية التى لعبت دورا ذا أهمية بالغة على مسرح السياسة فى المغـــرب ، ثم فى الاندلس ، على يد أميرهم الســلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور ، بعد أن استصرخه مؤسس دولة بنى الاحمر محمد الاول ابن يوسف ، ثم تلاه ابنه محمد الثانى الملقب بالفقيه الذى استغاث بدوره بالمغرب ، وهكذا كانت دولة بنى مرين تحاول أن تسير على سنة الملوك الأولين المغاربة فى الاستجابة للصريخ الاندلسى ، وأنهم ضحوا فى هذا بالجم الغفير من الرجال والعتاد والمؤن ، حتى نهكت قواهم ، وخاصة فى عهد سلطانهم أبى الحسن على المرينى ، الذى اندحر مؤخرا فى موقعة طريف التى أشرنا اليها فى المقدمة ، من هذا الكتاب ، ولم يعد بعدها للأندلس ثانية . حيث شغلته - من جانب آخر - مشكلاته الداخليـــة ، وانتقاض أطراف المغرب عليه .

راجع : فى أصل هذه الأسرة المرينية ودورها فى المغرب والاندلس : الاستقصا ج ٢ ص ١٣ - ١٤ ، ١٦ وكذا : الذخيرة السنية ص ١٤٨ ، وكتاب العبر ج ٧ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) أى قال : « حى على النصر » .

البرق سيفا مسلولا ، ويحسب الشعاب خيولا ، ويظن حمرة الشـفق دما مطلولا ، وخلف أنصاره حصيدا ودياره طلولا ، وأنكم ثنيتم الأعنة وللنصر لواء بكل ثنية ، وعلى كل راية عناية ربانية ، والوجوه بادية السفور ، والخيـل دامية النحـور ، والسيوف موردة الخدود ، والرماح مختصرة القدود ، ومحابر الكنائس خاوية من أقلامها ، وموارد السوابغ خالية بعد ازدحامها . الفتـح قد فتح لـكم بابه ، والنصر حولكم كتائبه وفى يدكم كتابه . فلم نكد نعطى السرور بهذا النبأ حقه من الابتهاج والارتياح ، والشكر لله على فوز القداح ، وتأتى الافراح (١٣ : أ) والاشادة به فى النواح ، وتفرغ من مراجعة ذلك المجد الوضاح ، حتى اتصل بنا الصنع الذى غمر ما قبله ، وشرح مجمل السعد وأوضح سبله ، من أنـكم ملكتم مدينـة تلمسان ، فاستأثرتم بالسعد الهنى المعجـل ، ودخلتمـوها فى اليوم الأغر المُحَجَّل ، وحصلتم عليها من غير سلاح أعمل ، ولا حق أهمل ، ولا نفس برىء ريعت ، ولا حـرمة للدين أضيعت ، وان بناتها من المعاقل الشم الأنوف ، والمصانع السـافرة عن حواجب القسى المبتسمة عن ثغور السيوف ، والمعاقل التى تعد أهلة السماء من الاسورة وجوازها من السقوف ، رأت رأى أمها فى تعجيل الطاعة ، وحملت الأمر على الفـور بجهـد الاستطاعة ، وبادرت التوبة النصـوح قبل قيام تلك الساعة . فانتظمهـا سلك الأمر السعيد ، واتصل القريب منها بالبعيد ، واحتجت معتزلتها بانجاز الوعد واخلاف الوعيد، وكان لسابقتها حق المتكلم وللاحقها حق المعيد . فأقمنا فريضة الشكر والحمد لوقتها ، وتلونا فى بساط الاعتبار بالنعيم «وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها[1]». وقلنا : هذا هو النبأ الذى ارتقبنا طلوع البشائر من ثنايا قلاعه ، وأجزنا تلقى الركبان لرخصة استطلاعه ، هذا هو الصنع السنى ، والفتح الهنى ، والنصر المثنى والعز الممتنى ، نصر من الله وفتح (١٣ : ب) [2] قريب ، وتكييف لملك المغرب غريب . هذا هو السعد الذى لم يجر فى وهم ، هذا هو الذى أصاب قنيص النصر والفتح بسهم .

فتح تلمسان ، وما أدراك ما تلمسان ؟؟ قاعدة الملك ، وواسطة السلك ، وقلادة النحر ، وحاضرة البر والبحر ، أسندت الى الليل ظهرا ، وأفصحت بالفخر جهرا ، وأصبحت للغرب بابا ، ولركاب الحج ركابا ، ولسهام الآمال هدفا ، ولدور العلماء والصالحين صدفا . حسناء تسبى العقول بين التقنع والسفور ، والاطماع والنفور . شمخت بأنف الحصانة والاباية ، وتبجحت بوفور العمارة ودور الجباية ، ولبست حلة

---

(١) اقتباسا من قوله تعالى : « وما نريهم من آية الا هى أكبر من اختها ، واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » سورة الزخرف ، آية : ٤٨ .

(٢) اقتباسا من قوله تعـالى : « وأخرى تحبونها ، نصر من الله ، وفتح قـريب ، وبشر المؤمنين » سورة الصف ، آية : ١٣ .

الجناب الخصيب ، وفازت من الاعتدال وأوصاف الكمال بأوفى نصيب. فيالها من غادة كلما مرت عليها الايام استجد شبابها ! وأينع جنابها ! وضفا من الحسن جلبابها !! حتى كان عين أم يحيى سقتها من عين الحياة ، فنورها الدهر باهر الآيات ، ومحاسنها رائقة الغرر والشيات ، تخدع باللفظ الخلوب ، وتقلب على لظى الأشواق أفلاذ القلوب . حركت الملوك الصيد وسكنت ، فما بذلت من قيادها ولا أمكنت . ضاق بعبد المؤمن [1] طوقها فبعد لأى ما مزقه ، ورجع منها الى السعيد سهمه الذى فوقه [2]. ولم تزل أحوال محبيها من بعد ذلك مختلفة ، وقلوبهم بهواها كلفة ، فمنهم من حياها على البعد ، وقنع من وصلها (١٤ : أ) بالوعد ، واقتصر منها على الالمام ، واهداء السلام . ومنهم من جد به الجد وهى تسخر ، ولان لها القول منه وهى تنأى وتفخر ، ولم يجد متقدما عنها ولا متأخرا ، حتى غلب اليأس ، وخاب القياس . ومنهم من باع الكرى بالسهد ، ووجد مرارة الصبر أحلى من الشهد ، وبدل لها فى المجالة نثار رءوس الرجال ، وسجى عليها حتى بالأعمار والآجال ، وصاغ لها من الحفائر أمثال الدمالج والحجال ، ونازع الحرب حالى الغلاب والسجال . فالحيات يلوى ضلوعها الزفير ، والمجانيق يدمى أنوفها السجود والتعفير ، والجياد تشكو من باب جيادها الى غير راحم ، وتظمأ فتسقى من نجيع الملاحم . حتى أذعنت اذعان القهر ، ورضيت بما بذل لها من المهر ، وجاذب رداءها من أردى أوداها ، وأماط قناعها من غالب بالصبر امتناعها . ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأقام القدر برهانه . فراجعها من كان يهواها ، وأثبت فى الاكراه دعواها . بعد أن حصلت لها بمقامكم علاقة كامنة بين الضلوع ، ورسى بجوانحها رشيش هوى يجل عن الولوع . وتملكها به غرام ظاهر ومستكن ، ولسان حالها يتلو قوله : « الا من أكره وقلبه مطمئن » [3] ورب مغلوب سمح بالرغم قياده ، وان ملك ظاهره فلم يملك فؤاده . فلما علمت الآن من حبيبها الحقيق بقرب الدار ، وأدنى ركابه منها مساعف (١٤ : ب) المقدار ، همت وهامت ، وتطارحت وترامت ، وتهللت من بعد الاطراق ، وضحكت من أنس اللقاء كما بكت من ألم الفراق . أمكنت من وصالها عفوا ، وأوردت العذب من ظلالها صفوا ، وألقت اليد طوعا . وخير النعم ما لم يقع عن كد ، وأسنى المنح ما لم يجر فى حساب ولا وعد . فكأنها لقطة استحقها سيفكم من بعد التعريف ، ونقطة استدار عليها محيط ذلك الملك الشريف ، ونكرة أدخلت عليها أداة التعريف ، وقبلة عدلت من بعد التحريف،

---

(١) أحد ملوك الموحدين المشهورين ٥٤١هـ ، خرج مغيرا حتى فتح المغربين الأقصى والاوسط ، بعد حرب دامت سبع سنين ، وحيث قضى نهائيا على ملك المرابطين .

(٢) فوق السهم : سدده تجاه الهدف .

(٣) اقتباسا من قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم » سورة النحل ، آية : ١٠٦ .

ولفظة ردت الى الأصل الفصيح عند التصريف ، وما كان البلد الذى عدلت نصبة ملككم السعيد بمطالعه ، وافترت السعود على درجتى عاشره وطالعه ليكذبكم وعده ، ولا يخلفكم سعده ، فما برحت بروق السعادة تبدو فى خلال ما رمتموه ، والتوفيق يشد أواخى العزم الذى أبرمتموه ، والحركة ـ التى أزمعتم ـ تتضافر عليها الاسباب المتبركات، وتسبح على غروسها الزكية سحائب البركات، وتجد النفوس لها خفة وحركة الفتح أخف الحركات • فالحمد لله الذى جعل القياس صادقا ، والتوفيق مرافقا ، والنصر للنصل موافقا • والحمد لله الذى ألبسكم حلتها السيراء لم يوهنها طول المجاذبة والمحاورة ، ولا أخلقتها أيدى المساوقة والمساورة ، وخولكم وصلها لم يقدح فيه (١٥ : أ) ملل المحاورة ، وليهن مقامكم الذى أقال العثار ، وخلد الآثار ، وأخذ الثار • ما منحه الله من العز الصادق البرق ، والفتح الذى وصل يد الغرب بالشرق ؟ فقد جمع حسامكم الماضى المضرب ، من مدينتى تلمسان وفاس [1] بين عقيلتى المغرب ، الأولى منها الاصالة والمجادة ، وللثانية العلاقة والودادة ، وكلاهما الحسنى والزيادة ، فان فخرت هذه بنصبة الملك فخرت تلك بنصبة الولادة • وبشرى لهذا الخطر الغريب الذى يمد الى عزمات جهادكم يد الراغب ، ويرتقب ارتفاع الشواغل والشواغب ، بما استروحه من صرف الاستعداد الى أعدائه ، والاهطاع الى ندائه ، والشروع فى معالجة دائه • وان هنى بالاقطار من تملكها ، وأدار على قطب السياسة فلكها ، وجب

---

(١) فاس : حاضرة الأدارسة ، أسسها ادريس الثانى عام ٨٠٨م ، فهى أقدم العواصم الملكية بالمغرب ، تبعد عن الرباط العاصمة الحالية بمسافة مائتى كم ، وقد عاصر مؤسسها الأمير الأموى الحكم ابن هشام بالاندلس ، الذى نفى وشرد كثيرا من سكان الربض بعد الموافقة الشهيرة التى تغلب فيها على هؤلاء الربضيين الثائرين • (٢٠٢هـ = ٨١٧م) ، فلجأ هؤلاء الى فاس ، حيث استقبلهم ادريس الثانى ، وأنزلهم مدينة فاس ، فاجادوا بها الصناعات المختلفة ، حيث حملوا أروع مظاهر الحضارة الاندلسية ، وتجلى ذلك فى الأبنية الأندلسية ، البيضاء ذات الحدائق الداخلية فى افنيتها ، ومن ذلك سميت فاس « مدينة الأندلسيين » • أما « مدينة القرويين » فهى الضاحية التى عمرها سكان المغرب الأدنى الذين وفدوا من القيروان ، وحيث بنى بها جامع القرويين الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية الأندلسية ، وهو الآن من أقدم جامعات العالم ، يؤمها الطلاب من كل حدب وصوب • وقد تضاءل مركز فاس السياسى فى عهد كل من المرابطين والموحدين ، الذين اتخذوا من مراكش فى الجنوب عاصمة لهم ، حتى أتى بنو مرين فاتخذوا فاس عاصمة لهم • والى جوار فاس القديمة توجد فاس الجديدة ، التى بناها الامير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى عام ٦٧٤هـ = ١٢٧٥م ، وقد أطلقت عليها عدة أسماء كالمدينة البيضاء ، والبلد الجديد ، والمدينة الجديدة ، وبالجملة ففاس مدينة تجارية صناعية ثقافية حتى يومنا هذا ، ومن آثارها القديمة الى جانب القرويين مدرسة أبى عنان المرينى ، وساعتها الشمسية الغريبة ، ومدرسة العطارين ، ومدرسة المصباحية ، ومسجد الأندلس ، وزاوية ادريس الثانى ، مؤسس المدينة ، حيث يوجد بها ضريحه ، وكلها منشئات على الطابع الاسبانى العربى كأروع آثار فنية ما زالت تحتفظ بروائها • وتتصل مدينة فاس القديمة بفاس الجديدة عبر حدائق أبى الجنود الغناء ، وتعتبر أبواب مدينة فاس القديمة غريبة الشكل كباب الشاكمة ، وباب الدكاكين ، وباب السمارين • وتوجد قبور المرينيين على مرتفع يمكن منه رؤية المدينة فى سفح جميل أخاذ ، فى جوف صدفة الأسرار العتيقة •

راجع السلاوى : فى الاستقصاء ج ٢ ص ٢٢ ، وابن خلدون فى العبر ج ٧ ص ١٩٤ ، ١٩٥ • وليون الأفريقى فى كتابه (وصف أفريقيا) ص ١٢٢ ط ١٤٨٩ •

الهنى بالحق لقطر تملكتموه ، وملك قبضتم عنان أمره وأمسكتموه • فقد جعل الله مقامكم كعبة الآمال ، وجمع فيكم ما تفرق من أخلاق الكمال ، بارك لكم فى العطية من وهبها ، وراض لكم متن المطية من ذلك وأركبها •

وأننا لما استجلينا غرر هذه الفتوح الضاحكة المباسم ، والصنائع التى ألبست الأيام أثواب المواسم ، رأينا غاية الشكر بعيدة عن ادراك البيان ، وأن الايجار فيها والاسهاب سيان ، فلو طالبنا بهذه الوظيفة (١٥ : ب) [١] أبان لما أبان ، أو دعونا لها سحبان [٢] لكان فى ميدانها الجبان • ولو استعنا بعبد الحميد [٣] لم نجده فيها حميدا ،

---

(١) هو أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، من الشعراء السياسيين الموالى ، المتصرين للفرس على العرب فى مداراة • كان عابثا محبا للمال • تردد بين البرامكة والخلفاء ولا سيما الرشيد ، يمدحهم ويزاحم على ابوابهم أبا نواس ومروان بن أبى حفصة وسواهما • توفى عام ٣٠٠هـ •

ويمتاز شعره بالسهولة ، وان لم يكن ممتاز الفن والرواء • وله شعر تعليمى ، ينظم فيه الحكم والمسائل الدينية وسواها ، كنظمه كتاب « كليلة ودمنة » •

(٢) هو سحبان بن زفر بن اياد الوائلى ، من قبيلة وائل فرع من ربيعة ، خطيب مصقع ،ضربت به العرب المثل فى البلاغة والبيان • ولد فى الجاهلية ، ولما أن ظهر الاسلام أسلم ، ثم انتسب الى معاوية (خليفة المسلمين) ، وعليه اعتمد معاوية فى الملمات والمفاخرات ؛ لقوة عارضته وسرعة خاطره • روى ان معاوية أراد مقاطعته وهو يخطب ، فاشار اليه سحبان لا تقطع على كلامى ، ومع ذلك يقول له معاوية بعد انتهاء كلامه : أنت أخطب العرب ، ويرد سحبان : والعجم والجن والانس !!

وكان سحبان اذا خطب تصبب عرقا ، ومات فى خلافة معاوية عام ٥٤ هـ •

(٣) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد ، من أهل الشام ، وهو من موالى بنى عامر • وهو أول من أطال الرسائل ، ونظم مبتدياتها وختامها ، كل حسب الغرض ، كما اختط مواطن الاطالة والتقصير فى كتابة الرسائل بما كتب •

تخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه أبى العلاء سالم ، مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته ، واحد بلغاء العالم ، والنقلة عن اللغة اليونانية • وكان فى بداية حياته معلما للصبيان ، حتى فطن اليه مروان بن محمد حين ذهب الى أرمينية لاخماد فتنتها ، فلما نجح فى ذلك سجد ومن معه الا عبد الحميد ، فاستفسره ، فقال له عبد الحميد : ولم أسجد ؟ أعلى أنك كنت معنا فطرت عنا ؟ قال مروان : اذا تطير معى ، فقال : الآن طاب لى السجود ، وسجد ، فاتخذه مروان كاتبا لدولته ، وبقى معه ، حتى قتلا فى عام ١٣٢هـ ،على يد السفاح العباسى •

وبالاجمال فعبد الحميد هو الرائد الاول لكتاب الرسائل ، ذلك أنه أول من مهد سبيلها ، وميز فصولها ويعتبر مبتدىء هذا الفن بحق ، وبفضله ارتقت هذه الصناعة التى كانت من مهن الموالى ، حتى صارت بعده سلما للكاتب الى مرتبة ليس فوقها الا الخلافة •

وكانت لبلاغة عبد الحميد عمل السحر ، فى جذب النفوس واستمالتها ، حتى أن أبا مسلم الخراسانى حين هب بالدعوة العباسية كتب اليه عبد الحميد كتابا على لسان الخليفة ، فرفض الخراسانى قراءته وأحرقه ، وكتب على جذاذة منه الى مروان :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

أو نبهنا لها ابن العميد [1] لأضحى عميدا ، أو أردنا لبيدا [2] لانقلب بليدا . ولو أقمنا

---

(١) هو الاستاذ الرئيس كاتب المشرق ، ووزير عضد الدولة البويهي ، امام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الثالث ، وصاحب طريقة الشعر المنثور ، والتزام السجع مع الالمام بالمحسنات ، أبو الفضل ابن عبد الله بن الحسين ، يلقب بابن العميد ، فارسي الاصل من مدينة (قم) ، نشأ نشأة محوطة بالنعيم فقد كان أبوه كاتبا مترسلا بليغا ، على رأس ديوان الدويلة السامانية ببخارى أيام نوح بن نصر ، وأحسن الاب هذا تربية ابنه ، ورشحه للصناعة الادبية وهي صناعته ، وهيأه لمنزلته ، وكان لدى الابن الاستعداد الكافي لتلقي مثل ذلك ، فحذق علوم العرب والعجم ، ونبغ في العربية والفارسية ، وتضلع في آدابهما ، كما برز في فن الكتابة حتى اعتبروه في قمتها ، وقالوا : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ، ولقب بالاستاذ والرئيس ، ثم نبه شأنه ، حتى دعته اليها دولة آل بوية في الري ، فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ هـ ، وامتد به العمر في هذا السلطان قرابة ثلث قرن ، كان فيه محط الرحال ، وكعبة الآمال ؛ والممدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، الى أن توفي عام ٣٦٠هـ .

ويعتبر ابن العميد أول من فتح باب الرسائل البديعية ، متوخيا فيها السجع القصير الفقرات ، مقتبساً من القرآن الكريم والحديث الشريف والمثل السائر ، نائرا فيها أبيات الحكمة ، مؤثرا بعض الحلى اللفظي ، كالجناس والمطابقة ، حتى حاكاه في ذلك كله فحول معاصريه ، وان كان ـ فيما يبدو ـ أقلهم التزاما للسجع ، وأقربهم الى الطبع والسليقة الفطرية .

(٢) هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري . من بني عامر بن صعصعة ، احدى بطون هوازن من مضر ، أمه عبسية ، وهو شاعر مصقع وفارس معمر ، ورث عن أبيه الملقب بربيعة الجود ، وعن قبيلته التي انجبت عمه عامر بن مالك الاسنة الشجاعة والفتك . ولبيد شاعر مخضرم عاش في الجاهلية ، وأدرك الاسلام ، فأسلم . الا أنهم زعموا زعما أنه هجر الشعر في الاسلام ، ولم يقل سوى بيت واحد اختلفوا فيه ، مما يدل على كذب قضيتهم ، فقيل هو قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال آخرون هو :

الحمد لله اذ لم يأتني أجلي   حتى لبست من الاسلام سربالا

ولما أن بلغ المائة وعشرا قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس : كيف لبيد ؟
غلب العزاء وكان غيري مغلب   دهر طويل دائم ممدود
يوم اذا يأتي على وليلة   وكلاهما بعد الفناء يعود

وقيل : بل قال :

أليس في مائة قد عاشها رجل   وفي تكامل عشر بعدها عبر ؟

وغيره شعر كثير نسب اليه .

هذا ، وقد ورد في الصحيحين تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم لشعره ؛ اذ يروى عنه أنه قال: « ان أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد » :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم ـ لا محالة ـ زائل

كما يروى أن عمر بن الخطاب كان يأمر برواية قصيدة لبيد :

ان تقوى ربنا خير نفل   وباذن الله ديني وعجل

ويقال : انه قد حسن اسلامه ، وتنسك ، وحفظ القرآن كله .

وبعد الفتوح ذهب الى الكوفة أيام عمر ، ومكث بها الى أن مات سنة احدى وأربعين من الهجرة ، في أوائل خلافة معاوية ، وكان له من العمر مائة وثلاثون عاما .

كان لبيد لا يتكسب من شعره ، فعل الأشراف والفرسان ، وتدلنا على ذلك معلقته المشهورة ، بما تحويه من حديثه فخرا بنفسه ، وبالفتوة والنجدة والكرم ، كما أن معظم شعره يتضمن الكثير من ذلك .

وقد طبع شعره بطابع الجزالة اللفظية ، وفخامة العبارة ، ودقة المعاني ، الى شرف المقصد ، وقل أن تجد في شعره لغوا ، كما أن شعره انتظم الكثير من العقائد السماوية ، والحكمة الصادقة ، والموعظة الحسنة . ومن فنونه التي فاق فيها غيره في الجاهلية فن الرثاء ، يأتي فيه بأبلغ الحكم ، وأبدع الأمثال التي تذهب الحزن ، وتهون ألم المصاب .

لها الصاحب [1] لقعد ، أو كلفناها ابن هلال [2] لرآها من أبيه أبعد . انما هو عذر يبلغ ، واغضاء يسوغ .

ومن المعلوم ان أوداء ذلك المقام الكريم ان أخذوا من مسرته بحظ استأثرنا بجملتها ، أو تمسكوا منها بمذهب قمنا بملتها ، وان هنئوه بصنع قدمنا هناء أنفسنا به ، أو توسلوا بذمام حب سبقنا فى حلبة أحبابه . وان حديث نصره الى هذه البلاد الأندلسية عائد ، ومدد سعادته فى أقطار هذا القطر متزايد ، فكيف لا تتهلل وجوه أهليها ؟ وتبدو الكآبة على العدو الذى يليها ؟ وكيف لا ترتفع بالشكر أيديها ؟ ويقوم على هضبة الاستبشار مناديها ، بظهور من يكف أيدى أعاديها ، ويتكفل برى صاديها ؟ وأن نبأ هذا الفتح فى قلب العدو الكبير ، وعلى سمعة لأثقل من رضوى وثبير [3] . فمما لا يفتقر الى تمهيد وتقرير ، أن الجهاد لا يزال تجاه ذلك المقام الكريم ونصب عينه ، وأن الظهور على أعداء دين الله دين لحسامه ، وهو لا ينام عن اقتضائه دينه ، فما هم النفوس الكريمة الا اكتساب المناقب الفاخرة ، ولا بعد تحصيل الدنيا الا الفوز بالآخرة ، (١٦ : أ) ولا وراء تمهيد الأمة المسلمة الا قتال الأمة الكافرة . وأننا وجهنا كتابنا ليخطب فى هذا الهناء ، بمبلغ الجهد ووسع الفناء ، واخترنا للوفادة به من ينوب عنا فى هذا الغرض ، ويقوم للوقت بواجب المفترض ، وهم صدور ايالتنا ، ودرر لباب عمالتنا ، [4] فلان وفلان . وصل الله اعزازهم

---

(١) هو كافى الكفاة أبو القاسم اسماعيل بن عباد ، كاتب المشرق ، ووزير آل بويه وكاتبهم ، لقب بالصاحب لكثرة ما صاحب ابن العميد ، وعنه أخذ ادبه ، كما أخذه قبله عن أحمد بن فارس . وقد قال عنه الثعالبى فى اليتيمة : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والادب ، وجلالة الشان فى الجود والكرم ، وتفرده بالغايات فى المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر » . كانت وفاته سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، بمدينة الرى ، التى أغلقت أبوابها يوم وفاته . له مؤلفات كثيرة ، منها (المحيط) فى اللغة ، وكذا رسالته المسماة (الكشف عن مساوىء المتنبى) ؛ لان المتنبى أبى أن يمدحه ، مع أنه وزير ابن وزير ، كما مدح ابن العميد ، فحقد عليه الصاحب ، وألف فيه هذه الرسالة .

هذا ، ويعد الصاحب صنو ابن العميد ، غير أنه - وان كان أبلغ من سلك طريقته - قد أولع بالسجع والجناس .

(٢) هو عبد الله بن هلال الحميرى ، عاش زمن الحجاج ، كا صاحب شعبذة ونيرنجات يدعى ان ابليس يتراءى له ، ويصادقه ، ويكاتبه ، ويطلعه على أسراره ، ولذلك ذهب الناس على عهده الى أنه كان من « المخدومين » أى أنه اذا عزم على الشياطين والارواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، وله كتب فى هذا الميدان . ذكر الجاحظ فى « الحيوان » أن ابن هيثم زعم أنه رأى بالكوفة فتى من ولد عبد الله بن هلال الحميرى ، صديق ابليس وختنه ، وأنهم كانوا لا يشكون أن ابليس جده من قبل أمهاته .

هذا ، وفى عبارة ابن الخطيب « ابن هلال » تورية لطيفة ، بين الهلال ,الأب ، الهلال الكوكب . .

راجع : ابن النديم فى الفهرست ج ٨ ص ٣١٠ ، ج ٩ ص ٣١٠ ليبسك ١٨٧٢م ، والجاحظ فى الحيوان ج٦ ص ١٩٨ القاهرة ١٣٦٤ هـ ، وثمار القلوب ص ٥٧ .

(٣) رضوى : جبل بالمدينة ، وثبير : جبل بين مكة ومنى ، وحيث يمكن رؤيته من هذه الاخيرة ، وهو على يمين الداخل منها الى مكة .

(٤) عمالتنا : دولتنا ، وما زال اللفظ مستعملا فى دول شمال أفريقيا ، مرادا به اليوم «الاقليم» .

وكرامتهم ويمّن ظعنهم واقامتهم ، وأوفدناهم على بابكم المقصود ، وشرعة ملكم المزدحمة بالوفود ، وهم يلقون الى ودادكم فى تقرير ودادنا ، والتنبيه على مقدار اعتدادنا ، ما نعلم أن قواعده لكم غير مفتقرة للتقرير ، بما عندكم من اشراق البصيرة وشفوف الضمير • فتفضلوا بالقبول المعهود ، وأوردوهم من بركم أعذب الورود ، ومهدوا لهم جناب الاغضاء فيما قصروا فيه عن الغرض المقصود • والله تعالى يصل لكم أسباب السعود ، ويجعل عزمكم فى الجهاد صادق البروق والرعود ، ويبقى منكم على الأنام مثابة الجود ، وبحر الوجود ، والسلام •

الوثيقة الرابعة

رسالة من سلطان الأندلس يوسف الأول الى سلطان المغرب أبى عنان ، صحبة هدية للأخير ، فى مناسبة فتح تلمسان ، وقد حملها الى أبى عنان أحد مماليك أبى الحجاج ٠ والرسالة وردت غير مؤرخة ، بيد تاريخها يحتمل - تبعا للمناسبة - أن يكون أواخر عام ٧٥٢ هـ (ديسمبر ١٣٥٠ - يناير ١٣٥١ م) ٠

ومن ذلك كتاب السلطان(١) المذكور، فقره على حروف المعجم ، مصحبا بهدية على يدى مملوك السلطان أبى الحجاج المسمى غالبا ، وذلك بين يدى الحركة المذكورة الى تلمسان :

(١٦ : ب) : « المقام الذى طيب الأفواه ثناؤه ، وطرزت صحف الحمد أنباؤه ، وزينت بكواكب المفاخر والمناقب (التى يترك الاول والاخر منها) (٢) سماؤه ، وسما على اساس الملك الأصيل (والمجد الاثيل) (٣) بناؤه ، واشتهر اهتمامه بالمكارم واعتناؤه، (وتعددت مكارمه العميمه والاؤه (٤)) . مقام محل أخينا الذى بره محتوم الوجوب ، وحبه مرسوم فى أسرار القلوب ، وسعده كفيل للاسلام بنيل المطلوب ، ومآثره تشهد بها صفوف المحاريب ومصاف الحروب ، السلطان الكذا ابن ابن ابن (ابى عنان فارس بن ابى الحسن على بن عثمان بن عبد الحق المرينى (٥)) . ابقاه الله يمهد قواعد الملك الرفيع ويثبتها ، ويرغم كتائب الاعداء ويكبتها ، ويفرق جموع الكفر ويشتتها ، ويتقبل الاعمال الودية بقبول حسن وينبتها ، ولا زال معصوما بوقاية الله من كل حادث ، معصوبا منه حق الدين بأقرب وارث ، معززا منه قمر السماء بثالث . معظم مقامه الجارى من التعظيم له على منهاج ، الصادع بحجة التشيع فيه يوم تبارى الحجاج، المستند من تامله الى مقدمات مجد صادقة الانتاج ، المبتهج بما يسنيه الله من أسباب سعادته كل الابتهاج ، فلان (أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) .

أما بعد حمد الله الذى أطلع فى أفق الاسلام من أنوار ايالتكم المنصورة الأعلام صباحا ، وملأ بها العيون قرة والصدور انشراحا ، فجياد الآمال تزهى نشاطا ومراحا ، وأعطاف المكارم (١٧ : أ) تبدى اهتزازا وارتياحا ، والاسلام يستأنف عزا صراحا ، ويحمد مغدا فى ظل الامان ومراحا . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أطلع فى سماء الهدى بدرا لياحا ونورا وضاحا ، وكانت رسالته المؤيدة بالحق لأبواب السعادة الأبدية مفتاحا ، فبذكره تقرع أبواب الرغبات تيمنا واستنجاحا ، وبجاهه نتوسل استنوالا لرحمة الله واستمناحا ، وفى مرضاته نصل الوداد سدادا لأمته وصلاحا . والرضا عن آله وأصحابه الذين كانوا غيوثا كلما سئلوا سماحا ، وليوثا كلما شهدوا كفاحا ، الباذلين فى نصره أموالا وأرواحا ، المعملين فى مظاهرة أمره

---

(١) ثبت فى الريحانة أ ، ج .

(٢ و٣ و٤) ما بين الاقواس زيادات وجدناها بنسخ الريحانة أ ، ج .

(٥) راجع الرسالة الأولى من هذا الكتاب ، حيث يذكر ابن الخطيب نسب أبى عنان فى مقدمة الرسالة .

عرائم راضية ومناصل ماضية ورماحا ، حتى أدوا الينا سنته حسانا أحاديثها وصحاحا . والدعاء لمقامكم الاسمى بالنصر الذى يورى زنده فى العــدو اقتداحا ، والعـز الذى يضفى على الدين الحنيف جناحا ، والصنع الذى يعم البسيطة وهادا وهضابا وبطاحا ، ولا زال رايه (سديدا [1]) وعلمه منصورا وسيفه سفاحا ـ فانا كتبنـاه اليكم ـ كتب الله لكم عزا باذخا ، وسعدا ساميا شامخا ، وملكا راسيا راسخا ، من حمراء غرناطة ـ حرسها الله ـ وصنع الله باد ، ولطفه جل وعلا متماد ، والتشيع فى مقامكم (١٧:ب) العلى لا يحتاج مسلمه الى استشهاد ، ولا يفتقر حاصله الى اعادة ولا ترداد ، وجنابكم ـ بعد الله ـ هو المعتمد اذا اضطر الى اعانة جهاد أو التماس أرفاد .

والى هذا ـ عرفكم الله عوارف السعادة جملا وأفذاذا ، وكما جعلكم فى مهمات الدين ملاذا ، ومن وقع الخطوب عياذا ـ فقد علم وتقرر ، وتأكد وتحرر ، ووضح وضوح الصباح لمن ابصر ، ما عنـــدنا من الود الذى تالق نوره ، وثبت فى صحف الخلوص سطوره ، وخلصت من الشوائب بحوره ، وتحلت بجواهر الصفاء نحوره ، فهو ـ على الأيام ـ يخلص خلوص الابريز ، وتضفو حلله مونقة التطريز ، وتتحصن مضمراته من معاقل الاعتقاد الجميل بالمحل الحريز ، وتنتصب حقوقه الجمة للعيـان مع الأحيان على التميز . وكيف لا تحل كرائم صـــنائعكم من متبوأ الشـكر بالمحل المغبوط ، وتتلازم موجبات الثنـاء على ملـككم الرفيع البنـاء تلازم المشروطات مع الشروط ، وتختال مكارمكم من الاشادة بمتواليها ، والاذاعة لمقـــدمها وتاليها ، فى البرود [2] المذهبة والمروط [3] . وقد شمل هذه البلاد منكم الرعى واللحظ ، وكرم منكم فى امدادها وانجادها المعنى واللفظ ، وتوفر لها من اعتنائكم الكفل [4] والحظ [5] . وأننا بحسب هذا الاعتماد والاستمساك ، والود المستقيم الافلاك ، والولاء الذى (١٨:أ) يصدع نوره دياجى الاحلاك ـ نود أن لا يمر جزء من الزمان الا عن رسالة تعمل ، أو مخاطبة تتحمل ، أو مكاتبة تحشر فيها حروف الهجاء كهذه فلا تهمل ، أو وجه تعريف يستقبل ، واستطلاع لما يسنيه الله من مزيد عناية ترجى لكم وتؤمل . وان كنا لا نسوف الامكان بهذا الغرض الحرى بالتقديم ، ولا نغفل صلة الحديث بالقديم ، ولا نبرح عن التكميل له والتتميم ـ قد جعلنا ذلك شأنا ، واستشعرنا سرا واعلانا ،

---

(١) زيادة بنسخ الريحانة أ ، ج ، ساقطة ـ مع لزومها ـ من الكناسة .

(٢) البرود : ج بردة ، وهى كساء صغير مربع ، ويقال كساء أسود صغير .

(٣) ج : مرط بكسر فسكون ، وهو كساء من صوف أو خز يؤتزر به ، وتتلفع به المرأة . والجمع كحمل وحمول . كذا فى لسان العرب .

(٤) الكفل : بفتح الكاف وسكون الفاء ، القيام بالامر وضمانه ، وبضم الكاف وسكون الفاء أيضـا تحمل العبء عن الغير ، وكلاهما مراد . أما الكفل بوزن حمل فهو الضـعف من الأجر أو الاثم . والـكفل بفتحتين هو العجز . وهذان الأخيران غير مرادان هنا بداهة .

(٥) فى الريحانتين « الحفظ » ، ولعله أنسب .

وشغلنا به لساننا وجناننا ، فودنا على الاستكثار حريص ، وله مع المفهـوم تنصيص • وغرضنا لو تستنفد الاوقات فى فروض بِرٍّ تُقْضَى ، واغتنام ملاطفة تُرْضَى ، واستحثاث مراسلة تَنْفُذُ وتَمْضَى • ولأجل ذلك رأينا أن أوفدنا على بابكم من يجدد عهدنا بأنباء ذلك المقام السعيد المطالع ، الرفيع المصاعد (والمطالع [1]) ، وينتهى اليها عنه ـ ان شاء الله ـ قرة العيون وسرور المسامع ، ويشافهنا بما يتأكد قبـله من نعمة الله سائغة ، ومنة منه سابغة ، وموهبة بالغة • فنشاركه فى الشكر على فضـل الله المترادف ، ويسره البادى والعاكف[2] ، ونسأله له صلة ما عود من اللطائف ، ونرى أن ما ينشأ بتلك السماء[3] من غيث ففضله عائد على هـذه الآفاق ، وأن ما يرومه من تمهيد الأقطار وتأمين الرفاق ، (١٨ : ب) ذريعة الى الجهاد فيها وتخليد الأثر الباق • هيأ الله له من حلل العز ما يستأنف لباسه ، ومن مصانع الصنع ما يمهد أساسه ، ويبنى به قومه الكرام وناسه ، وأبقاه لفخر فاش ، وحمد يشى حلته واش ، وفضل لا يختلف عليه راكب فى الأرض ولا ماش • فبعثنا فى هذا مولى نعمتنا « غالبا » • وصل الله له ـ بالوجهة الى بابكم ـ أسباب الوجاهة ، وحفظ عليه لباس الحظوة والنباهة • وألقينا اليه فى هذا المعنى ما يجرى الى غايته القصوى ، وجلالكم الذى مآثره تروى ، ومكارمه تردها الهيم فتروى • يعلم أننا جعلنا بين يدى حركتكم السعيدة فالا ، فيوليه قبـولا واقبالا ، وينعم بالاصغاء اليه على عادته التى راقت جمالا وفاقت كمالا ، فسح الله فى (السعد [4]) مجالا ، وجعل له النصر منالا ، والسلام العاطر رياه ، الرائق محيـاه ، المعتمدة بالرحمة والبركة أسحاره وعشـاياه ، يخص مقـامه الذى كرمت خصائصه ومزاياه ، وطابت شمائله الزكية وسجاياه ، ورحمة الله وبركاته •

وفى مدرجه : يا محل أخينا ، وصل الله بقاءكم ، ووالى فى سماء السعد ارتقاءكم حملنا ادلال ملك الود مقادته ، وكفل الخلوص ابداءه واعادته ، أن وجهنا الى بابكم العلى (١٩ : أ) وصل الله اسعاده ، وفسح فى العز آماده ، وما جرت العادة أن يتفضل بقبوله من الفاكهة المعتادة ، اعتمادا على اغضاء تلك المجادة • ولما تعرفنا حركتكم التى تستقبلون بها ـ ان شاء الله ـ وجوه السعادة ، وجهنا معها ما أمكن من الدواب البغلية ، مما عسى أن يسعد بخدمة مثابتكم العلية ، على سبيل السمح وسنة الهدية • ولو وقع فى الهدايا الاعتبار ، ولُوحِظَت الأقدار ، لم يوجد فى الوجود ما يتعين لذلك المقام الكريم هدية ، ويسلك من مكافأة فضله سبيلا سَوِيَّة ، وان قصر العمل فما قصرت النية • (والسلام [5]) » •

(١) زيادة فى الريحانتين ، ساقطة من الكناسة •

(٢) البادى والعاكف : الظاهر والباطن ، من عكفت الشىء أعكفه : حبسته ، ومنه الاعتكاف وهو حبس النفس للعبادة •

(٣) يقصد « المملكة المرينية » •

(٤) فى الريحانتين « السعادة » وكلاهما بمعنى •

(٥) لم يرد ختام الرسالة بالتسليم فى الكناسة ، بينما ذكر فى نسخ الريحانتين هكذا •

الوثيقة الخامسة

رسالة من يوسف الأول الى أبى عنان فارس المرينى ، فى التهنئة بالانتصار الذى حققه هذا الأخير على الأمير أبى ثابت الزيانى صاحب بجاية . والرسالة غير مؤرخة ، بيد أن تاريخها يحتمل أن يكون فى أواسط عام ١٣٥٣ م .

ولما فر الأمير أبو ثابت الزعيم بالفل من بنى زيان(١) ، أثر الهزيمة الجارية عليهم ، ولحق بأرض صاحب بجاية(٢) فقبض عليهم، ووجه بهم الى السلطان الكبير الشهير أبى عنان، رحمه الله ، فاوقع بهم – تجاوز الله عنهم – وخاطب سلطان الأندلس السلطان المجاهد أبا الحجاج ابن نصر ، رحمه الله – بذلك ، صدرت المراجعة بما نصه (٣) :

« المقام الذى انتظمت لدولته الفتوح الغر انتظام العقود ، واقتضيت بغرماء عزماته ديون الأيام اقتضاء النقود ، وطلعت من ثنايا آرائه السديدة وجوه السعود ، وتكفلت نيته الصالحة له بنيل المقصود وانجاز الموعود • مقام محل أخينا الذى (١٩ : ب) أن نشدت (٤) الفتوح ألفيت فى الفاف بنوده وادعة ، أو دعيت الآمال كانت بوجوده طائعة سامعة ، أو استدعيت الأمانى انثالت(٥) فى أيدى سعوده وان كانت شاسعة فرياض العز به يانعة ، وكواكب السعد بآفاقه طالعة ، وأنفاس الثناء على ملكه الرفيع البناء بأعطر من المسك الفتيت ذائعة ، وحجج صوارمه قاطعة وبالحق المبين صادعة ، السلطان الكذا (أبو عنان فارس المرينى) • أبقاه الله مكملة مآرب أمره ، معملة أفعال عوامل نصره ، مخولا من الله ما يعجز اللسان عن حصره ، تثبت فى صحائف الصفائح آيات فخره ، ولا زالت عوامله مصرفة فى زيد عداه وعمره ، حتى تذعن الرقاب الغلب لقهره ، وتعرب الدهور بمزية دهره •

سلام كريم كما سفرت الفتوح عن غررها ، ورقمت أنباء النصر على صفحات السيوف وطررها ، واستبشرت الأرض بوابل مطرها ، وظفرت النفوس بأقصى وطرها، يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته •

أما بعد حمد الله الذى تمم لكم الصنايع تتميما ، وجلى لملككم العلى وجه السعادة

---

(١) انظر ص ٦٣ من هذا الكتاب ، هامش ٢ •

(٢) بكسر الباء وتخفيف الجيم : مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب ، اختطها الناصر بن عنان بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين عام ٤٥٧ هـ (منتصف القرن الحادى عشر الميلادى) ، وتسمى الناصرية ، نسبة الى مؤسسها ، كانت ميناء هاما للقوافل البحرية والتجارية • وهى اليوم احدى المدن الجزائرية المعروفة بسواحلها •

(٣) « نقل من الريحانة » هكذا وجدناها أمام الرسالة بمخطوطة الكناسة ، لوحة رقم ١٩ ، وفى الريحانة وجدناها بكل من أ ، ب ، ج •

(٤) نشدت : بالبناء للمجهول بمعنى طلبت •

(٥) انثالت : تتابعت ، فعلها ثيل بفتحات ثلاث •

أغر وسيما ، وأثبت لكم في صفحات الفخر ذكرا شهيرا ومجدا عظيما ، وجعل حد سيوفكم الماضية يستوعب العدو سبرا[1] وتقسيما ، فكلما طلبتم الأيام بديونها لم تمطل كفيلا بكم غريما ، وكلما دعوتم الآمال انثالت على (٢٠ : أ) مواردكم هيما ، (وكلما أصمرتم أمرا بعيدا أصبح ببالكم مقيما[2]) • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله أزكى البرية عنصرا وأشرفها خيما ، نبي الرحمة الذي جلا بنور الحق ليلا بهيما[3] ، ودعا الى توحيد الله نفوسا حارت في ظلمات الضلال تثليثا[4] وتجسيما[5] ، وأعمل الحرب العوان حتى سلكت الخلائق من الطاعة لله ورسوله مسلكا قويما ، ووقفت عند أوامر الله ونواهيه تحليلا وتحريما • والرضا عن آله الذين كانوا في الظلماء نجوما وفي اللأواء[6] غيوما ، وفي الهياج أجلا محتوما ، ففرعوا السحاب جودا والآساد اقداما والبدور ضياء والهضاب حلوما ، صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليما • والدعاء لمقامكم الأسمى بالعز الذي لا يزال لركابه العلى لزيما ، والسعد الذي تغني عن الاختيار أسبابه ، وتفتح قبل الطالب أبوابه ، فلا يحتاج تعديلا ولا تقويما ، والصنع الذي يروق أولياء مقامكم الرفيع خصوصا وسائر المسلمين عموما ، ولا زال جنابكم المؤمل كهفا والثناء عليه رقيما ، حتى يصبح الكفر بهبوب عزائمكم هشيما ، ويستنشق الاسلام من اباحة الكرة له على يديكم روحا عاطرا ونسيما • فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم من مواهب عنايته أوفر ما كتب ، وجعل سعودكم تضمن أعتاب الدهر كلما عتب ، وأقلام رماحكم يثبت في خط خطها النصر الداخلة على العتب ، (٢٠ : ب) وخطباء فتوحكم تترقى من منابر العز أعلا الرتب — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، والاعتداد بمقامكم العلى يزيد صبحه وضوحا ، والأمل في ملككم الفارسي يهز منه نسيم هذه الأنباء غصنا مروحا ، وخافت[7] الرجاء في هذه الأرجاء تنفخ فيه عزائمكم على جهاد الأعداء روحا ، وتتلو عليه من النصر كتابا مشروحا •

والى هذا — أيد الله أمركم الرفيع تأييدا ، وألهمه شكرا لا يعدم معه مزيدا ،

---

(١) من سبرت الجرح : أى تعرفت عمقه ، والفعل من باب نصل .

(٢) زيادة ثابتة في نسخ الريحانة الثلاث ، ساقطة من الكناسة .

(٣) شديد الظلام .

(٤) يقصد بالتثليث النصارى الذين يعتقدون الألوهية في « الأب والابن والروح القدس » على ما هو معلوم .

(٥) يطلق المعتزل لفظ « المجسمة » على من يشبهون الذات الالهية تشبيها ماديا ، مستدلين — في زعمهم — بالآيات التي توهم ظاهرا ما يذهبون اليه ، كقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، وقوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » .

(٦) اللأواء : شدة القيظ .

(٧) في نسخ الريحانة الثلاث « وحافات » وهو أصوب ، ولعلها هنا « خافت » بالتاء حتى يستقيم المعنى المراد ، وهو « الرجاء الضعيف » .

وجعل سيفه الماضي كلما تقلده لأبواب الفتوح اقليدا ، حتى يستأنف به الاسلام عزا جديدا ، ويبلغ جيدا ، ويملأ بلاد التثليث توحيدا ، ويذيق الكافرين بأسا شديدا ، ويريهم الفتح (المبين [1]) قريبا وان كانوا يرونه بعيدا [2] ـ فاننا ورد علينا كتابكم المستوفى الفصول ، والمحكم الفروع والأصول ، المشتمل على محصول الفخر وفخر المحصول ، المسند خبر النصر الى قضاة النصول • فيالها من وجوه بشر جلتها البلاغة في أحسن الشارات !! ومعاني فتوح أوردها البيان بأفصح العبارات !! وعيـون نصر أفادتها الآداب أجلى الاشارات !! حتى كانت الأقلام في خدمة مقامكم السعيد ، جرت مجرى السيوف في استصـحاب التأييد ، واحـراز المرام البعيـد • وقفنا من مضمنه ـ حسبما قررتم ـ على خلوص الطاعة ، والتئام الجماعة ، واسـتقرار الحق في أهله بعد الخصام ، وتسويغ مشـارع (٢١ : أ) الشريعة لوارديهـا من بعـد الازدحام ، وانطلاق السنة العدل بعـد الافحام ، والحاق طـرر البـلاد القصية [3] بأصل العمالة المرينية [4] بعد الاضراب والاقحام •

وان عدوكم أجهز القدر على جريحه ، ونشأت رياح البشائر بخمود ريحه ، وأعقبه الحسام الصلت [5] فلم يفرق بين طـرفه ولا صريحه ، فأصبح الشرق لنور دعوتكم مشرقا ، وأساغ ريقه وكان به شرقا ، واشتمل ملاة الأمن وكان خائفا فرقا ، وغدا مزاج السياسة المرينية لارتفاع ضدها مزاجا متفقا ، وأنشدها لسان السعد فأشرب هنيئا هنيئا عليك التاج مرتفقا • وأن هذه الوقيعة المستأصلة كانت لمرض الخلاف المزمن بُحْرانا ، وحكما يتبع من حلول النصر بدرجة النصل قرانا ، وفتوى رضى أشـهب الحسام اختيارها ، وكتبت أقلام الرماح في صحف الأيام آثارها • فقلنا هذا أمر لنـا جله أو كله ، ومزن لنا طَلّه وو َبْلُه • الآن ارتفعت عن الجهاد الشواغل والشواغب، وآن أن يحظى بأمله الراغب • الآن تهللت الوجوه ، واستشرف الدين الحنيف لمـا لم يزل يرجوه ، كأننا بالعـــزائم لأداء حق الله مصروفة ، والصـوارم على سـبيل الجهاد موقوفة ، والهمم بأن تكون كلمة الله هي العليا مشغوفة • ومن عامل الله في نصر هذه الأقطار المسلمة مع اختلاف الكلمة فما جمع بين الكرى والأجفان ، ومهد (٢١ : ب) القواعد بعد الرجفان ، وأمسك حبلها العاصم عند فيض الطوفان • كيف يكون عمـله بعد ارتفاع الموانع وزوالها ، وسكون البلاد من أهوالها ؟ قياس ـ بمشيئة الله ـ صادق، وبرهان بين الشك واليقين فارق •

---

(١) زيادة في نسخ الريحانة الثلاث .

(٢) اقتباساً من قوله تعالى : « انهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا » سورة المعارج ، آية ٦ ، ٧ •

(٣) يرمي بالبلاد القصية تلمسان وما جاورها من ملك بني زيان المهزومين •

(٤) العمالة المرينية : الدولة المرينية ، وعاصمتها « فاس » •

(٥) الحسام الصلت : القاطع البتار •

فهذه الجزيرة الأندلسية من عامل الله فى نصرها ـ بنية صالحة ـ ظهر ربحه ـ وطلع بالسعادة صبحه ، وقد ظهر مجمل ذلك بما يطول شرحه ؛ فانكم لما صدق فيها عزمكم لم تسلوا سيفا فنبا عن ضريبه ، ولا أعملتم عزما الا بلغ غايته غريبه ، ولا سددتم سهما الا أصاب غرضا بعيدا ، ولا أدرتم رأيا الا أثمر مراما سعيدا . وأننا أخذنا من السرور بتمام نعمة الله عليكم ، واستقرار فذلكة الفتح[1] لديكم ، بأقصى ما يأخذه الولى الحميم ، ولهجنا من اتصال سعدكم بما سناه الصنع الكريم ، ووجهنا من ينوب عنا فى هنائكم به بما يوجبه الود الصميم ، وهو قريبنا الكذا أبو فلان ، وألقينا اليه فى هذا الغرض ما يلقيه ، وينصه عليكم وأنتم تتفضلون بقبول ما يلقيه ، والاصغاء لما يؤديه . والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام » .

---

(١) فذلكه الفتح : مستهله وبدايته .

الوثيقة السادسة

رسالة من السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ملك غرناطة ، الى معاصره السلطان أبى عنان فارس المرينى ملك المغرب ، يغتبط فيها الأول للانتصارات المرينية بشمال أفريقية على الولايات التى ثارت ضد أبى عنان ، ثم تمكن من اخضاعها لحكمه مؤخرا. وقد وردت هذه الرسالة غير مؤرخة، بيد أن تاريخها يحتمل أن يكون أواخر ١٣٥١ م .

ثم ورد كتاب آخر (١) يشرح الكائنة (٢) ، قطع الرسول به البحر (٣) من جهة البلاد الشرقية ، فكتب في جوابه ما نصه :

« المقام الذى أكواس أنباء فتوحه على غبوق الزمان وصبوحه تدور دراكا ، وكفلاء (٢٢ : أ) سعوده توسع آماله القصية لحاقا بغايتها وادراكا ، وأيدى القدر فى حالى الورد والصدر تعلق أعداءه أشراكا ، وحدود صوارمه تأبى فصولها المميزة أن تدع فى أمره اشتراكا ، وعناية الله تصحب ركابه ، وتحف جنابه كلما رام سكونا أو أعمل حراكا . مقام محل أخينا الذى أخبار نصره لا تمل على الاعادة ، وآثار فخره مسطرة فى أوراق السعادة ، وآية صنع الله له خارقة حجاب العادة ، ونيته الصالحة الخالصة لله ضامنة له بلوغ الارادة . أبقاه الله يمهد قواعد الملك الأصيل فلا يعارضها فَرْق ، ويستخلص ديونه فلا يتعذر عليه منها حق ، ويشيم[٤] بوارق النصر العزيز فلا يخلف منها برق ، ويقتحم الأهوال وصدره رحب ووجهه طلق ، فكلما عرضت غاية بر كان له سبق . معظم مقامه الذى استوجب التعظيم بكل اعتبار ، ومقابل ملكه بكل اجلال واكبار ، المثنى على مكارمه التى جيادها للغايات ذات ابتدار ، وديمها فى انهمار ، فلان (أبو عنان فارس المرينى) .

سلام كريم ، طيب بر عميم ، كما حيا نسيم الصباح بطيب هبته ، ورفعت راية النهار على هضبته ، يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى طوقنا مواهبه العميقة تطويقا ، وأوضحت لنا هدايته من الشكر طريقا ، الذى جعل عزمكم للنجح رفيقا ، ولم يعدم آراءكم السديدة توفيقا ، (٢٢ : ب) وشفى بسيوفكم عليل ذلك القطر فأصبح بعد الاشفاء مفيقا ، وورد الى عصمة ملككم عقائل تلك الأقطار وقد سامتها الفتنة مفارقة وتطليقا ، فاجتلت بكم وجه السعادة طليقا ، وآوت الى الظل الذى جعله الله باجتماع كلمة الخلق[٥] خليقا . والصلاة (والسلام) على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أطلع نور الرسالة والهداية

---

(١) لم يذكر أمام الرسالة أنها وردت فى الريحانة ، وان كنا قد وجدناها فى كل من أ ، ج .

(٢) يعنى بها الأهوال التى قاساها أبو عنان فى اخضاع المناطق الشرقية فى بجاية وافريقية لحكمه ، كما كانت على عهد أبيه .

(٣) الأبيض المتوسط .

(٤) يشيم : يعلم ، يقصد أن أبا عنان ذو دراية بمظان النصر ومواطنه .

(٥) فى نسخ الريحانة أ ، ج « الحق » بدل « الخلق » .

فأرشد ضالا وأنقذ غريقا ، وسام كلمة الكفر طمسا وسبب الفرقة تمزيقا ، الذى تعتلق من جاهه عند انبتات الأسباب سببا وثيقا ، ونقصد منه يوم الفزع الأكبر ملجأ بالفوز حقيقا ، ونؤم منه فى الدنيا والآخرة شفيعا شفيقا • والرضا عن آله وأصحابه الذين اختارهم له حزبا وفريقا ، فصدقوا ما جاء به عن الله تصديقا ، ونصروا دعوته حتى بلغت مراد الله منها تغريبا فى الأرض وتشريقا • والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذى يستعذب منه منسم النصل [1] ريقا ، والصنع الذى يبدى روض العناية الالهية أنيقا ، فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم نصرا يطبق مفاصل الآمال تطبيقا ، وسعدا يفوق سهامه [2] الى أغراضها تفويقا ، وعزا يوسع فصول التمهيد والتخليد تثبيتا فى الأرض وتحقيقا ـ من حمراء غرناطة ـ حرسها الله ـ وليس بفضل الله سبحانه الا الارتياح الى البشاير المثناة ، والأنس بلقاء المآمل المتمناة ، والكلف بوجوه الفتوح (٢٣ : ١) المجتلاة ، والترحيب بالأنباء التى تفلى الينا نواصى الفلاة [3] ، وتركب متون السفن تجرى فى أعنة الرياح المرسلات • ونحن ـ على ما تعلمون من الود الذى استقرت أركانه وشهر مكانه ، ونمحض الى جهة الوجوب امكانه ـ نعتد بملككم الذى ترفع شأنه ، ونؤمل من ظهوركم على أعداء الله يوما يرتقب زمانه ، ونثنى عليكم ثناء الروض باكره من القطر هتانه •

والى هذا ـ وصل الله سعدكم ، وبلغكم من فضله قصدكم ـ فانا ورد علينا كتابكم الذى ظفر التعريف بالظفر وأكده ، وعضد اخاه وأيده ، مركب ظهر الثبج [4] خائضا لجته ، ويصدع أحشاءه مستهديا محجته ، فاستجلينا غرة البيان الحر ، وقلنا : عادة البحر أن يقذف بالدر • أى كتاب وسعه الخطاب الفصل ووشاه ، وزائر لا يبعد الله ممشاه • جددنا العهد بسماع فصوله ، والشكر لصلته وموصوله ، وروينا حديث النصر متفقا على اختلاف الطرق ، وقابلنا منه نسخة الغرب بنسخة الشرق ، وقلنا : هذا أصل أبى بحر [5] والى مثله ترد النسخ العتيقة ، وبه تحصل الثقة الوثيقة • وأثنينا على مجادتكم التى لم تقتصر فى تعريفنا على خبر واحد ، ولا وثقت فيه بأول وافد ؟ حذرا مما يعترض برد الرسائل من غوائل الطرق وطرق الغوائل ، فثابرت على

---

(١) طرف السلاح المقوس ، والمنسم فى الأصل مثل مسجد : قيل باطن الخف ، وقيل هو للبعير كالسنبك للفرس ، كذا فى القاموس •

(٢) فوق السهم تفويقا : جعل له فوقا ، واذا وضعت السهم فى الوتر لترمى به قلت أفقته افاقة • والمقصود فى عبارة المتن : انه ذو حظ وافر اذا ما أراد اصابة الغرض •

(٣) المعنى : أن انباء النصر تخترق الصحارى •

(٤) ظهر الثبج : سطح البحر •

(٥) ابو بحر ، محدث راوية من بنى أسد ، شهر بالرواية الأصيلة ، والخبر الموثوق به حكى عنه ابن عيينة ، كذا فى اللسان •

تحصيل هذا الغرض حتى حصل ، وصحب كل واحد منهما خير سعدكم فسام ووصل. (٢٣ : ب) فتقرر ما سناه الله لملككم من اعتزاز لملكه ، وتورط عدوكم فى هفوة الردى ومهواة الهلكة ، والفتح الذى قام بحساب الفتوح مقام الفذلكة ، وان من ناوا لم لما تناولت عزماتكم طرده وعكسه ، ونازعته خصما سيوفكم نفسه ، وجرت عليه جيوشكم الجرارة اذيال الهزائم ، وأذكت عليه سعودكم عيون الزمن النائم ، فمروا وعقبان الخيل فى أعقابهم ، وعيون النجوم تاخذ المراقب فى ارتقابهم ، وراموا التنكر فعرفوا ، واستظهر عليهم سعدكم بالعدل والعلمية فصرفوا ، وقد وكلهم الندم بعض الاباهم ، وعوضهم القهر من امتطاء الذمم الأداهم ، وأصبحت البلاد قد سكن هائجها ، ومقدمات العزم قد صدقت نتائجها ، والكلمة قد اجتمعت ، وأحكام الخلاف قد ارتفعت، وأدوية السياسة نجعت ونفعت .

وقد كنا لأول ورود هذا الخبر أعطيناه حقه من السرور بمقدمه ، وعينا رسولنا الذى أوفدناه على بابكم الكريم لتقرير ذممه ، والقاء ما يسع فى استيفائه عادة مجده وكرمه . ونحن الآن نعيد هناءكم ، ونذيع على هذه المحافظة ثناءكم . وان ذهبنا الى تقرير ما عندنا من السرور بسروركم ، والابتهاج بانتظام أموركم ، رمنا تحصيل حاصل ، واجتهاد وادع واصل ؛ فجميع ما ينالكم من عز النصر وعلو الأمر نصيبنا الأوفر فيه ، وحظنا منه الحظ الذى لا يرجحه (٢٤ : أ) غيره ولا يوازيه ، وعائدته على قطرنا [١] بما يكبت طرائف أعاديه ، ويسكب بالامداد غيوث عواديه . فثقوا منا بالتشيع الضافية أثوابه ، والخلوص المفتحة أبوابه ، الله تعالى يعلى ملككم الوثيقة أسبابه ، ويؤيده حتى تمضى فى جهاد أعداء الله عصابه ، والسلام (الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته [٢] ») .

---

(١) الأندلس (مملكة غرناطة النصرية) .

(٢) ما بين القوسين زيادة ساقطة من الكناسة ، واردة بنسخ الريحانة أ ، ج .

الوثيقة السابعة

رسالة من السلطان أبى الحجاج يوسف الأول الى السلطان أبى عنان فارس ، فى شأن التنويه باستيلاء هذا الأخير على مدينة بجاية ، ثم ما كان من خضوعها له فى نهاية الأمر . والرسالة مؤرخة ١٢ ربيع الأول ٧٥٤ هـ الموافق ١٧ مارس ١٣٥٣ م .

واستولى رحمه الله – (١) على مدينة بجاية (٢)، ثم ثار بعض كبار وطنها بقائده وقتلوه، وامتنعت عنه، واستدرك أهلها بعد ذلك الامر، فتغلبوا عليه، ورجعت دعوته اليه، ووصل كتابه يعرف بذلك فى أوائل ربيع الاول من عام أربعة وخمسين وسبعمائة (٣) (فصدرت منى مراجعه عن سلطان فجر الأندلس ابى الحجاج بن نصر – رحمه الله – بما نصه (٤)):

« المقام الذى أشرقت بافقه الاعلى نجوم الفتوح، وجرت جياد سعوده فى ميدان النصر العزيز طلق الجموح، وجاءت دولته الفارسية على ايضاح السعد بأحسن الشروح، وتأود الدائل ارتياحا بعزه تأود الغصن المروح • مقام محل أخينا الذى حديد سيفه بينه وبين مغناطيس الفتوح خاصية عجيبة، وغريم سعده له فى أعماق الليالى والأيام وجيبة، ومنادى طاعته اذا دعا كانت له المسالك قريبة والممالك مجيبة، السلطان الجليل، الرفيع، الشهير، الأسعد، الأوحد، الأمجد، الأطهر، الأظهر، الأحفل، الأكمل، الاعز، الأمنع، المجاهد، الأمضى، المؤيد، المعان، المنصور، الأعلى، جواد الأجواد، أسد الاساد، السعيد الدولة، العظيم (٢٤ : ب) الصولة، المعظم، الموقر، المبجل، المؤمل، أمير المؤمنين أبى عنان، بن محل والدنا السلطان، الجليل، الرفيع، الكبير، الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحد، الأسمى، الفاضل، العادل، المجاهد، الأمضى، المعظم، الأعلى، صاحب الجهاد المبرور، والسعى المشكور، المقدس الأرضى، أمير المسلمين أبى الحسن، بن السلطان الجليل، الرفيع، الكبير، الشهير، الطاهر، الظاهر، الماجد، الحافل، الجواد، الباذل، المعظم، الموقر، المجاهد، الأرضى، صاحب الرفد المبذول، والثناء الموصول، أمير المسلمين أبى سعيد، ابن السلطان الجليل، الكبير، الأوحد، الأطهر، الأسعد، الأظهر، (الأسد (٥))، الأمجد، العادل، الفاضل، الصالح، المجاهد، المرابط، الأرضى، صاحب الحرب والمحراب، أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين، المقدس الأرضى أبى يوسف ابن عبد الحق، أبقاه الله، والمحامد بذكره كلفة، والقلوب على طاعته مؤتلفة،

---

(١) يعنى السلطان أبا عنان فارس المرينى كما سيرد فى مقدمة الرسالة •

(٢) انظر ص ٧٨ •

(٣) الموافق (١٧ مارس ١٣٥٣ م) •

(٤) زيادة ساقطة من « الكناسة » ولكن وجدناها بنسخ الريحانة أ، ج، وان لم يثبت أمام الرسالة أنها مثبوتة بالريحانة •

(٥) زيادة أيضا بنسخ الريحانة أ، ج •

والسيوف والأقلام بخدمته متصفة ، والألسنة في الاقرار بعجزها عما يجب له منصفة. معظم مقامه الذى تعظيمه فـرض لازم ، والقول باجـلاله واكباره قول جازم ، وموقر ملكه الذى له التـوقير محالف ملازم ، الأمير عبـد الله يوسـف ، بن أمير المسـلمين اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر •

سلام كريم ، طيب بر عميم ، كما زحفت للصباح شهب المواكب ، (٢٥ : أ) وفجر الفجر نهر النهار فطفا فوقه حباب الكواكب ، يخص مقامكم الاعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته •

أما بعد حمد الله الذى الاؤه العميمة لا يحصر عـددها ، وصـنائعه الكريمـة لا ينقطع ـ عمن توكل عليه ـ مددها ، وفتوحاته لاوليائه وصفوة خلفائه لا يبـلغ بالافهام امدها ، الفتاح العليم ناصر العزائم ومؤيدها ، وموفق الاراء ومسددها ، الذى اذا قرب مسافة أمل فمن ذا يبعدها ، واذا أعطى فمن ذا يسوف عطاياه أو يرددها • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى المعجزات التى هى الشمس ضـل من ينكرها أو يجحدها ، امام الرسل الكرام وسيدها ، وأحمدها ومحمدها ، وخاتم النبيين الذى كمل به عددها ، وشفيع الخلائق يوم الفـزع الاكبر ومعتمـدها ، الذى ندخر محبته ونجدها ، ونلجأ الى ظلال وسيلته فلا يخلفنا ـ ان شاء الله ـ موعدها ، ونمحض الود فى مرضاته ونصل اليد لاقامة سنته ومفترضاته فنتعرف الاعانة ونتعودها • والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه الذين هم كنوز الملة السمحة وعددها ، وأنجمها التى لا يضل من يسترشدها ، فبنصرهم طالت يدها واستقام أودها ، حتى أورثهم الله ما زوى له من الأرض بالعزائم القائمة على أساس اليقين عمدها ، فدان لهم أدنى الممالك وأبعدها ، وسطا بمثلث الأمم موحـدها ، وتمت كلمة الله صـدقا وعـدلا (٢٥ : ب) يتوارثها عن الآباء ولدها ، وينافس فيها اليوم غدها • والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذى يثبت آيات الفخر ويخلدها ، والسعد الذى يصون ملابس العز ويجددها ، ولا زالت حجج سيوفكم المالكية يصيب شاكلة الحق من يتقلدها ، وأدوية سياستكم المرضية يشفى العليل مركبها ومفردها ، ومشارع جودكم العميم تروى من يردها ـ فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم عناية يتضح مقصدها ، وسعادة تروى أحاديث الصنع الجميـل وتسندها ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زايد بفضل الله سبحانه ، ثم بمـا عندنا من التشيع فى مقامكم ـ أعلى الله سلطانه ـ الا الخير الذى سحائبه ثرة ، والصنع الجميل الذى مباسمه ضاحكة مفترة ، والأنباء التى لا تعدم معها مسرة ، والصنائع التى ألطافها بالاسلام برة ، وجانبكم عندنا عليه ـ بعد الله ـ المعول ، والاخلاص لكم هـو لدينه المعقول الأول ، وما يفتح الله لكم من منحه الكريمة هو عندنا المنح المهنأ المخول•

والى هذا – ايد الله امركم ، واعز نصركم – فاننا لا نزال على ثقه من عنايه الله بكم فى كل وجه ترمون الى هدفه ، وتطلعون كواكب رايكم الميمون فى سدفه ؛ لما نعلمه من سعدكم الذى يروض الصعاب اذا رامها ، وعزمكم الذى يتناول الامور المبرمة فيحل ابرامها ، ويسهل مرامها ، وهمتكم التى تروم (٢٦ : ا) الكواكب فتزاحم اجرامها ، ونعتقد ان الذى سدد من عزمكم السهام فاصابت ، وخيئة السحاب السجام فصابت ، انما هو ثمرة نيه خلصت لله لم يشب صفوها شائب ، وخيئة صالحة للمسلمين تستوى فيها حاضر منها وغائب •

وكنا قد اتصل بنا ان مقامكم خطب مدينة بجاية فالقت المقاد ، وراجعت الاعتقاد ، وان من كان لنظره امرها لما تلى عليه « ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها » – اذعن للحق وانقاد • ثم تخللت المراوضه امور ، وحدث فى اثناء الوصل نفور ، ولحق – من بعد الاحتجاب – سفور ، ولله فى كل شيء قدر مقدور • فجعلنا نرتقب لتلك الحال ما لا يحمد ، وعاقبة يسر بها ذلك المقام الاسعد ، فكلما اختلفت الاحاديث نظرنا فى رجالها وطرقها ، ورمنا الجمع بين متعارضها ومفترقها ، واستعملنا ميزان التعديل والترجيح ، لتخليص السقيم من الصحيح • فلما ورد رسولنا من بابكم وقد عنى بكشف المشكل ، وتقييد المهمل ، ووفى يحمل المعنعن[1] والمسلسل ، وعرفنا بالفتح الذى تشمخ به الانوف ، وتبسم لمسرته السيوف ، وترتاح لعزه الجياد الجرد ، ويتاود لذكره الرماح الملد • فتح بجاية – حرسها الله – وما بجاية الا باب الشرق ، وذات الأصالة بواجب الحق ، ومن لها فى ميدان افتخار البلدان قصب السبق ، العتيقة البنا ، السامية المبنا ، الأنيقة البقعة ، الخصيلة الرفعة ، ذات البسالة على طول المدة ، (٢٦ : ب) ومعقل الملوك عند الشدة • أزرت على القواعد بزيرها ومنادها[2] ، وباءت بباديسها وحمادها[3] ، وصابرت الأزمات على اتصال آمادها ، فهى العقيلة التى أشرفت

---

(١) الذى يروى من الاحاديث عن فلان عن فلان ، وهكذا فى تسلسل •

(٢) يشير الى زيرى بن مند من بنى حماد أصحاب بجاية •

(٣) يشير الى مملكة بنى حماد ، مؤسسها واول ملوكها حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد الحميرى الصنهاجى من أمراء بنى زيرى بتونس والجزائر ، وهو أخو المنصور صاحب افريقية ، وكان لبنى مناد هؤلاء جاه قديم فى أفريقية قبل أن تأتى دولة الفاطميين فى المهدية ، واستعان بهم بنو عبيد حين استتب لهم الحكم فى تلك البلاد ، فلما هم المعز لدين الله العبيدى « الفاطمى » أن يتوجه الى مصر – حين اتخذها قاعدة لملكه بعد انهيار الدولة الاخشيديه بها – استخلف على أفريقية بلكين بن زيرى ، فكان له الحكم فى تلك البلاد الى أن مات عام ٣٧٣هـ ، وكانت تبعيته للفاطميين فى القاهرة تبعية اسميه •

ثم تقلد السلطة فى البلاد من بعده المنصور بن بلكين ، فنهض بالامر ، وانتشر أمره ، الى ان توفى سنة ٣٨٦ هـ •

وخلفه على عرش أفريقية ولده باديس ، ولما كان له حق اختيار العمال والولاة فى البلاد الخاضعة لحكمه فقد دفع الى عمه « حماد بن بلكين » بمنطقة « اشير » ، فاسس بها حماد قلعته المعروفة عام ٣٨٦هـ =

يوم الافتخار بأسمى تليل ، وسفرت للأبصار عن كل مرأى جميل ، وقعدت على منصة التشريف والتفضيل ، وضمن عليل نسيمها شفاء العليل ، وتختمت بالثريا وتعصبت بالاكليل ، وزرت برفيعها وبديعها على الفرات والنيل • دار الجياد المجنوبة ، والأساطيل المرهوبة ، ومرفأ السفن ومحط الركاب ، وملتقى جوابى البيداء وخائضى العباب • تهوى اليها أجنحة شارعة ، وتبتدرها قوافل السفن متسارعة ، ما بين مخبرة عن مدينة الاسكندر ، ومطرفة بأنباء روما بنى الأصفر ، وصادرة عن السواحل العكية ، ومحدثة بغرائب التركية ، وشاكية اليم والكرب ، ناجية من ظلمة أقابس الغرب • ألقت اليد الى طاعتكم على شهرة ابائها وشماسها ، ومنعة وضعها وشهامة ناسها ، لما علمت أن مغالب الحق مغلوب ، ومحارب القدرة الالهية محروب ، وحرون اللجاج مقود مجنوب ، ومكابر البرهان الى الجهل منسوب ، فصانتها أصالة رأيها فى الطاعة

وأسس بها ملكا به كثير من مظاهر الاستقلال ، وان كان قد أقر بالولاء لابن أخيه بالقيروان والمهدية وتونس •

« ومنذ الوقت الذى أنشئت فيه تلك القلعة صار بنو مناد فرقتين : بنو حماد بقلعتهم ، وبنو باديس بالقيروان والمهدية » • وقد توفى باديس هذا عام ٤٠٦هـ •

هذا ، وقد تولى عرش افريقية - بعد باديس - ولده المعز بن باديس ، الذى يعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى لدولة بنى باديس ، فقد جهر باستقلاله عن العبيديين (الفاطميين) فى القاهرة ، ونبذ طاعتهم ، وأنهى الخطبة للخليفة العبيدى المستنصر بالله - المعاصر - فى القاهرة ، وأقام الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد « القائم بأمر الله » عام ٤٣٥هـ ، ولم يعبأ بتهديد المستنصر ، ورد رسوله قائلا : قل له لنا ملك افريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر !!

وما ان استقل المعز بن باديس بملك أفريقية حتى بادر بنو حماد يحذون نفس مسلك هؤلاء على ما تحت أيديهم من البلاد ، وبهذا بدأ مظهر التنافس بين أبناء العمومة ، وذلك ابتغاء انتشار السلطان ، وكانت بينهما - لذلك - منازعات وحروب نالت من الفريقين على حد سواء ، كما أعطت الفرصة سانحة للفرنجة أن يستولوا على جزيرة صقلية - وكانت يومئذ تابعة لمملكة افريقية - فقد ولى هؤلاء وجههم بعد ذلك شطر أفريقية نفسها ، وتمكنوا من الاستيلاء على طرابلس وكثير من الاطراف الشرقية لمملكة بنى باديس •

وتوالى بعد ذلك على عرش أفريقية طائفة من ولد المعز بن باديس ، منهم :

تميم بن المعز : من سنة ٤٥٤ الى سنة ٥٠١ هـ • ثم يحيى بن تميم : من ٥٠١ الى هـ • ثم على ابن يحيى الى سنة ٥١٥ هـ •

ثم أبو يحيى الحسن بن على ، وهو آخر ملوكهم ، وفى عهده استولى الفرنجة على المهدية حاضرة الدولة سنة ٥٤٣هـ ، وهى السنة التى انتهى فيها ملكهم • وبذلك انقضى ملك خلفاء المعز بن باديس على يدى صاحب صقلية •

ونعود الى ملك بنى حماد ، فنرى أنه قد توالى سلطانهم بعد وفاة حماد عام ٤١٧ هـ ، فقد تولى بعده ولده « القائد » حتى توفى عام ٤٤٦ هـ ، ثم ابنه « محسن » ثم ملك بعد محسن ابن عمه « بلكين » ، ثم الناصر بن علناد بن محمد بن حماد ، الى أن ملك يحيى بن العزيز ، الذى بقى متربعا على عرش بجاية ، حتى استولى عليها - وعلى قلعة بنى حماد وسائر تلك النواحى - أمير الموحدين عبد المؤمن بن على عام ٥٤٦ ، وتم له السلطان على تلك المناطق فى سنة ٥٤٧هـ •

هؤلاء هم بنو حماد الصنهاجيون اصحاب بجاية وقلعة بنى حماد وما الى ذلك من البلاد ، الذين أشار اليهم ابن الخطيب فى عبارة المتن •

راجع : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى ، تحقيق الاستاذ سعيد العريان ط القاهرة ١٩٦٣ م • (ص ٢٧٢ - ٢٧٦) •

عن الخطل ، وتحللت منابرها بذكركم من بعد العطل . وطابت بايالتكم الفارسية نفسا ، واستشعرت سرورا وأنسا ، وكانت قد عدمت ناصر الدين معنى ، فوجدت ناصر الدين معنى وحسا ، (٢٧ : أ) وخشعت أصوات أهلها للرحمان – من بعد الاجهار بالابابة والاعلان – فلا تسمع الا همسا ، وأصبح ملككم مطلا على ما وراءها من الجهات ، ناسخا بمحكم الحق حجج الترهات . وان كانت قد أبدت نفارا وتيها ، وعاودت عادة تجنيها ، فالتيه من عادة الغادة ، والتمنع من شيمة الكريمة . فانما هو المطل وبعده يحسن الوصل والوعد ، والانجاز من بعد البرق والرعد ، وفى أثره الغمام الرغد ، وأهون المكسوب رخيصه ، ولذة الصيد أن يطارد قنيصه ، وان أظهرت دلا ، فما أخفت مللا ، وان رامت دفاعا ، فما أضمرت خلافا ولا امتناعا ؛ فقد كانت خجلة من نشوزها المتقدم ، قارعة سن المتندم ، معلنة بفرط الكلف ، متبرية من الصلف ، معترفة بحقوق من سلف لكم من كريم السلف ، مستدركة ما فاتها فى أيامكم السعيدة المستقبلة ، باخعة بتوبتها والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

فلما تحققنا هذا الخبر الذى هو علم فى عواتق الأخبار ، وشنب فى ثغور الثغور ، وخفر فى خدود الأمصار، وسجدة فى سورة الفتوحات الكبار، وأثر حقه أن يكتب بمداد الليل فى قرطاس النهار ، وقلنا : تحصل الأمل ، ولما ثبت الحديث وجب العمل، وهذا أمر لنا فيه الناقة والجمل ، اذا فتح الله على من نؤمل نصره فعلينا فتح ، واذا منح من نرجو اعانته فايانا منح ، الآن زادت الخطة المرجوة سعة ، واستأنف (٢٧ : ب) الملك الذى نعتد به تمهيدا ودعه ، وآن أن يحصد فى مرضاة الله ما زرعه ، الآن أمكن الاستعداد وتيسر الحج ، وبعد – ان شاء الله – يتيسر الجهاد ، فأعطينا السرور به ماشاء ، وأتبعنا الدلو فيه رشاء ، وعمرنا بترديد الحمد لله ضحى الزمان وعشاه ، وبادرنا بتوجيه من يؤدى عنا حق الهنا بهذه الآلاء ، ويسلك فى توفية ما عندنا من السرور بها على سبيل السواء ، فاخترنا لذلك فلانا ، وصل الله سلامته ، ويمّن ظعنه واقامته ، وحملناه من تقرير ما لدينا – من الود الذى صدق انتاجه ، وقطع المعاند احتجاجه ، وراق على أعطاف الخلوص ديباجه – ما نرجو أن يقوم بما أمكن من حقه ، ويسلك فى تبليغه لاحب طرقه ، وفضلكم كفيل بالاصغاء لما يلقيه ، والقبول على ما يؤديه ، والله تعالى يبقى ملككم متأودة بالنصر عواليه ، مسرورا سعادته من يواليه . وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم . والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .. وكتب فى الثانى عشر لشهر ربيع الأول المبارك من عام أربعة وخمسين وسبعمائة [1] » .

(١) الموافق (١٧ مارس ١٣٥٣ م) .

الوثيقة الثامنة

رسالة من السلطان يوسف الأول الى السلطان أبى عنان فارس • تضمنت - على الخصوص - اعلام هذا الأخير بما وقع مؤخرا من حوادث قشتالية داخلية ، أهمها نشوب الحرب الأهليـة بين أنصار العرش الذى كان يجلس عليـه الملك (بيدرو الثانى) من جهـة ، وبين الأشراف بزعامة « هنرى تراستمارا » الأخ غير الشرعى للملك المذكور من جهة أخرى • وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، ولكن يحتمل أن تكون قد حررت فى بداية عام ١٣٥٢ م •

ومنها : مراجعة كتاب فارسى[1] ، يعرف بما كان من استقامة أحوال البلاد الشرقية على طاعته ، بما نصه :

المقام الذى جياد سعوده الى الغاية القصوى ذات استباق ، وأكواس فتوحه المؤيدة بملائكة الله (٢٨ : أ) وروحه تحثها أيدى اصطباح واغتباق ، وعقود حمده ذات انتظام فى لباب الليالى واتساق ، وآثار مجده كواكب آفاق ، وأحكام وده مذاهب اجماع واصفاق ، فله ــ من عناية الله ــ واق ، ومن عصمته أى رواق ، والقلوب ــ على طاعته ــ ذات اتفاق ، وجداول سيوفه قد آلت أن لا تبقى على الأرض شعلة نفاق • مقام محل أخينا الذى قضايا سعده وجودية منتشرة ، ورياح نصره مبشرة ، ووجوه الدين بما يتيحه الله لملكه المكين من النصر العزيز والفتح المبين مستبشرة ، وقدرة عزمه وصفات كماله على توحد جماله متكثرة ، ونهار نصره آية مبصرة ، وأقلام اللوح المحفوظ عند قسم الحدود والحظوظ مطلية لا مختصرة ، وموارد العيش الهنى لملكه السنى باردة خضرة ، السلطان الكذا (أبو عنان فارس) ابن السلطان الكذا (أبى الحسن على) ، ابن السلطان الكذا (أبى سعيد [2]) أبقاه الله ناصر الكلمة العليا يمهد منها الايالة ، ويؤسس لها الجلالة ، ويستدر من صنع الله الزيادة والانالة • معظم مقامه التعظيم الذى لا يبرح ، وناشر كماله الذى طيور حمده فى روضات مجد الدهر تسرح ، وجياد ثنائه فى ميدان علائه تمرح ، وأقلام اطابة ذكره فى صحف فخره تسهب وتشرح •

سلام ــ كما تأرج غب السماء زهر ، وفاض للصبح على دوحة الليل نهر ، يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته •

(٢٨ : ب) أما بعد حمداً لله الذى جعل الفتوح لملككم السعيد ديما تطوف وتنثال ، والصنائع عجائب تضرب بها الأمثال ، وروّى نصلكم فى ولائه النصر العزيز والصنع الوحى الوجيز حديث أطعمنى وسقانى ، بعد أن عظم الاحتفاء والاحتفال ، وسماكم فارس هذا الملك لما ادخركم لنظم منتثر السلك ، فصدقت السمة ونجح المنال ، فمهما رميتم غرضا أصابت شاكلته النبال ، ومهما أثرتم عزما وجفت الجبال ، ومهما

---

(١) نسبة الى لقب ابى عنان (فارس) • وقد وردت الرسالة فى نسخ الريحانة الثلاث ، وان لم ينص الناسخ للكناسة على هذا •

(٢) راجع الوثيقة السابقة ، حيث ذكر ابن الخطيب ملوك بنى مرين •

أدرتم رأيا نجحت بعده الأعمال ، ومهما خطبتم عناية من الله تسنت منها الآمال ، ومهما رميتم وجهة صحب ركابكم اليمن والاقبال • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ونبيه الذى ختم به النبيون والارسال ، الملجأ الذى له الأفياء الوارفة والظلال ، والمورد الذى هو العذب الزلال ، نور الله الذى لا يفارقه التمام حسب وعده والكمال ، ورايته التى لا يلحقها الدثور ولا الاضمحلال ، الهادى الى الحق وقد ارتبك الظلام واشتبك الضلال ، صاحب المقام المحمود اذا اشتد الظمأ وعظمت الأهوال ، والشفاعة المدخورة اذا شهدت الجوارح وحقق الحساب ودقق السؤال • والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وأشياعه وأتباعه ، فنعم الأشياع والأتباع والانصار والصحابة والآل ، سيوف جلاده اذا اشتد النزال ، وألسنة جداله اذا أعمل فى الدين الحجاج وتعوطى (٢٩ : أ) الجدال ، والنجوم الزاهرة من بعده فى سماء دينه التى سمت منها الخلال ، فبهم عرف الحرام والحلال ، ووضحت المقاصد وزال الاشكال • والدعاء لمقامكم الأعلى بالصنع الذى رحب منه المجال ، والنصر الذى راق منه الجمال ، والعز الذى لا يرومه القال ، والسعد الذى تساعده المطالع والمواضع والاجتماع والاستقبال ، ولا زال ملككم تضىء منه فى أعداء دين الله النصال ، وتخدمه البكر والآصال ، ويتجدد ــ بينه وبين عناية الله ــ الاتصال • فانا كتبناه اليكم ــ كتب الله لكم فتوحا منظومة ، ومنوحا بالمزيد موسومة ، وصنائع فى صحف الأيام مرسومة ، وعناية الاهية منطوقة ودلالتها مفهومة ــ من حمراء غرناطة ــ حرسها الله ــ ونعم الله واكفة ، ومواهبه مترادفة ، ومذاهب التشيع على رسوم الاعتقاد بها عاكفة ، وركائب الاستعداد بركن مقامكم الرفيع العماد طائفة •

والى هذا ، أيد الله أمركم ، وأعز نصركم ، كما شرح لشكر أنعمه صدركم ، وأعلى باضمار ما يرضيه أمركم ــ فاننا ورد علينا كتابكم الكريم الوفادة ، العميم الافادة ، الذى رقمته أطراف اليراع ؛ وأنهاء أصناع ، وجادته سحائب الابداع ، فجاء روضة ذات ايناع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، تعرفون اتساق الطاعة وخطبة البلاد الافريقية لأمركم المطاعة ، (٢٩ : ب) وما كان من دخول أشياخ القبائل الذى سميتم فى دينها أفواجا ، وأن دواء السياسة الفارسية أوسع أدواءها علاجا ، وملأ القلوب بها بعد الهم ابتهاجا • وأنكم أعدتم حاجبكم الى سد مدينة بجاية ، بعد القدوم عليكم بمن خلصت نيته من أعيانها ، وما اعتمدتم به تلك المثابة من احسانها ، وما ضمن وليكم الشيخ أبو يعقوب بن مزنى من اصلاح شأنها (وتمهيد أوطانها [1]) واطفاء نار عدوانها ، وصرف العزائم ••• ،

(١) زيادة بنسخ الريحانة أ ، ب ، جـ ، ساقطة من الكناسة •

ومنه : وان تشوقتم الى ما تزيد فى هذه البلاد من الأخبار ـ بما يقتضيه فضلكم الباهر الأنوار ـ فاعلموا أن صاحب قشتالة [1] توجه فى هذه الأيام الى بلاد « جوان منويل » التى هلك صاحبها ، والتبست مذاهبها ؛ لينظر فى مصرف أمرها ، الذى رجعت اليه وأحكامها التى توقفت عليه ، بعد أن صالح (القند [2]) أخاه الذى كان حربا ، وعنيه البا ، ووجه الينا رسوله يعرفنا بعزمه على الخروج الى منازلة حصن دلى المخالف لطاعتــه ، الخارج على حكم جمــاعته ، ويطلب منا مددا كبـيرا من الرماة والرجال ، واعانة على القتال • فراجعناه بأننا انما نقف فى المدد عندما وقع به الشرط ، وتضمنه العقد والربط ، من تعيين ثلاثمائة من الفرسان يكونون فى جملة أتباعه ، يستظهر بهم على من يخالف من أشياعه بطول ثلاثة أشهر من العام الذى يتوجه فيه اليهم احتياجه ، ويصح فى تعيينه ـ بسبب الصلح ـ احتجاجه • (٣٠ : أ) ويوم كتبنا هذا كان رسولنا اليه متوجها فى هـــذه الأمور ، والله يطلـع على ما يكون فيه للاسلام سبب الظهور • عرفناكم بذلك عملا على بركم المأثور • وما يتزيد فمقامكم يطالع به صلة لسبب البر بسببه • والسلام (الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته [3]) •

---

(١) هو الملك « بيدرو الثانى ابن الفونسو الحادى عشر » الملقب بالقاسى ، حكم قشتالة قرابة ثمانية عشر عاما (١٣٥٠ ـ ١٣٦٨م) •

(٢) وردت هذه الكلمة فى كتب المؤرخين العرب ، مرادا بها « الكونت » اللقب الشرفى المعــروف ، وصاحبه هنا الملك «بيدرو الثانى» الذى تقدمت الاشارة اليه ، ويقصد بأخيه «الكونت هنرى دى ستراستمارا» الذى نبذ طاعة العرش ، وانضم الى الأشراف فى المعارضة ، حتى نشبت بالبلاد القشتالية حرب اهلية ضروس ، استعان فيها الملك على أخيه الثائر بولى عهد انجلترا حينئذ الأمير ادوارد ، المعروف بالامير الاسود وتمكن بمعونته من أن يسترد عرشه لفترة من الوقت ، ولكنه هزم من بعد وقتل فى موقعة « مونتيــل » عام ١٣٦٨ م ، فتولى سلطة الحكم الأخ الثائر الكونت هنرى المذكور •

راجع فى هذا : ابن الخطيب فى الاحاطة ج ٢ ص ٢٤ ـ ٢٦ • ط القاهرة •

(٣) زيادة فى نسخ الريحانة الثلاث •

الوثيقة التاسعة

رسالة صادرة من السلطان يوسف الأول، الى السلطان أبى فارس المرينى، تتعلق باستعدادات مملكة غرناطة بالتعاون مع المغرب ، وخصوصا تحصين الشواطىء الأندلسية ، لرد غارات النصارى البحرية المفاجئة. والرسالة هذه غير مؤرخة، ولكن يحتمل أن تكون قد حررت أواخر عام ١٣٥١ م ـ أوائل عام ١٣٥٢ م .

(ومما خوطب به(١) ـ قدس الله روحه ـ فيما يظهر من أغراض المخاطبة):

المقام « المقام الذى يجب الى مرضاته التسرع ، ويحق البدار الى وصل اليد به والتبرع ، ويدعو الى لاستمساك بوده التدين والتسرع ، ويخلص الى الله فى حمله على ما فيه (من) (٢) رضاه التضرع • مقام محل أخينا الذى نعطى أخوته حقها ، ونسلك من مودته طرفها ، ونشيم من عزائمه فى الجهاد برقها ، ونشكر غيثها وودقها • السلطان الكذا (أبى عنان فارس المرينى) أبقاه الله موفق المقاصد ، مهنا الموارد ، معمور النوادى بالصالحات والمعاهد ، قائما من حقوق نعم الله عليه مقام الشاكر الحامد ، ولا زالت عزائمه قاطعة بالمعاند ، متلفة منه للطارف والتالد ، ومكارمه شاملة للأقارب والأباعد ، وأقواله وأعماله خالصة فى طاعة الله الملك الواحد • معظم مقداره ، وملتزم اجلاله واكباره ، ومؤاخيه فى الله على اعلاء دينه الحق واظهاره ، العارف بكرم نجاره وفضل آثاره ، فلان (السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) •

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الأسمى ، وأخوتكم العظمى ، ورحمة الله وبركاته •

أما بعد حمد الله (٣٠ : ب) الذى تجبى من أفنان التوكل عليه ثمار الاعمال ، وتقتنص من مطالب اللجاء اليه نجاح الاعمال ، جاعل المودة فى ذاته وسيلة نافعة يوم العرض والسؤال ، وظلا على عباده يتكفل بصلاح الاحوال ، مجازى من أخلص فى وسيلة قصده بالصنع الباهر الجمال ، والمنح الوافرة التى فوق الكمال • أقامنا بهذا الصقع الأقصى ندافع عداه بالبيض القصار والسمر الطوال ، وندعو الى ما فيه رضاه أهل الائتمار لطاعته والامتثال ، ليصبح الأمن مديد الظلال • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الشفيع عند تعاظم الأهوال ، والملجأ المنيع عند أعواز الاحتيال ، ذى المعجزات التى استقلت عقودها كل الاستقلال ، خاتم الانبياء وسيد الارسال ، الذى نلتمس ببركته فى الدنيا والآخرة من الله مؤمل الأفضال ، ونحارب ونسالم عملا بمقتضى سنته فى الحال والمآل ، ونتمسك بأخوة من نرجو دفاعه عن دينه حتى نبلغ قصيات الآمال • والرضا عن آله وأصحابه أكرم الصحابة وأسنى الآل ، الذين كانوا فى قلادة ملته مثل اللآل ، وفى الاهتداء لأمته بمنزلة النجوم فى الليال • والدعاء لمقام

---

(١) هذا الكتاب ثابت فى نسختى الريحانة أ ، ج ، وان لم يذكر ذلك بهامش الرسالة فى أصل « الكناسة » •

(٢) زيادة فى الريحانتين ، والسياق يستلزمها •

أخوتكم الفارسية بتـــوالى اليمن والاقبال ، ولا زالت مقاصدها خالصـــة فى رضا الله ذى الجلال ، وعزائمها يحفها التوفيق عن اليمين والشمال ، فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم من السعادة أوفرها نصيبا ، وسلك بكم السداد (٣١ : أ) والاسعاد مأخـذا قريبا ، وجلالكم من وجه العناية وجها عجيبا ، وبوأكم من منازل القبول جنابا رحيبا ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ونحن نمحض لكم الود فى شاهد الأمر وغائبه ، ونثنى عليكم ثناء يبين قصد مذاهبه •

والى هذا ـ وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى النعم عندكم ـ فاننـا تعرفنا فى هذه الايام من خدامكم الوافدين علينا بهـــديتكم ، ما عندكم من استدعاء الأساطيل المنصورة من محل انشـائها ، والاســتكثار من عدد حركاتها واقتنائها ، وأن فروض العزائم شرع فى أدائها ، وأولياء الملة قد تذامرت على أعدائها ، وحـكماؤها (قد) [1] شمرت لازالة دائها ، فسألنا الله اتاحة الخيرة ، وتكييف الصــنائع المسرة ، وبادرنا لسبر ما عندكم من التشوف الى مالنا من الاساطيل الجهادية ، والمقاصد الودادية• فان توفر لكم فى الاستعانة بها أرب ، أو بان فى الاحتيـــاج اليها مذهب ، نشرع فى اصلاحها وتيسيرها ، وننظر فى ابرام أمورها ، لتكون مرهفة الحد ، آخذة أهبتها قبل القصد ، ونعلمكم ـ مع ذلك ـ أن رسولنا اليكم فى الأيام الماضية والأشهر المتقاضيـة فلانا ، لما وصل من لدنكم أوصل فى الطعام المعتاد من سلفكم ـ قد سهم الله ـ الى هذه الجزيرة وعدا ، وأنهى اليها اجتهادا فى أمره وجدا ، وأنكم جددتم من حسنات بيتكم عهدا ، فأورينا فى الشكر زندا ، وأوضحنا فى الثناء قصدا (٣١ : ب) وقد كانت عادة والدكم ـ أزلفه الله اليه، وجدد ملابس الرحمة والرضوان عليه ـ أن يصدر عنه مكتوب بمقدار ذلك الامداد ، وتعيين موضعه من سواحل البلاد • ونحن نأمل أن تسلكوا ذلك العمل فى سبيل الجهاد ، وتخلدوا من الأعمال الصالحة ما يجده من يؤمل حسن المعاد• أذكرناكم بذلك على سبيل الوداد ، وكرم الاعتقاد ، ووجهنا من يقرر لديكم ما عندنا من جميل [2] الولاء فى أخوتكم الرفيعة العلاء ، ويتكلم بين يديكم فى هذه الأشياء ، ويجرى من تبيين الخلوص على سبيل السواء ، وهو القائد الكذا أبو فلان ، وصل الله عزته ، ووالى رفعته • ومقامكم يتفضل بالاصغاء اليه ، والقبول من ذلك على ما لديه ، والسلام •

---

(١) زيادة فى نسختى الريحانة •

(٢) فى الريحانتين أ ، ج « دليل » بدل « جميل » •

القسم الثالث

التاريخ الأندلسى

رسائل ذات أحداث أندلسية

مكاتبات صادرة من بلاط غرناطة الى بلاد المغرب ، فى شـــأن علاقات مسلمى الأندلس بدول النصارى فى الشمال (قشتالة وأراجون) .

الوثيقة العاشرة

رسالة صادرة من السلطان أبي الحجاج يوسف الأول الى معاصره بالمغرب السلطان أبي عنان فارس المريني ، في شأن اعلام هذا الأخير بالعلاقات الغرناطية القشتالية ، من خلال المعاهدات القائمة بين هاتين المملكتين، مما استلزم اعلام ملك المغرب بمجريات الحوادث الراهنة ، وذلك أثر شكايات كانت قد تبودلت حينئذ بين كل من غرناطة وقشتالة • وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، بيد أنه يحتمل أن تكون قد حررت خلال عام ١٣٤٤ م •

ومن المكاتبات في الأغراض التي تخص العدو ، ومحاولة أمره ما نصه :

المقام [1] لكم صـــلاح الأمور نظره الجميل ، ويعدلها كلمـا همت أن تميـل ، ويبلغ هذه المستمسكة بأسبابه القصد والتأميل ، ويلاحظ من مصالحها الكثير والقليل ، ويذهب عن مذهب أمانها التأويل والتعليل ، ويؤويها من جناب رعيه الظل الظليـل .

مقام محل أخينا الذي على وداده الاعتماد ، والى جميل نظره الاســـتناد ، وبه الانتصار اذا وقع العناد ، ومن جهته التمهيد اذا قلق المهاد ، ومن تلقاء تدبيره العلاج اذا تطرق الى كون (٣٢ : أ) الهدنة الفساد ، فمكارمه قد وضحت منها الاشهاد ، ومفاخره يعرفها الحسام العطب والقنا المياد ، وعزماته يدخرها الجهاد ، وفضائله يعرفها العبـاد والبلاد ، السلطان الكذا أبو عنان ، ابن السلطان الكذا (أبي الحسن علي) ، ابن السلطان الكذا (أبي سعيد المريني) . أبقاه الله مؤمل النظر ، كريم الخبر والخبر ، كفيلا عدله برعي المصلحة ودرء الضرر ، ولا زالت سعوده متألقة الغرر ، ومكارمه هامية الدرر ، مرجوا للنصر المنتظر ، حميد المساعي مرضي السير ، محروسا مقامه من الحـــوادث والغير . معظم وملتزم بره ، المطنب على اللسان في حمده وشكره ، العارف بكثير محتده وأصيل نجده ، فلان (أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) .

أما بعد . حمد الله الواجب حمده ، المتوالي أنعامه ورفده ، الذي جعل التواصل في ذاته سببا لا يفصم عقده . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الرفيع قدره ، الكريم مجده ، رسول الرحمة ، الذي أشرق بدعوته غور المعمور ونجده ، الداعي الى الدين القويم والصراط المستقيم ، الذي لا يضل قصده . والرضا عن آله وأصحابه الذين أنجز بنصرهم وعده ، ورفعت بهم أركان ملته بعد ما ضم عليه ضريحه الطاهر لحده . والدعاء لمقـام أخوتكم العالية بالسـعد الذي لا يبلغ حـده ، والتأييد الالهي (٣٢ : ب) الذي لا يتقلص ممتـده . فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم سعداً باهـر الأنوار ، ومجدا عالي المقدار ، وصنعا تجري بمساعدته أحكام الأقدار ، ويتصرف وفق ارادته حركات الفلك الدوار ، وأجرى أمور هذه البلاد الغربية والأقطار من تدبيركم الحميد الآثار ، ونظركم الجميـل الاعمار والاخبـار ، على ما يقع من الاسلام موقع الاختيار ، ويتكفل بتأمين الخلال والديار ـ من حمراء غرناطة ، والاعتماد عليكم ـ بعد الله ـ وثيق السبب ، واضح المذهب ، والتشيع لكم كفيل للدين بنيل الأرب .

---

(١) وردت هذه الرسالة في نسختي الريحانة أ ، ج ، وان لم ينص على ذلك بالكناسة .

والى هذا – وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم – فاننا ان عقدنا سلما عقدناها بريحكم التى يحذر العدو هبوبها ، وان شئنا [1] حربا استعنا بعزماتكم التى تنال بها الملة مطلوبها ، وان ضمنا عنكم أمرا صدق الضمان ، وان وثقنا بكم انقاد الزمان ، ورأى ما يسره الأمان . فأحوال المسلمين فى هذا القطر على جميل نظركم معتمدة ، وعنايتكم بها فى كل يوم متجددة ، فكلما توقع فى أسباب هدنتها مرض عرض منكم على الآسى الطبيب ، أو حذر من عدوها مكروه صرفت الوجوه منكم الى الولى الحبيب ، فوجوه لحظكم سافرة على حال المغيب ، وهى وان كانت بعيدة منكم توجبون لها بدينكم حق القريب ، وأن هذا الصلح الذى تسنى فى أيامكم ، وانقاد اليه العدو بسبب (٣٣ : أ) اعتزامكم ، واتصال اليد بمقامكم تكاثرت فيه بين الفريقين شكايات ، وهى اذا تكاثرت فى النفوس نكايات ، وان تغوفل فى حسم عللها ، واصلاح خللها ، والتنزل فيها لانصاف ، ورفع النزاع فى سببها والاختلاف ، أدت لانطلاق الأيدى ، ومجازاة التعدى بالتعدى ، حتى يتقلص ظلال الهدنة والمسالمة ، وينتقل الحكم من الكلام الى المكالمة ، والحاجة الى الهدنة لاخفاء آ ما ! [2] بها مقامكم الرفيع العماد ؛ اذ فى اقتضاء ما عين لها الآن من الآماد جبر الأعداء ، وامكان الاستعداد ، بخلاف ما يستوفى – ان شاء الله – على المهل أغراض الجهاد .

وان سلطان قشتالة [3] ردد الينا الرسل يطلب خلاص ناسه مما به اليه استظهروا ، وقد حشدوا كثيرا من الشكايات واستكثروا ، وحضروا بين يدينا ، فألقوا ما يختص بايالتنا ، منسوبا الى مواضع البلاد ، وما يختص بما رجع لايالتكم الرفيعة العماد ، وطلبوا بالانصاف مما تثبت دعواه ، وخلاص كل شاك من شكواه ، فبلغنا الجهد فيما يرجع الينا من دفع الحجة التى فيها مدفع ، والاتيان بما فيه مقنع ، وغرم ما لزمنا غرمه ، واتجه علينا حكمه ، عملا بحسب التسديد الذى تتمشى به الأحوال ، ويحمد فيه بفضل الله المآل ، وقيدوا بتلك الجهة التى لجميل نظركم قضايا مقررة ، ودعاوى مفسرة ، وذكرنا لكم منها (٣٣ : ب) فى مدرج كتابنا أشهرها عند الاعتبار ، وأولاها بالايثار ، وسيرها كثير يقع الكلام فيه بين منتحلى الجوار ، من المسلمين والكفار ، وتبنى الأحكام فيها على ثبوت الآثار ، ولم نجد فيها حيلة الا مخاطبة مقامكم الرفيع المقدار ؛ اذ وجوه خدامكم بهذه البلاد – أعزهم الله – قد تنزلوا من هذه الدعاوى منزلة الخصوم ، وطال الكلام فى المنطوق منها والمفهوم . فنحن الآن نرغب من مقامكم الأعلى ومثابتكم الفضلى ، أن يعين من بابكم من يصل الخلاص ممن يجب

---

(١) فى الريحانتين أ ، ج « شئنا » وهو مناسب أيضا .

(٢) ساقطة من الكناسة ، ثابتة فى نسخ الريحانتين ، وهو اولى .

(٣) هو « الفونسو الحادى عشر » الذى حكم قشتالة من سنة ١٣١٢ – ١٣٥٠ م .

خلاصه ، واستخلاص ما يحق استخلاصه ، ممن يمضى بأمركم العلى الحق حيث تعين، ويفصل بالواجب فيما ظهر وتبين ، ونعين نحن من يقوم فيما يختص بجهتنا هذا المقام، ويعين سلطان قشتالة من جهته من يروم هذا المرام ، حتى يرتفع النزاع ، ويظهر للحق الشعاع ، وتستأنف الهدنة والأمان الأصقاع ، فما زال مقامكم يلتمس لها أسباب الرفق، ويدر لها سحائب الرزق ، ويلتمس من التماس صلاحها أوضح الطرق . وبهذا النظر الذى سألناه من علاكم تتمشى الأمور ، وتشرح بالحق الصدور ، ويطلب بجميع المسلمين من الشكايات على ما تضمنه العهد المأثور والعقد المسطور ، وملك الروم فى الوقت قريب الدار ، دانى الجوار ، يغتنم دنوه لخلاص هذه الأمور ، التى يعوق عنها المطال اذا بعد مكانه ، (٣٤ : أ) وشطت داره ، ونزحت أوطانه .

عرضنا عليكم هذا الأمر المهم قبل أن يخيل ما عقد ، وينهى ما سدد ، وأنتم أكفى وأكفل ، جميل نظركم المؤمل ، وعلى مقاصدكم الكريمة المعول ، وقد وجهنا الى بابكم فى هذا الغرض من يشرح الأمور فيها ، ويقرر المقاصد ويستوفيها ، وله بها دربة وخبرة ، ومعرفة مستقرة ، ذلك القائد الكذا ، ومقامكم يتفضل بالاصغاء لما يلقيه ، والقبول على ما يؤديه ، والله تعالى يبقى مقامكم سامية معاليه ، عائدا جميل نظره بالخير على من يواليه ، والسلام (الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته [1]) .

---

(١) زيادة وجدناها بنسخ الريحانتين أ ، ﺟ .

الوثيقة الحادية عشرة

رسالة من سلطان غرناطة أبي الحجاج ، الى سلطان المغرب أبي عنان فارس المريني ، جوابا عن رسالة تلقاها يوسف الاول من معاصره هذا يخبره فيها بابلاله من مرض . فهو يتمنى له دوام الصحة والمزيد من العافية ، ويهنئه فيها بشفائه . وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، ولما كان موضوع الرسالة فى غرض شخصى لاصلة له بالأحداث الجارية حينئذ، فانه من العسير أن نتكهن للرسالة بتاريخ ولو تقريبى .

ومن ذلك جواب (١) عن تعريف باقلال (٢) من مرض:

المقام الذى شفاؤه للاسلام شفاء ، وبرؤه نعمة عميمة ما بموقعها خفاء ، وشيمة فضل وعدل ووفاء ، فللقلوب ابتهاج وللصدور انشراح وللعيون اغفاء • مقام محل اخينا الذى نقدر قدره ، ونسأل الله أن يحفظ من بادرة أسرار بدره ، ونرتقب تأييده على الدور ونصيره ، ونروم الاحاطة بما بلونا من أجناس فضله فلا نطيق حصيره ، السلطان الكذا أبى عنان ، بن السلطان الكذا أبى الحسن ، بن السلطان أبى سعيد ، بن السلطان أبى يوسف ، بن عبد الحق • أبقاه الله مفداة ذاته الطاهرة بالنفوس ، محوطة البدور والشموس ، مبعد عن جلالها لباس البوس ، متهلل باتصال عافيتها وجه الزمان العبوس ، محمولا (•••• [٣]) والشرور (٣٤ : ب) براحتها فوق الروس • معظم مقامها الاسمى ، وأخوتها العظمى ، فلان (أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) [٤] •

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته •

أما بعد حمد الله كاشف الظلمة الغماء بنور صباح النعماء ، ومذهب وحشة اللأواء [٥] ، بأنس رحمته المنشورة اللواء ، الحكيم الذى لا يفتقر فى ازالة الأدواء الى واسطة الدواء ، ولا يضر مع اسمه الكريم شئ فى الارض ولا فى السماء ، متدارك نفوس المسلمين بما وهبكم من الشفاء بعد الاشفاء ، فالموارد بعد الكدر ظاهرة الصفاء ، وأنوار الاستبشار ظاهرة بعد الاختفاء • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله خيرة الرسل وسيد الأنبياء ، الذى بجاهه نسحب ملابس الاعتناء ، ونرد موارد الآلاء ، ونستظهر على الأعداء ، ونستشفى عند الملم الداء ، ونتوسل الى الله فى الاعارة من الأمور والافداء ، ونرفع النداء مهما راعنا رائع فنتعرف منه اجابة النداء • والرضا عمن له من الصحابة والقرابة والخلفاء ، الموفين بعهده حق الوفاء ، الأشداء على الكفار الرحماء ، الذين خلفوه فى أمته بايضاح الحق وحياطة الخلق وقمع الاهواء ، ورفع منار أوامره المتعبة على أوثق البناء ، فكانوا من بعده كالنجوم فى الظلماء • والدعاء لمقامكم الأعلى بالنصر الكريم الأنباء ، والصنع الوسيم الدواء ، والتأييد (٣٥ : أ) التكفل بتمهيد

---

(١) ثبتت فى نسخ الريحانة الثلاث أ ، ب ، ج •
(٢) هكذا وردت فى كل من الكناسة والريحانة ، ولعلها « بابلال » •
(٣) محو بكل من مخطوطة الكناسة ونسخ الريحانة الثلاث •
(٤) راجع الوثيقة الثانية والوثيقة الخامسة عشرة •
(٥) اللأواء : شدة القيظ •

الأرجاء ، ولا زال نصله شهير المضاء فى كف القضاء ، وسعده مشرق الضياء فى أفق العلياء ، وعزه ضافى الرداء ، وشاهد عناية الله به معمل الاداء ، ومنار علمه قبلة لاولى الاقتداء . فانا كتبناه اليكم - كتب الله لكم دوام العافية المؤيدة الاوفياء ، وعرفكم عوارف السعادة المعادة مع اتصال الاناء - من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله الا مسرات براحتكم نعاطى راحها ، ونذيع أفراحها ، ونسيغ قداحها ، ونجعــل فى مسارح شكر الله وحمده مغداها ومراحها . وقد وصلــنا كتابكم الذى أهدى أسنى التحف وأعلاها ، وأسدى أجمل المنح وأولاها ، وأزاح الغما وجلاها ، وأطلع أنوار البشر بروق مجتلاها ، وجمع بين الفواضــل العميمة يعضد أولاها آخرها ، عــرفتم فيه بما كان قد ألم بذاتكم الطاهرة من الألم الذى ألمت له القلوب ، وتدب فى النفوس المسلمة الكروب ، ثم بما تدارك من الابلال والاستقلال ، وبرء ذلك الجلال ، واستيلاء جيوش الراحة على عدو الاعتلال ، فلولا أن خبر المرض بلغنا مقرونا بخبر الراحة ، وامن تلك الساحة ، لعظمت الأوجال ، وضاق المجال ، وانتهبت الصبو الكرب العجال . لكن الشدة كانت مردفة بالصباح ، والشبهة مقترنة بالحق الصراح ، والمسرات موصولة بالأتراح ، فحمدنا الله على راحتكم التى هى راحة العباد والبــلاد (٣٥ : ب) ، وفى ضمنها النعم الواكفة العهاد ؛ فاستقامة الفسطاط باستقامة العماد ، وبصلاح الأرواح صلاح الأجساد .

فالحمد لله الذى أقال وفك العقال ، وكفى الكرب الثقال ، ووفى الأجر وهــو لا يظلم المثقال ، وجدد لسيفه الماضى الصقال ، وجمع لكم بين الأجور الوافية ، من الصبر على الالم والشكر على العافية ، وعلمنا من أعلامكم ايانا بهذه النعمة مكاننا من ايثــار أخوتكم ، فزادت المسرة أضعافا ، وثبتت قواعدها ثبوتا لا يقبل خلافا ، ووجب الشكر اعتقادا واعترافا ، فلا تسألوا عما عندنا من الابتهـــاج والاستبشار ، والسرور المشرق الأنوار ، وكيف لا تسر - بنعمة الله قبلكم - هذه الجهات التى ما عدمت منكم ولا من سلفكم عناية ، ولا فقدت (فى) [1] حالى الشدة والرخاء رعاية ، فكلما أفلت آية طلعت آية ، وكلما تعرفت رأيا استقبلت راية . الله تعالى يحفظ لها من عزائمكم العدة التى بها تتوعد العدو ، ويخطب أملها المرجو ، وتعمر بأمثلها الرواح والغدو . ونحن نهنيكم وان كنا أحق بالهناء ، ونبدى من التشيع ما يليق بكريم الاخاء ، ونجهد فى اجــزال الشكر واجمال الثناء ، والله - عز وجل - يطلعنا من مقامكم على كل مبهج من الأنباء ، ويحرس ما لكم من أصيل العلاء ، ويدافع عن ذاتكم الكريمة بمهود اللطف الذى عود والاعتناء ، بمنه ، والسلام » .

---

(١) زيادة فى نسخ الريحانة الثلاث .

الوثيقة الثانية عشرة

رسالة من السلطان يوسف الأول ، الى السلطان أبى عنان فارس . ينوه فيها بجهود هذا الأخير نحو الأندلس ، فى امداده بالمعونات الحربية من الرجال والعتاد . وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، بيد أنه يحتمل تاريخها خلال عام ١٣٥١ م .

(٣٦ : أ) وكتب في الغرض المتقدم من خصام النصارى، بعد وقع الاسعاف من السلطان أبي عنان – رحمه الله – بما نصه (١) :

المقام الذى وسع الأمتين عدله واحسانه ، وتكفل بجبر القلوب وتيسير الأمل المطلوب عمله ولسانه ، واشتمل على المكارم المتعددة شانه ، وقام على الفضل المبين والمآثر الرائقة لجبين برهانه . مقام محل أخينا الذى حكمه عدل ، وشيمته مجد وفضل ، وملكه لنصر الله اياه أهل ، وحقوقه على أهل الاسلام لا يصد عنها جهل ، وسبيل مكارمه لاحب سهل . السلطان الكذا (أبى عنان فارس المرينى) أبقاه الله مخولا من التوفيق أسنى المواهب ، سالكا نظره من السداد أوضح المذاهب ، ومتعهدا جوانب الاسلام بألطافه العجائب ، ذاخرا من نصره اياه جيوش عزم تسير أمام الكتائب ، صارفا اليه من وجوه سياسته ما يقضى بحق الشاهد فيه والغائب ، معظم مقداره الذى فاق الأقدار ، ووضح فضله فأشبه النهار ، وموفر ملكه الذى حاز الفخار ، وعم فضله الأقطار ، فلان (السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) .

أما بعد حمد الله الذى آلاؤه العميقة لا يقلع مدرارها ، وألطافه الخفية لا تلتبس آثارها ، الذى أقامكم لنصر كلمة الاسلام ليحمى ذمارها ، ويعلو منارها . فآراؤكم لا تتعدى السداد أنظارها ، وعزائمكم ترتقب مقطع الوفاء شعارها ، ومكارمكم تعب فى سبيل الله بحارها . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد (٣٦ : ب) وسيلتنا التى عظم عند الله مقدارها ، وعمدتنا التى فى التعويل على شفاعته من هذه الأمة استبصارها، وملجؤها الذى اليه تمد أيديها وأبصارها . والرضا عن آله وأصحابه شموس سماء الدعوة الحنيفية وأقمارها ، الذين كانوا غيوثا تستسقى أمطارها ، وليوثا يرهب زأرها، وأعلاما تمهد سنن الاقتداء أخبارها . والدعاء لايالتكم العليا بالعز الذى تعمر به أقطارها ، والسعد الذى تتسنى به أوطارها .

فانا كتبناه اليكم – كتب لكم عناية تكرم أسرارها ، وسعادة تجنى فى سبيل الله ثمارها – من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زائد بفضل الله سبحانه الا الخير المنتخب البرود ، والبشر المنتظم العقود ، والحمد لله – ونحن نعتمد من مقامكم على الظل الممدود ، والورد المقصود .

---

(١) وردت هذه الرسالة في نسختي الريحانة أ ، ج ، حسبما هو ثابت أمامها في مخطوطة الكناسة .

والى هذا – وصل الله لكم أسباب السعود ، وانجاز الوعود – فنا وصلنا كتابكم يسطع أرجه نشرا ، وتزف عزته بشرى ، تعرفون بما كان من لحاق الشيخ أبي زكريا يحيى بن رحو [1] بمثابتكم العلية ، وشرحه ما انتهى به عمله في تلك القضية ، ووقوفه عند مذاهب العدل المرضية ، وما ظهر لكم من سمائل الأمة النصرانية ، من دغل الطوية، والحيدة عن المذاهب الجلية • وأنكم آثرتم الحق طريقا ، وارتضيتم العـــدل فى جنب العدو صديقا ، وأمرتم بخلاصهم من الشكايات التى تقتضى عليها ايمانهم ، (٣٧ : أ) وطلبهم بما يثبت للمسلمين بمثل ذلك مما يقتضيه ضمائمهم ، وتوجيه من يباشر هذا الغرض الذى تفضلتم بابرام عقده ، واتمام قصده ، فقابلنا هذه المقاصد الكريمة ، التى لم تدع سبيلا فى الوفاء الا نهجته ، ولا مطلوبا الا أنتجته ، بالشكر الطويل المـديد ، والثناء الغض الجديد ، والدعاء لمقامكم بصلة التوفيق والتسديد •

واعلموا – أيدكم الله – أن النصارى – كما قررتم – أمة تجادل فى الحق بعد بيانه [2] وتتمسك بالحبال الرثيثة بعد وضوح برهانه • ولو كانوا على آثاره من انصاف، أو أنصفوا من الانقياد للواجب ببعض اتصاف ، لم يكونوا – أهل باطل معتقد ، وزيغ منتقد ، ولكن أبلغ عدلكم الأمور منتهاها ، وتمم أسباب النصفة ووفاها ، ونحن ناظرون فى تعيين من يباشر ما ذكرتم حسبما أشرتم ، وعندنا من الشكر الجزيل ما يقصر عنه اللسان ، ومن الثناء على هذه الأغراض الكريمة ما لا يدركه الاستحسان ؛ فما زالت أعمالكم فى سبيل الله كريمة الخواتم والفواتح ، شاهدة بما لكم عند الله من التجـر الرابح ، كافأ الله قصدكم المتكفل برعى المصالح •

وان تشوقتم الى أحوال النصارى فهى – على حســبما عرفناكم به فى كتـاب أصدرناه الى مقامكم قبله – يؤكد الود ويقرره ، ويشرح بعض أحـــوال من ذكـر ويفسره ، وبحسبما يتزيد عندنا يعجل به أعلامكم ، ويطالع بمتـــزيده (٣٧ : ب) مقامكم • الله تعالى يعمر بالعز أيامكم ، وينشر بالنصر على أعدائه أعلامكم ، وهو يصل سعدكم ويحرس مجدكم ، والسلام •

---

(١) شيخ الغزاة بالاندلس ، ولد بظاهر تلمسان ٦٩١هـ (١٢٩٣م) . يتصل نسبه بملوك بنى مرين . تولى هذا المنصب مرتين ، أولاهما خلال حكم السلطان محمد الرابع ، الذى حكم مملكة غرناطة فى رجب عام ٧٢٥ – ذى الحجة ٧٣٣ هـ (يونية ١٣٢٥ – سبتمبر ١٣٣٣ م) والأخرى اثر قبض السلطان يوسف الاول على شيخ الغزاة السابق أبى ثابت عامر بن عبد الحق • وقد بقى الشيخ أبو زكريا فى خدمة الدولة النصرية كقائد حربى حتى رمضان ٧٦٤هـ ، حيث نكبه السلطان محمد الخامس الغنى بالله ، ونفاه الى شمال افريقية ، ومن ثم التحق بالمغرب حيث استقر بفاس العاصمة المرينية ، بعد أن أدى فريضة الحج أخيرا.
راجع فى هذا : الاحاطة / نسخة جاييجوس بالاسكوريال رقم ١٦٧٣ ، لوحة ٣٣٦ – ٤٠٠ •

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون» الأنفال ، آية : ٥ •

الوثيقة الثالثة عشرة

رسالة من السـلطان أبى الحجـاج يوسف الأول ، الى السلطان أبى عنان فارس ، يعلمه فيها باتصاله الأخير بملك قشتالة فى شأن حقوق المسلمين فى أرضـه ، وبايدى رجاله من النصارى. والرسالة هذه مصحوبة بهدية الى ملك المغرب. وقد وردت غير مؤرخة ، ولـكن يحتمل تاريخهـا خلال عام ١٣٥٢ م .

وكتب رحمة الله عليه فى قريب من هذا المعنى صحبة هدية بما نصه (١) :

« المقام الذى ترامى الى اتصال سعادته منا الآمال ، وتتوارد على التماس مرضاته النيات منا والاعمال ، ويتغمد اغضاؤه ما تدعو اليه المودة ويوجبه الادلال ، ويتعرف منه على مر الايام الفضل والكمال ، مقام محل أخينا الذى له القــدر السامى ، والرفـد الهامى ، والسعد المصيب المرامى ، والرأى الألهامى ، والمـآثر التى يتدارسها العراقى والشاسى . السلطان الكذا أبى عنان . أبقاه الله متصلة بالسعد أسبابه ، مقصودا بجنائب الثناء جنابه ، غاصا بوفود التعظيم بابه ، يفـرق لسـطوته أعداء الله ، ويرتاح لنصرته أحبابه ، معملا فيما يرضى حزمه وعزمه وركابه ، مؤنسه فى حومة الحرب كتيبته وفى حال السلم كتابه . معظم قدره الرفيع المعالى ، المعتـد بملكه الشـهير العالى ، المثنى على فضله المتوالى ، الأمير عبد الله يوسف ، بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر .

سلام كريم ، طيب برعميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى شـملنا فضله ، ونهج لنا من التحـاب (٣٨ : أ) منهجا تفضى الى السعادة سبله ، فالدين متصل حبله ، مجتمع شـمله ، والأمن مديد ظله ، واليمن وجيب محله ، والاسلام متحقق عزه ، والكفر متوقع ذله ، سبحانه وتعالى عليه نتوكل وبيده الأمر كله . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد النبى الكريم الذى ختم به رسله ، الذى بفناء جاهه نلقى عمل الرجاء ونحله ، وبحبه نستزيد خلف السـعادة بنور رسله . والرضا عن آله وأصحابه وأحزابه وأشياعه الذين عز بهم نصره ، ومضى فى الأعداء نصله ، وحفظ بعد التهم قوله وفعله ، حتى سما فرع دينه وثبت أصـله ، ووسم بالعز جنسه وفصله . والدعاء لمقـامكم الأعلى بالنصر الذى لا ينفصم سببه ولا ينفصل وصله ، والسعد الذى تصيب أغراض الآمال نبله ، كما خصكم بالفضل الذى لا يسع جهله ، وادخركم لنصر الدين الذى يؤمل دفاعكم ناشيه وكهله . فانا كتبناه اليكم - كتب الله لكم من العز أوفاه قسما ، ومن الصنع الجميل أوضحه وسما ، ومن السعد المساعد أثبته رسما ، وأكرمه اسما ومسمى ، ولا زالت بعزكم حوزة الحق تحمى ،

---

(١) ثبتت هذه الرسالة فى نسخ الريحانة الثلاث أ ، ب ، ج .

وشاكلة النصر ترمى. فاننا لو تخيلنا آمالنا ، واعتبرنا بمعيار الاختبار أعمالنا ، لوجدنا صفة ودكم لبابها ، وحسبناها جسوما وقرى التشيع لكم ألبانها ، وبودنا لذلك أن تكون المخاطبات تتعدد بتعدد أجزاء الزمان ، وتنتظم على الساعات انتظام الجمان ، فلا نزال نثابر على ذلك بجهد (٣٨ ق ب) الامكان ، وبقدر العزم مهما احتج سروح المكان. وأننا الآن وجهنا من يجدد العهد بهذا الغرض ، ويقوم منه بالواجب المفترض ، ونصحب ما حمل الادلال عليه من قليل يرد شركة الفضل الكثير ، ويسير بجد بفناء المجد الكبير ، من مطايا تتشرف بخدمته ، وغير ذلك من معتاد يتوصل الى قبوله بما سبق من أذمته ، وهو فلان . وألقينا اليه فى تقرير الود ما يرجى أن يضطلع به ، وان كان تحصيل حاصل ، وتوصيل واصل . ولما نعلمه من تشوف مقامكم الأعلى للاخبار ، بمقتضى عنايتكم المشرقة الأنوار ، نعرفكم أن الرسول الذى كنا قد وجهناه الى صاحب قشتالة فى هذه الأيام متطلعا على أحواله ، وما توجهت اليه وجوه أعماله ، وللكلام فى حقوق المسلمين قبل أرضه وبأيدى رجاله ، وصل محالا فى الشكايات على من عينه هو من ظهر أمحاله ، مستوعبا جميع أنبائه فى مقامه وارتحاله . فأخبر أن أمور الصلح جارية على مجاريها ، وأن أحواله لا زيادة فيها ، وأنه متفرغ الى استرجاع ما كان لوزيره الفار عنه من البلاد ، وانتزاع ماله من الطارف والتلاد ، يعرض على معاقله لاقامة الحجة نفسه ، ويصل بيومه فى الجد بهم أمسه . والوزير المذكور قد لجأ الى كنف غيره ، واستشعر الحذر مجدا فى سيره ، وأن هذا الشاغل فى الوقت هو همه الذى نصب عينه ، وجده مصروف الى اقتضاء دينه ، وأن الأمور - ببركة الاعتداد بكم - (٣٩ : أ) ملحوظة ، والعهود محفوظة . والله يصل أشغالهم ، ويمكن فى الفتنة ايغالهم ، ويعلى - بعز نصركم - كلمة الاسلام ، ويجعل لكم الطائلة على أعداء الدين وعبدة الأصنام ، بادرناكم بالاعلام بمقتضى الود الثابت الأحكام . والله تعالى يصل سعدكم على الأيام ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله .

الوثيقة الرابعة عشرة

رسالة من السلطان يوسف الأول ، الى السلطان أبى عنان فارس المرينى ٠ فى الأغراض السابقة ، صحبة بزاة على سبيل المهاداة ٠ وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، بيد أن تاريخها محتمل خلال عام ١٣٥٢ م ٠

ومما كتب به عن المذكور الى المذكور ــ قدس الله أرواحهما ــ صحبة بزاة على سبيل المهاداة ، ما نصه (١) :

المقام الذى لا يغفل عن بره واجب مفترض ، ولا يقدم على التشيع فيه غرض ، مقام محل أخينا الذى له القدر السامى والرفد الهامى ، والعزم السعيد المرام البعيد المرامى ، السلطان الكذا (أبى عنان فارس) ، ابن السلطان الكذا (أبى الحسن على المرينى) • أبقاه الله كريم الخلال رفيع الجلال ، مبلغا من فضله أقصى الآمال • معظم قدره ، وملتزم بره ، القائم بواجب حمده وشكره ، العارف بأصالة حسبه وكريم نجده ، فلان (السلطان يوسف الأول ابن الأحمر) •

أما بعد حمد الله على آلائه الوافية ، ومننه الكافية ، وألطافه الظاهرة والخافية • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ذى المعجزات البادية ، والآيات الهادية • والرضا عن آله وأصحابه أولى المكارم الباقية ، والأعمال الصاعدة الراقية • والدعاء لمقامكم الأسمى بالعناية الضافية ، واتصال النعم الصافية ، ودوام اليسر والعافية ، فانا كتبناه (٣٩ : ب) اليكم ــ كتب الله لكم من الخيرات أوفرها نصيبا ، وأثبت لكم (فى عزه) (٢) السداد سهما مصيبا ، وخول ملككم الأسمى فى أعداء الله صنعا عجيبا ، وهيأ له من لدنه نصرا عزيزا وفتحا قريبا ــ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وعندنا من التعظيم لجلالكم ما لا يزال متصل الدوام على توالى الأيام ، ومن التشيع لمقامكم آيات ثابتات الأحكام ، والآمال واضحات الاعلام •

والى هذا ــ أيد الله أمركم ــ وأعز بتأييده نصركم ــ فانا بمقتضى الود الذى رسخت قواعده ، ووضحت شواهده ، وتساوى غائبه وشاهده ، لا نزال نسأل عن أحوال مقامكم الرفيعة مصاعده ، ونلتمس ما نستفتح به ودكم الذى اتضحت فى الفضل مقاصده ، وكنا تعرفنا فيما سلف من الأيام أن لملككم اهتماما بجوارح الصيد من الطير ، عملا على شاكلة الملوك الكبار ، فى تنويه الملك الرفيع المقدار ، والاستزادة من آلائه والاستكثار ، وجعل المباح موضوعا لملاذه حسبما يحققه الاعتبار ، فصرفنا وجه النظر الى ما يوفد من ذلك على بابكم ، ويتحف به على جنابكم ، ووجهنا الى ما نأى من البلاد الرومية فى هذا الغرض المروم ، وكلفنا ذلك من يقوم من خدمتنا فيه بالمحدود والمرسوم ، واختيرت لنا منها جملة كافية ، وعدة بهذا القصد وافية ، من الجرافين (٤٠ : أ)

---

(١) هذه الرسالة ذكرت فى الريحانة •

(٢) فى الأصل « فى نقرة » فلعلها كما أثبتناها •

والبزاة وغير ذلك • ولما اقتحمه جالبها من هول البحار ، وما عارضها من اختلاف الطعام ـ وغوائل الأسعار ، هلك معظمها قبل وصوله وبعده ، ولم يخلص منها الا من استشعر منها قوة زائدة وشدة ، وتأخرت منه لكي يخطو بخدمتكم المدة، وهي مايصلكم على يدى بازيارنا [1] الخديم فلان • ومجدكم يلقى ذلك بالقبول الذى يليق بفضله ، والاغضاء الذى لا ينكر على محله • فيعلم الله ما عندنا من البر الموصول لذلك الجلال ، والثناء على ما له من كريم الخلال ، والعمل على ما يوافق أغراضه فى كل الأحوال • ولنا تشوف الى أحوال مقامكم الذى فى تسنى عافيته منتهى الآمال ، فان بفضل اطلاعنا على ما يسر من ذلك بمقتضى الافضال ، فذلك مما نعده من غرر الأعمال ، ونحسبه من عيون ماله من الاجمال • والله تعالى يصل له أسباب السعادة الضافية الأذيال ، والعافية الكفيلة بتمهيد الحال [2] • والسلام •

---

(١) يراد بالبازيار مربى البزاة •

(٢) فى نسخ الريحانة الثلاث (المآل » بدل » الحال » وكلاهما مناسب •

الوثيقة الخامسة عشر

رسالة صادرة من أبى الحجاج يوسف الأول ، الى أبى عنان فارس المرينى · جوابا على رسالة من هذا الأخير ، كان قد بعث بها الى بلاط غرناطة صحبة خيول عديدة مجهزة ، على سبيل الهدية ، وينتهز أبو الحجاج هذه الفرصة فيطلع صديقه أبا عنان على الشئون والعلاقات السياسية مع قشتالة · وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، بيد أن تاريخها يحتمل أن يكون عام ١٣٥٢ م ·

ومن ذلك مراجعة عن هدية جليلة ، تشـتمل على خيل عديدة مجهز ، ولم يوصل من أداها مخاطبة بما نصه (١) :

« المقام الذى يهب الجياد عرابا ، ويرسلها أسرابا ، ويصـل للامداد أسبابا ، ويكدح للعزم شهابا . مقام محل أخينا الذى نؤمل منه ظهيرا مدافعا ، ونصيرا لأعلام الملة رافعا ، ونستوكف من غمام عزماته السامية القتام ريا نافعا ، السـلطان الكذا أبى عنان (٤٠ : ب) بن السلطان الكذا (أبى الحسن) بن السلطان الكذا (أبى سعيد) بن السلطان الكذا (أبى يوسف) بن عبد الحق . أبقاه الله وهباته جزيلة ، ومقاصده فى الاسلام جميلة ، ومظاهرته لا تخيل فيه للدين مخيلة . معظم مقداره الكبير ، المثنى على فضله الشهير ومجده الأثير ، الأمير عبد الله يوسف ، بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر .

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يجعله البدر تاجا فوق جبينه ، ويحمل منه الفجر الصادق لواء بيمينه ، يخص المقام الأعلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله فاتح أبواب السعادة لمن تمسك بطاعته ، وموضح أسباب نجح الارادة لم أفرده بمقام رغبته وضراعته ، جاعل التواصل فى ذاته علاجا يتكفل بصلاح الأحوال فى حينه وساعته . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ضامن حسن المال، وعقبى الظفر بالآمال لمن تعلق بسنته وجماعته ، وعقد بجاهه المكين أكف طاعتـه . صاحب الحوض المورود ، واللواء المعقود . المجير بوسيلته المنقد بشفاعته . والرضا عن آله وأصحابه وأحبابه وأحزابه ، الذين أنفوا لدينه الحق من اهماله أو اضاعته ، وكلفوا باظهاره واعلانه واشهاره واذاعته . والدعاء لمقام أخوتكم السلطانية بالسـعد الذى يخدمه خطى الكتائب بسنانه وخط الكتب ببراعته ، والصنع (٤١ : أ) الذى يقوم الوجود لانبائه المبشرة بحق اشاعته ، ويعمل فيه البيان جهـد استطاعته . فانا كتبناه اليكم ــ كتب الله لكم سعدا تسطر فى نصر الاسـلام جملة ، ونصرا يدنو به للدين الحنيف أمله ، وعزا تبدو به سروره وجذله ــ من حمراء غرناطة ، حرسـها الله ، وودكم فى ذات الله لاحبة سبله ، وأخوتكم لمحض هذا التشيع ضافية حلله .

والى هذا ــ وصل الله قبلك سوابغ الآلاء ، وحرس ما لأخـوتكم الفارسية من العلاء ــ فمن المعلوم عادة وشرعا ، والذائع الذى ليس نكراً ولا بدعا ، أن الهدية وان

---

(١) ثبتت الرسالة أيضا فى نسخ الريحانة الثلاث ، كما وردت ــ فى كل ذلك ــ غير مؤرخة .

كانت سماؤها رذاذا ، وحسناتها أفذاذا ، تستخلص ضمائر المودات ، وتزكى نقود الأذمة المعتقدات . فكيف اذا كانت جيادها عتاقا ، وجردا تستبق الصريخ استباقا ، ومذاكى ملأ الشموس منها أحداقا ، وأتلع [1] العجب لها أعناقا . وأننا وردت علينا هديتكم التى عنيت بدالة الحسن عن خطاب يلتمس لها أذنا ، وكتاب يزيدها حسنا . من كل جواد يرد من ماء الشبيبة رى جواد ، ويقضم حب كل فؤاد . تود الأهلة أن تكون لها سروجا ، وخضراء السماء أن تصير لمرحها مروجا . وترتاح الى الجهاد فى سبيل الله أعطافها ، وتكلف بسورة الأنفال أعرافها . فيالها من كتيبة أغنت عن الكتاب ، وطليعة أنس من الأعتاب بعد العتاب ، (٤١ : ب) كأن خضرها غمس فى ماء الشباب، وحمرها استرفد صبغ الأنامل المطرفة بالعناب . فبرز الى مشاهدتها النظار ، وسارت بوفادتها الأخبار ، وسر المسلمون له وسىء به الكفار . وكيف لا تنظم بها للبشرى عقود ، وتحسب أكف الأمل بيسر منقود ، وقد أخبر الصادق — عليه السلام — أن الخير فى نواصيها معقود [2] . ولما مثلت لدينا تلك الجياد ، والروض الذى صدق فيه الارتياد ، وآن أن يهتز فوق أدواحه الاسل المياد ، وعينا لها فى الحين المواقع التى رجحها الاجتهاد ، واقتضاها الارتباط فى سبيل الله والاستعداد . قابلنا الهدية بالثناء والاستحسان ، وقلنا لا ينكر الوابل على الغمام الهتان ، والفضل على مثابة من مثابات العدل والاحسان . الذى تروق فوق أعطاف الاسلام منه الخبر ، بما صرف الله اليه عزمكم من تجديد ما درس ، وأحيا ما أنفح سلفا واغترس ، من الأساطيل السابحة ، والتجارة الرابحة ، والأعمال الباقية الصالحة . وأن الانشاء قد استدعى اليه الخلق ، والعزم تبلج منه الصباح الطلق ، وشيم منه البرق وذهب الفرق . فلا تسألوا عن موقع هذه الأنباء من صديق يعدها فضلا من الله ومنا ، وعدو يسىء بها ظنا . فلكل منها شرب معلوم [3] ، وحظ مقسوم ، جعله الله قصدا نجحه محتوم ، وعوضه (٤٢ : أ) بمناصحة الله والمسلمين مختوم . وحضر بين يدينا مؤدى الهدية السنية خديمكم فلان ، وألقى — من مقاصدكم الجميلة ، وأغراضكم الأصيلة ، ومواعيدكم الكفيلة — ما أغرينا لسان الشكر بأقسامه ، وأقبلنا مرآة البر مشرقٌ قسامه ، وحملناه من تبريز مثله ما يفى — ان شاء الله — بإتمامه .

وان تشوقتم الى أخبار النصارى فلم يزد — بعد ما تقدم به اعلامكم — الا أن

---

(١) أتلع : مد عنقه تيها وفخرا وتطاولا ، واسم الفاعل منه بوزن محسن ، وهو الرافع رأسه للنهوض . كذا فى اللسان .

(٢) الحديث : « الخيل معقود فى نواصيها الخير » .

(٣) اقتباسا من قوله تعالى : « قال هذه ناقة الله لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم » سورة الشعراء ، آية : ١٥٤ .

طاغيهم رأى أن يعاجل من أخوته من له ببلاد المسلمين اتصال ، وفى الاستبصار بهم مصال ، وليكون منه لما سوى ذلك ممن يستدرك أمره بعد الوقت اغفال ، فطوى المراحل ونازل أخاه « الميشر » ، صاحب قنطرة السيف بمدينة شقورة (1)، وأقام عليها ثمانية أيام ، بين قتال لم يجد مع منعة المدينة معنى ، ومرام صلح أبى الله أن يتسنى . واتصل به عياث من خلف وراء ظهره فى أرضه ، وهلاك بعضه ، والحمد لله ببعضه . فارتحل عن منزله الذى نزله ، وكر أدراجه ولم يبلغ أمله .

هذا ما عندنا فى شأنه ، وما يتزيد نعرفكم به لمكانه . ونحن على ما يجب لأخوتكم من التعظيم والاجلال ، والثناء بما لكم من الشيم الكريمة والخلال ، وهو سبحانه يبلغ الجميع من مرضاته غاية الآمال ، فهو ولى الاجابة وملجأ السؤال ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله .

---

(1) بلدة تقع شمال شرق مدينة ابدة ، وشمال غربى جبال شقورة ، وقد دانت زمن العرب من اعمال ولاية جيان . وتسمى اليوم بالاسبانية «Segura de Sierra»

راجع : الاحاطة ج 1 ص ۱۷۹ تحقيق « عنان » .

الوثيقة السادسة عشرة

من يوسف الأول الى أبي عنان فارس ، يشفع بها لصالح الفقيه الصدر الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق التلمساني ، حتى يصدر له عفو سام من البلاط المريني ، بعد تفنيد المزاعم التي كانت قد لصقت بهذا الشيخ ، وأحفظت عليه صدر أبي عنان . وقد وردت الرسالة مؤرخة ٢٤ رجب عام ٧٥٤ هـ (١٩ يولية ١٣٥٣ م) .

ومما كتب فى غرض الشفاعة ، (٤٢ : ب) بسبب الفقيه الصدر الخطيب أبى عبد الله بن مرزوق الى السلطان المذكور ، بما نصه (١) :

« المقام الذى ظلال فضله ممدودة ، وينابيع جوده موروده ، وأبواب مثابته مقصودة ، وحركات اقباله مرصودة ، وكتائب نصره مؤيدة معضودة ، وجواهر فخره على ترائب الزمان ونحره منسوقة منضودة • مقام محل أخينا الذى نصل الثناء على معاليه ، ونقتص نتيجة النصر من مقدمة وعده وتاليه ، ونردد مفصل حمده ونواليه على استمرار الدهر وتواليه ، ونتوعد العدو الكافر به وبمن يواليه ، وننذره بحلول الآثار العلوية عند شيم بوارق عواليه • السلطان الكذا أبو عنان ، ابن السلطان الكذا (أبى الحسن على ، ابن السلطان الكذا (أبى سعيد المرينى) • أبقاه الله مقصود الجناب

---

(١) هذه الرسالة كما ذكرنا من السلطان أبى الحجاج يوسف الاول ملك غرناطة ، الى معاصره ملك المغرب أبى عنان فارس المرينى ، وقد وردت مؤرخة كما يظهر من نهايتها • وقد ذكرت بنسخ الريحانة الثلاث • أما من وردت فى حقه الشفاعة فهو القاضى الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبى بكر ابن مرزوق ، العجيبى ، التلمسانى ، يكنى أبا عبد الله • ولد بتلمسان عام ٧١١ هـ ، يعد من فقهاء المغرب الاعلام ، وقد ترجم له ابن الخطيب فى الاحاطة ، ووصفه بأنه « طلق الوجه ، حلوب اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الألفاظ ، عارف بالأبواب ، درب على صحبة الملوك والأشراف » ، وفى ميدان المعرفة والثقافة « متسع الرواية ، مشارك فى فنون من أصول وفروع ، وتفسير ، يكتب ويشعر ، ويقيد ويؤلف ، فلا يعدو السواد فى ذلك •• » الخ •• ما وصفه به •

قصد الحج ، وعرج عند عودته على الشام ، ثم مصر ، قبل قفوله الى المغرب ، وفى كل هذه الأقطار التقى بالعلماء المشهورين على عصره ، حسبما يروى فى كتابه ، « عجالة المستوفز المستجاز ، فى ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز ، من ائمة المغرب والشام والحجاز » •

بعثه السلطان أبو الحسن المرينى ملك المغرب سفيرا الى سلطان الاندلس المعاصر أبى الحجاج يوسف الاول أواخر عام ٧٤٨ هـ ، ولما حالت بالسلطان المرينى الأحوال استقر الشيخ بالأندلس ، فرارا من النكبة ، فقد نهبت — يومئذ — رباعة ، وطلب بالمال العريض ؛ لما كان له من مكانة مرموقة لدى السلطان أبى الحسن ، واشتغل بالتدريس فى مدرسة غرناطة ، وتقلد منصب الخطابة بمسجد الحمراء حتى عام ٧٥٤ هـ ، حيث صرف عنه النظر ، فبقى بالعاصمة حتى عاد الى المغرب ، واستقر بباب السلطان الجديد أبى عنان فارس المرينى ، وبقى فى حظوته معززا مكرما حتى مات عام ٧٧١ هـ •

هذا ، وترجع مناسبة كتاب الشفاعة المذكور الى أن سلطان المغرب أبا عنان كان قد بعث ابن مرزوق الى تونس عام ٧٥٤هـ ، ليخطب له ابنة السلطان المعاصر أبى يحيى ، فردت الخطبة ، واختفت بتونس ، روشى الى أبى عنان بأن رسوله ابن مرزوق كان عارفا بمكانها ، فسخط لذلك عليه ، وأمر بسجنه ، فبقى به فترة ، شفع له أثناءها صديقه ابن الخطيب بهذا الكتاب على لسان سلطانه أبى الحجاج ، فأطلق السلطان المرينو سراحه ، ثم رحل الى تونس ، حيث اشتغل فيها بالتدريس والامامة بجامع السلطان ، ومنها انتقل الى القاهرة ، حيث توفى بها فى ربيع الاول ٧٨١هـ •

من مؤلفات هذا الامام العالم شروحه النفيسة المستفيضة على كل من : ابن العمدة ، والشفاء ، وابن الحاجب ، وهذا الأخير هو المسمى بـ « ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب » ، وغيرها ، كما أن له ديوان شعر مشهور •

راجع فى هذا : المقرى ، نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٠٩ — ص ٣٢٨ •

واصلا لمتين الأسباب ، تحيى أسنة كتائبه رسوم ألسنة والكتاب ، وتتكفل عزائمه للاسلام واهله بنيل الطلاب وبلوغ الآراب ، ولا زال سعده مقبل الشباب مفتح الابواب، وصنع الله له انيق الاثواب ، ومراقبته لله تعالى كفيلة بالزلفى وحسن المآب . معظم مثابته العاليه ودرجاته السامية ، المعتد بعزائمه الماضية ، المثنى على مكارمه الوافية وفواصله الكافية ، الداعى لملكه باتصال العز وتوالى العافية . الأمير عبد الله يوسف ، بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر .

سلام كريم ، (٤٣ : أ) بر عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله ولى الحمد وأهله ، والثناء عليه بمتواتر جوده ومترادف فضله، الذى نمحض الود الخالص من أجله ، ونصل اليد على دفاع من حاد عن سبله ، ونخلص الضمائر لاعلاء دينه الحق وجمع شمله . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله خيرة أنبيائه وخاتم رسله ، الذى نعول على جاهه فى الامر كله ، ونأوى فى الدنيا والآخرة الى ظله . ونجعل المودة فى ابتغاء مرضاته وسيلة الى كريم محله . والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه واهله ، المقتدين به فى قوله الكريم وفعله المهتدين بهديه فى ظعنه وحله ، وعقده وحله ، المستمسكين بمتين حبله . والدعاء لمقامكم الأعلى بنصر يمضى فى الأعداء شبا نصله ، وصنع يتكفل للاسلام ببسوق فرعه وثبات أصله . فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم سعدا تطلع به فى أفق الاسلام كواكبه ، ونصرا تسطر فى صحف الأيام عجائبه ، وصنعا الاهيا يعرف بالحاضر منه غائبه ، واعتناء تتيسر به آمال الدين الحنيف ومطالبه ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وعندنا من التشيع لمقامكم عقائد بواطنها بالظواهر معضودة ، وأوقاتها بما يرضى الله ـ عز وجل ـ مشهودة ، وآمالنا بالاعتداد بكم ظلالها ممدودة ، (٤٣ : ب) وجهاتنا بتأميل مقامكم أبواب المخاوف عنها مسدودة . أبقاكم الله بقاء يشرح صدر الاسلام ، وتتهلل له وجوه الأيام ، وحكم لملككم على أعدائه بثبات الأقدام ونصر الأعلام .

والى هذا ، فاننا ـ بعد أن نقدم الواجب الأولى ، والمهم الذى لا نؤثر على تقديمه قولا ، من السؤال عن أحوال ذاتكم السنية ، وتقرير التشيع الى تلكم المثابة السلطانية، وبث ما عندنا من خلوص الضمير وأمحاض النية ـ نعرفكم ـ عرفكم الله أسباب السعادة الأبدية ، ونصر بعزماتكم طائفة الأمة المحمدية ، ونفع المسلمين بما لنا فيكم من المقاصد الودية ـ أن الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبا عبد الله بن مرزوق ـ وصل الله عزته ، ويسر وجهته ـ لما ورد علينا ، واستقر لدينا ـ وهو جملة من جمل الفضل ، والمستولى على أمر الحصل ، وفارس المنابر يروض صعابها ، ويفرع هضابها ـ قمنا جهد امكاننا

بحقه ، وعرفنا له مزية سبقه ، واقتدينا بكم وبباكم الكريم فى ترفيع قدره ، والمثابرة على بره ، وسوغنا لمستفيد العلم مورد افادته ، وشددنا عليه يد الاغتبـــاط فى ابدائه واعادته ، اذ هذا القطر المنقطع يتوفر فيه الاغتباط بحملة السيوف وحملة العلوم ، هو لألاء قامة الجهـاد المحتوم ، وهو لألاء قامة ما للدين من الرسوم ، ومع ذلك فلم يقر له بتمريق شمله قرار ، ولا فارقه اليهم حنين ولا ادكار ، والأوطان (٤٤ : أ) لا تفارقها الأفكار ، والأولاد ثمرة الفؤاد وأفلاذ الأكباد •

ولما صدر فيما تقدم من التماس وصولهم ما لم يهيئه المقدار ولا صحبه الاختيار ، عزم الآن ــ والله يسنى توفيقه ، ويسهل طريقه ــ على قصد بابكم الـكفيل بالأمل ، الضمين لنجاح العمل ، ليجدد العهد بتعظيم مثابته ، ويبث ما يعانيه بسبب تشتت شمله من كاتبه ، ويباشر الرعية بنفسه ، واثقا بتلبية المقام الكريم واجابته • ولم يزل منـه هذا العزم معمل الركائب مفتح الأبواب ، لا سيما مع ما تقدم فى شأنه من مخاطبة ذلك الجناب ، وكنا نكل الأمر الى اختياره عند ورود الخطاب ، فيعتذر بما قرر من الأمور الخاصة والأسباب • والآن أفصح بتغلب شوقه ووجده ، وارتفاع عذره واســتقامة قصده ، وشرع فى اللحاق ببابكم الاعلى بغاية جده ، وطلب منا أن نخاطبكم فى شأنه ، ونستمطر له من مقامكم سحائب احسانه • ونرغب منكم فى تيسـير أمله ورغبتـه ، واسعاف قصده ونيل طلبته • ومقامكم غنى عن التنبيه على من أشــهر بالخلوص له ولسلفه ، والدعاء الصالح فى دياجى الليل وسدفه ، والثناء الكريم الذى يخجل الزهر حين مقتطفه •

فبادرنا الى اسعاف سؤله ، وتيسير مأموله ، وتسهيل سبيله ، وترجيح دليله ، اذ هذه الجهات الودية لا يختلف ــ كما ذكرنا ــ حكمها ، ولا يعفو فى المودة رسمها • (٤٤ : ب) وعرفنا مقامكم بذلك ليكون منه على علم مقرر ، وأصل محرر • ونحن ــ على ما يعلمه مقامكم من التعظيم الذى أسبابه مبرمة ، من التشيع الذى آيته محكمة ، والود الذى حلله مطرزة معلمة ــ لا يمر يوم الا ولدينا عن مقامكم العلى سؤال ، وفى تسنى آماله ــ بحول الله ــ آمال • وهو سبحانه يصل سعودكم ، ويحرس وجودكم • والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

وكتب فى الرابع وعشرين لرجب الفرد من عام أربعة وخمسين وسبعمائة [1] • عرف الله بركته •

---

(١) الموافق ١٩ يوليو ١٣٥٣ م •

الوثيقة السابعة عشرة

رسالة صادرة من السلطان يوسف الأول ، الى السلطان أبى عنان فارس المرينى · للشكر على هدية كان قد بعث بها هذا الأخير اليه · وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، ولكن يحتمل تاريخها فى أواخر عام ١٣٥٣ ـ أوائل عام ١٣٥٤ م ·

وكتب اليه جوابا (١) عن جمال مختارة كثيرة العدد ، بعث بها اليه هدية ، رحمهما الله :

« المقام من مواهبه الابل الهادرة ، والبدن المسارعة الى داعى الله المبـــادرة . ومناقبه المناقب الفاخرة ، ومكارمه فى ضمنها الدنيا والآخرة . مقام محل أخينا الذى ان وهب احتفل ، وان اعتمد فى الله كفى وكفل ، فجلاله فى حلل المكارم قد رفل ، وشهاب سعده من بعد الشروق ما أفل ، السلطان الكذا ، ابن السلطان الكذا (أبى عنان فارس) ، ابن السلطان الكذا (أبى الحسن على) ابن السلطان الكذا (أبى سعيد المرينى) . أبقاه الله ومبراته فروض مودات ، وحقوقه مقدمة مبدات ، وسيوفه هندية وعطاياه هنديات ، ولا زال يفخر منه فى النصر على أعداء الله عدات ، وتصرخ دينه منه جنود منجدات . معظم قدره ، وملتزم بره ، المطنب فى حمده وشكره ، فلان (السلطان يوسف الأول ابن الأحمر) . سلام كريم ، بر عميم ، (٤٥ : أ) يخص مقامكم الأعلى ، ومثابكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله مطرز صحائف الاعمال بالوسـائل البـرة ، ومروض رياض الآمال بسحائب النعم الثرة ، الذى وضع عدله فى الدنيا والآخرة قسطاس الجزاء فلا يضيق مثقال الذرة ، معود هذه الجزيرة ، من أوليائه الكرام السيرة ، لمن يتعـاهدها بالامداد والارفاد ، فى القديم والحديث من الآمال المرة ، ويعامله فيها برعى المصلحة ودرء المضرة . فثغورها تبتسم عن الثغور المفترة ، وتجيل عليها راح الأنباء السارة راح المسرة . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله موئل الأنفس العـائذة وملجأ الأكف المضطرة ، الذى بالتواصل فى ذاته تستجلى سعادة الحال والمآل رائقة الغرة ، وتتقبل وجوه العناية الالهية متألقة الأسرة . والرضـا عن آله وأصحابه أولى السجايا الكريمة والفضائل العميمة والنفوس الحـرة . والدعاء لمقامـكم الأسمى بالســعادة الدائمة المستمرة ، والنصر الذى تمضى نصله فى عدو الله أيدى القدرة ، ولا زال عز ملككم يمهد سبل الجهاد والرباط والحج والعمرة ، ويوضـــح خطيه فى خط الدفاع عن الدين أشكال النصرة ، ويقتضى لغريم الاسلام دين ما وعد الله من الكرة — فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم من حظوظ السعد أوفرها ، وأقطعكم من جوانب الصنع أينعها وأنضرها ، وتولى (٤٥ : ب) صنائعكم الجميلة فشكرها — من حمراء

(١) ذكرت بالريحانة فى أ ، ج .

غرناطة ، حرسها الله ، والثناء عليكم يستغرق أوقات الزمان آصالها وبكرها ، وفضائلكم هى الشمس ضل من أنكرها •

والى هذا ــ وصل الله علاكم ، ونشر بالنصر على أعداء الله لواءكم ــ فاننا نعرف جناب أخوتكم السلطانية ــ بعد تقرير الشكر وتمهيد قواعد البر ــ بورود الهدية الغريبة السافرة عن يمين النقيبة ، وفضل الضريبة ، هدية الجمال ــ اللابسة أثواب الجمال والقلاص ، التى أصبحت بحمل أزواد أهل الجهاد ذات اختصاص ؛ فلقد طلع منها على هذه البلاد المباركة ركب ، له فى العتاقة والأصالة مجال رحب ، من كل نجيب نجيب ، مائل فى المرأى العجيب • وكوما الى الانساب العربية ذات انتماء ، كأنها أهلة حلك ، أو قسى من دائرة فلك • سفائن بر ، وخزائن قانع ومعتر • وكيف لا يسنح لها باليمن طير ، ويكون لها فى مجال السعادة سير ، والله عز وجل يقول : « لكم فيها خير [1] » •

أذكرت أهل هذه البلاد أيام العج والشج [2] ، وصيرت طريق الجهاد كطريق الحج • ترغو فتجيبها الصواهل [3] ، وتعرض عن الماء فتشتاق اليها المناهل • ووصل مؤديها فلان ، وهو الخبير بجزئياتها ، والحافظ لمعانى آياتها ، ومن أنس بجوارها ، وطرب بجراتها سمعه ، واتسع لمعرفة أحوالها ذرعه ، وكان أمله أن يقدم بها على حضرتنا ابلاغا فى المبر (••• [4] • (٤٦ : أ) الا أننا رأينا أن نعفيها من السفر ترفيها ، ونرفع عنها من توعر الطريق ما نتوقع أن يؤثر فيها ، ونتركها بفحص ملقا[5] ــ حرسها الله ــ فى مسرح يخصبها عشبه ، ويرويها شربه ، الى أن نشاهدها بالعيان ، ونعطى حروفها من الخطابة عليها ما يقتضيه علم البيان • ونحن نقابل مقاصدكم الفاضلة بالثناء والاستحسان ، ونشكر ما لأخوتكم الفاضلة من المزايا البرة والسجايا الحسان • والله تعالى يصل لكم سعدا وثيق البنيان ، ويعلى بمظاهرتكم ايانا شعار الايمان • وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم والسلام •

---

(١) اقتباسا من قوله تعالى : «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » سورة الحج ، آية / ١٥٧ •

(٢) العج والعجيج ، وكلاهما بمعنى ، وهو رفع الصوت بالصياح ، والشج القطع • ويقصد : أيام الفتح الأول وما كان فيه من شق الطرق بمثل هذه الابل ، وربما أراد أى غزو سبق للمسلمين فى هذه البقعة ضد جيرانهم النصارى •

(٣) الخيل •

(٤) محو •

(٥) انظر ص ١٠ •

الوثيقة الثامنة عشرة

من السلطان يوسف الأول ، الى أبى عنان فارس ، فى التواد بالمراسلة . وقد وردت الرسالة غير مؤرخة ، ويصعب التكهن – لمضمونها – بتاريخ لها .

ومن ذلك كتـاب فى شـأن تجديد العهـد بالمراسلة ، وتأكيد أحكام المود نصه :

« المقام الذى بره ـ بعين المابرة ـ ملحوظ ، وحقه ـ فى صحف الواجبات المتأكدات ـ محفوظ . مقام محل أخينا الذى مجده ثابت الأركان ، وعزه وثيق البنيان ، وصنع الله له يغنى عن الأثر بالعيان ، ومكارمه يملى أحاديثها الملوان [1] ، وعزائمه يشهد بها موقف الروع وصدر الميدان ، ومقاصده الجميلة كفيلة للاسلام وأهـــله باليمن والأمان . السلطان الكذا (أبى عنان فارس) ، بن السـلطان الـكذا (أبى الحسن على) بن السلطان الكذا (أبى سعيد) بن السلطان الكذا (أبى يوسف يعقوب المرينى [2]) . أبقاه الله مرفعا جانبه ، كريمة أنحاؤه ومذاهبه ، متجددة مواهبه ، مغمورا برضى الله تعالى شاهده وغائبه ، (٤٦ : ب) مصحبة بتأييد الله كتائبه . معظم مقـامه ، مملتزم اعظامه ، المثنى على مجده فى تتابع الدهر وتوالى أيامه ، المعتد فى جهاد الأعداء بعلى مقامه . فلان (السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) .

أما بعد حمد الله الغنى الحميد ، المتكفل ـ لمن اعتمد عليه ـ بالحسنى والمزيد ، الذى نسأله أن يسلك بنا التوفيق والتســديد ، ويؤيدنا بالاعانة على أعدائه الكافرين والتأييد . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى العز العريض المديد ، والشرف الغض الجديد ، مظهر كلمة التوحيد ، الذى لجاهه نلجأ فى الأمر الشديد ، ونستظهر بالعدة الواقية والعديد ، ونرتقب الصنع الجميل وضاح الجبين مشرف الجيد . والرضا عن آله وأصحابه المستولين على البحر البعيد والعز المشيد ، الذين لا تمـل أحاديثهم على الاعادة والترديد . والدعاء لسلطانكم الأعلى بالسعد الجديد والجد السعيد ، والنصر الذى يجلو خدود الصفاح رائقة التوريد ، ويصرف قضاة الصوارم الى الاجتهاد من بعد التقليد ـ فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم من أقسام السعادة أوفرها نصيبا ، وسدد منكم الى الحق والتماس الصدق سهما مصيبا ، وأوضح لكم فى ابتغاء مرضاته ســبيلا رحيبا ، كما نصركم نصرا عزيزا ، وفتح لكم (٤٧ : أ) فتحا قريبا ـ من حمـــراء غرناطة ، حرسها الله ، والود فى مقامكم الأعلى على أوله ، والتشـــيع ينسى ماضيه بمستقبله ، والخلوص يعضد نيته بعمله .

والى هذا ـ أيد الله أمركم وأعز نصركم ـ فاننا لما نثابر عليه من تعرف أنبائكم

---

(١) الملوان : الليل والنهار .

(٢) راجع الوثيقة الخامسة عشرة ؛ حيث يورد ابن الخطيب سلسلة هؤلاء السلاطين المرينيين فى ترتيب تاريخى .

الكريمة على الأحيان ، ونرومه من تقدير الود الصادق الأسرار والاعلان ـ رأينا أن وجهنا الى بابكم الرفيع بكتابنا صحبة أرسالكم الواصلين الينا ، الوافدين علينا ، من تجدد العهد بتقرير ما نبديه من الود ونعيده ، ونلمسه من جميل اعتقادكم ونستزيده، ونشرح ما لدينا من التشيع الصحيحة أسانيده ، وهو القائد (أبو فلان) [1] وهو ممن له ببساطنا مكانه ، وله ـ في طرق الرسالة ـ دربة بها وأمانة ، أصحبناه أرسالكم ، وصل الله كرامتهم ، ويمن ظعنهم واقامتهم ، وألقينا له في جميع الجزئيات التي وردوا فيها ما يلقيه ، وحملناه ما يعيد لمقامكم ويبديه ، مما رجونا حسن منابه فيه • والمراد من مقامكم ـ أسماه الله وأعلاه ، وأعانه على ما تولاه ـ أن يتفضل بالاصغاء لما لديه ، والقبول عليه ، ومحلكم مؤثر للنصفة ، مثابر على الانصاف من ايثار الحق بأحسن الصفة • والله تعالى يزيد ملككم بسطة وتأييدا ، ويطلع عليكم وجه العناية سعيدا ، (٤٧ : ب) ولا يعدمكم من فضله مزيدا ، ويؤتيكم من لدنه توفيقا وتسديدا ، حتى يعود ركن الاسلام بكم شديدا ، وظل الأمان على الايمان مديدا ، بمنه ، والسلام •

(١) لم يرد اسم القائد في الأصل •

الوثيقة التاسعة عشر

هذه الوثيقة والوثائق الثلاث التالية لها ، كلها بعث بها سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف الأول ، الى معاصره بالمغرب السلطان أبى عنان فارس المرينى . وهى فى مجموعها تدور حول مشـــكلة أخى أبى عنان الأمير اللاجىء الى بلاط غرناطة (أبى الفضل ابن أبى الحسن المرينى) وما لابس مسألته من ظروف قد فصلنا القول فيها فى مقدمة هذا الـــكتاب ، عند حديثنا عن العلاقات بين بلاطى غرناطة وفاس بالمغرب ، كما أشرنا الى ملخص لهذه المشكلة فى التعليق على الرسالة الأولى من هذه الوثائق الأربع بالصـــفحة التالية . ومع أن هذه الوثائق المتعلقة بهـــذا الأمر قد وردت غير مؤرخة ، الا أن المؤرخين أجمعوا على أن هذه المسألة قد جرت حوادثها خلال عام ١٣٥٢ م .

« ولما فر أخوه أبو الفضل محمد بن السلطان أبي الحسن من غرناطة ، ولحق بأرض النصارى ليتوصل منها الى بلاد المغرب ، في سبيل التشغيب عليه بعد أن كان السلطان أبو الحجاج – رحمة الله – ضمن له سد هذا الباب ، خوطب بما نصه (١) :

« المقام الذي يبادر بالمتزايدات أعلامه ، ويتأكد على مر الزمان اكباره واعظامه، ويقابل جانبه بالتشيع الثابتة أحكامه الواضحة أعلامه . مقام محل أخينا الذي سعده كفيل بحسن العواقب ، ومجده كلف باحراز المناقب ، وسماء عزه قد زينت من نجوم الفخر بالشهب الثواقب ، فمكائده مسدودة المذاهب ، ومنازعه مغالب الغالب ، ونيته الصالحة ضمينة لنيل المطالب وادراك الرغائب. السلطان (الكذا) أبي عنان ، بن السلطان الكذا (أبي الحسن) ، بن السلطان الكذا (أبي سعيد) ، بن السلطان الكذا (أبي يوسف يعقوب) ، بن عبد الحق ، ابقاه الله عزيز الجلال ، كريم الخلال ، قريب النوال ، بعيد المنال ، كفيلا توكله على الله بحسن المال ، منشرحا صدره في **(٤٨ : ١)** جميع الأحوال . تشهد بمجده ظهور الجياد ، وألسنة البيض الحداد ، **ومواقف** النزال . **معظم** مقامه الذي تعظيمه الفرض المحتوم ، واجلاله يطابق منه **المنطوق** والمفهوم والمنقول والمعلوم ، المثنى على مكارمه التي خجلت منها الغيوم ، ومناقبه التي اقتبست منها النجوم ، فلان (السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) .

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الاعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله عالم خفيات الصدور ، الذي أحاط علمه معرفة بما خفي من جزئيات الأمور ، الكفيل بمن توكل عليه ، وفرض الأمور اليه بالعلو والظهور ، جاعل العاقبة للتقوى كما ورد في كتابه الحكيم المسطور ، الذي في ذاته نعقد أسباب المودة الخالصة على توالي الدهور ، ولابتغاء مرضاته نصل اليد على جهاد العدو الكفور .

---

(١) هذه الرسالة وردت في نسخ الريحانة الثلاث أ ، ب ، جـ . موجهة من السلطان أبي الحجاج ، لى معاصره السلطان أبي عنان فارس المريني ، وقد وردت أيضا في الريحانة ، وهي غير مؤرخه ، ويحتمل تاريخها خلال عام ١٣٥٢ م . وتتلخص مشكلة الأمير أبي الفضل هذا في أنه وفد الى غرناطة شبه منفى من اخيه السلطان أبي عنان ملك المغرب . الذي كان حديث عهد بتدعيم أركان دولته ، ثم عاد فطلب من السلطان أبي الحجاج أن يرد أخاه أبا الفضل هذا الى المغرب ثانية ، فرفض طلبه معتذرا بأنه لا يخفر الذمة في لاجيء مثله ، فغضب أبو عنان وبعث بالرسل والرسائل ، ثم تفاجيء الظروف الموقف فيفر الأمير أبو الفضل من غرناطة الى بلاد النصارى بقشتالة ، وهناك رحب به عدو المسلمين ملكها « بيدرو الثاني » وأمده بأسطول ليحارب أخاه ، ولكن الهزائم لاحقته في النهاية بعد أن أغرق الاسطول ، وسيق مقبوضا عليه ، وزج به أبو عنان في السجن ، حيث قتله خنقا .

راجع في هذا : السلاوي في الاستقصا جـ ٣ ص ١٨٧ – ١٩١ . وكذا الرسائل الثلاث التالية في هذا الخصوص .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد المنبعث [1] بالهدى والنور ، الهادى الى السبيل الواضح ـ والسنن المأثور ، الذى بجاهه نستأصل موارد الشرور ، وببركته نستقبل وجوه الخير بادية السفور ، وبالاعتماد على ركنه الأقوى نعرف عوارف السعد فى الدنيا ويوم النشور • والرضا عن آله وصحبه الذين كانوا فى سماء ملته الحنيفية أمثال البدور ، وفى لبتها (٤٨ : ب) كاللآلىء والشذور ، الذين دافعوا عنه فى حياته بالحسام المطرور [2] ، وخلفوه بعد مماته بالسعى المبرور • والدعاء لمقامكم الأعلى بالنصر الميسور ، والصنع الكفيل للاسلام وأهله بالسرور ـ فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم أسنى مواهب الخير الموفور ، وجعل العاقبة للمكم المنصور ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وعندنا من التشيع فى مقامكم العلى ما هو أوضح من النهار ، وأجلى من شروق الأنوار ، فبحسبه نبادر الى مقامكم بانهاء الأخبار ، ونحرص على بسط الأعذار ، ونبذل من أمحاض النية لكم ما يعلمه العليم بخفيات الأسرار •

والى هذا ـ أيد الله أمركم وأعز نصركم ـ فان الانسان وان توصل الى معرفة الظواهر فالبواطن عنه محجوبة ، والخفيات الى علم الله ـ لا الى غيره ـ منسوبة ، وله بكل شىء أحكام مكتوبة • وكنا قد عرفنا مقامكم الأعلى بما عندنا من صرف نظر الملاحظة الى من لدينا من أخوتكم وبنى عمكم ، بحيث لا يبرح رقيبها ، ولا يختل ترتيبها ، وأننا نصل التفقد لاحوالهم ، ونذكى العيون على أقوالهم وأعمالهم • فجرينا من ذلك على السنن اللاحب ، ولم ندع جهدا الا سلكنا منه أوضح المذاهب (٤٩ : أ) ومن أضمر المكيدة يرتقب أوانها ، ويلتمس مكانها ، والخواطر لا يعلم الا الله شأنها ، ويظاهر حضرتنا أماكن مباركة مشهودة ، وزوايا مؤملة مقصودة ، ينفر اليها الجمهور فى الليالى التى تقوم بها للبر سوق ، وتوفى من تعظيمها حقوق ، وخصوصا ليلة ميلاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؛ ابتغاء البركة لديه ، فهى بحيث ذكر من المواسم التى ينتدب اليها الناس ، وتتسابق منهم الأنواع والأجناس • وان أخاكم أبا الفضل لما كان قد استبطن عقيدة المكيدة ، وآثر اتباع الآراء غير السديدة ، جعل قصد تلك ليلتئذ مسببا لاربه ، وورّى بها عن مذهبه • ومن الغد تفقدناه ففقدناه ، ووصلنا عادتنا فى طلبه ، فتعرفنا ما كان من هربه ، فبادرنا الى توجيه الفرسان فى أثره ، وطيرنا من أنجاد الخدام من يعوقه عن وطره ، والمرحلة التى بيننا وبين بلد النصارى قريبة على من يركض الخيل ، ويقطع بحث ركابه الليل • فألفوه قد لحق بأرض النصارى راكبا فى قصدها الخطر ، ومقتحما فى تأميلها الغرر ، فى جميلة تنتهى الى ثلاثة عشر ، ليس فيهم من به عبرة ، ولا من تميزه شهرة ، الا ما كان من يعقوب بن

---

(١) فى نسخ الريحانة (المبعوث) وكلاهما بمعنى •
(٢) فى نسخ الريحانة « المطهور » وهو مناسب أيضا •

أبي عباد شيطانه الذي أغواه ، وجذبه شيطان هواه وأرداه ، في ورطة (٤٩ : ب) يتعذر معها منجاه ؛ فان من خاطر بنفسه فى قصد بلاد النصارى للغرض الذى قصده ، والمذهب الذى اعتمده ، فلما نجح له عمل ولا تاتى منها له امل ، ولا يساعده حاضر من الزمان ولا مستقبل • فهى متلف وجودها عدم ، ومفازة ليس على الطريق بهـا علم ، قطعت بمن قصدها على القدم ، وقضت بتمزيق الشمل ومزلة القدم ، فامتعضنا لهذا الواقع عندما تعرفناه ، ووجهنا اليه وجه العزم وصرفناه ، ورجعنا على اخيه وابنى عمه باللائمة التى لم تقبل فيها عذرا ، ولا آثرنا فيها صبرا ، وان كنا قد أغرينا بينهم فجعلنا بعضهم على بعض عيونا ساهرة ، ورقبا تبحث عن كل خافية وظاهرة ، فاتهمناهم بكتمان ما استوثقناهم فيه ، والمداهنة فى هذا الامر الذى لا نرتضيـه • فكبسنا منازلهم بالرجال فى حالة واحدة لم نوسعهم فيها امهالا ، ولا فسحنا لهم فى الاقالة مجـالا • وقبضنا على جميعهم مع تباين أمورهم ، وتباعد منازلهم ودورهم ، قبضا هائلا لم يفلت معه منهم أحد، ولا انخرم من جملتهم عدد• وثقفناهم بحمرائنا فى أماكن لهم أعددناها، ورتبنا عليهم الحراسة وحددناها ؛ نكالا لما وقع من الأمر الذى حرصنا على سد بابه ، وجهدنا فى قطع أسبابه •

وبادرنا الى تعريف مقامكم الذى نعتد بجنابه ، (٥٠ : أ) ونمحض له من الود صفو لبابه ؛ ليكون على علم من هذا الواقع الذى اتفـق ، والامر الذى غلب الحـزم عليه قدر سبق ، بمقتضى الود الذى تقرر وتحقق ، والخلوص الذى فـرع وبسـق • ونحن على علم بأن أخاكم اقتحـم بحـرا لا نجـاة لراكبـه ، وامتطى صعبا يقطع به عن مآربه ؛ اذ لا بد للنصـارى من اصحابه الى سـلطانهم ، وهو فى الوقت بداخل قشـتالة ، بحيث تتعـدد المراحل وتطـول الأيام ، تعـذر على قاصـده المرام • وأحوال النصارى فى فتور هذه الأمور لديهم لا تتخيلها الأوهام ، ولم يزل يتصل بهم أهل البسالة من كبار البأس والاقدام ، وأولى المضاء المشهور والاعتزام ، فيستولى على أمورهم الاختلال ، وتشملهم الحاجة وتضيق منهم الأحوال • فمنهم من يرجع أدراجه بعد أن يكون الصفح والاقالة أقصى أمنيته ، ومنهم من يريحه مما تورط فيه حلول منيته • وسعادتكم تتكفل بجريان الأمور أفضل مجاريها ، واستقامة الأحوال على أوثق مبانيها • وقد وجهنا اليكم بكتابنا هذا القائد الكذا [1] ؛ لكونه ممن اتفـق لهذا الأمر حضوره [2] ، وحدثت بمرأى منه أموره • فهو يلقى اليكم فيه ما قررنا ، مما يقتضيه الحب ، ويشرح منه ما أجهله الـكتب • ومقامـكم يصغى الى ما يلقيه ، ويقابل (٥٠ : ب) ما يؤديه • والله سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجـدكم ، والسلام •

---

(١) لم يرد اسم القائد فى الأصل •

(٢) فى نسخ الريحانة الثلاث « لمشاهدة هذا الامر حضوره » وكلا التعبيرين بمعنى •

الوثيقة العشرون

نفس الغرض السابق

« وكتب عنه فى الغرض المذكور بما نصه (١) »

« المقام الذى وده متأكد الوجوب ، ووجه فضله ليس بالمحجوب ، وعقد حبه متقرر فى القلوب ، ونيته الصالحة متكفلة للاسلام وأهله بنيل المطلوب وبلوغ المرغوب. مقام محل أخينا (السلطان أبى عنان فارس المرينى (٢)) الذى شأننا كله تشيع له وخلوص ، وحكم ودنا فيه عموم وخصوص ، وبناء اعتقادنا الجميل فيه على أساس ابتغاء رضوان الله مرصوص . أبقاه الله رفيع القدر عزيز الأمر ، معترفا بوجوب حقه لسان الدهر . معظم مقداره الخليق بالتعظيم ، المثنى على فضله العالى ــ وفضله العميم، المعتمد منه بالذخر الكريم ، فلان (السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) .

أما بعد حمد الله الذى الهامنا اليه من أعظم نعمه ، وهدايتنا اليه من أكرم كرمه، منجع ما خلص من وسائل الود وذممه ، وموفق الآراء الى سلوك قصده الواضح وأممه ، الذى عليه نتوكل فى مبدأ كل أمر ومختتمه ، فنظفر من السعد بأوفر قسمه . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى تسير الأنبياء والارسال تحت علمه ، سيد الكون ما بين عربه وعجمه ، ونور الله الذى أذهب ما تكاثف من غياهب الباطل وظلمه ، وغيث الرحمة الذى تمد يد السؤال الى استسقاء ديمه (٥١ : أ). والرضا عن آله وأنصاره السالكين مناهج سجاياه الشريفة وشيمه ، الأوثق من أتباعه الى أمنع حرمه ، المثابرين على اعلاء معلمه ، المهتدين بفعله وكلمه. والدعاء لمقامكم الأسنى بنصر عزيز تكون الفتوح الغر من خدمه ، وسعد يغنى عن اختيار نصف الفلك الدوار وتعديل أنجمه ، وصنع تثبت لغات العناية الالهية فى محكمه .

فانا كتبناه اليكم ــ كتب الله لكم تأييدا تقر عين الاسلام برسوخ قدمه ــ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زايد بفضل الله الا الخير الذى يقوى بالاعتداد بكم سببه ، ويبين مذهبه ، واليسر الذى يعلى باعانتكم أمل الاسلام ومطلبه . وعندنا من البر بكم عقائد لا يدخل الشك أصولها ، ولا يعترض النقد فصولها ، ولا يفوت الأنام محصولها ، ومن الاعتداد بجهادكم عزمات تشحذ الثقة بالله نصولها ، وآمال يرتب حسن الظن بالله صلتها وموصولها .

والى هذا ــ أيد الله أمركم ، وأعز نصركم ــ فانا بادرنا تعريفكم بما حدث عندنا

---

(١) وردت هذه كذلك فى نسخ الريحانة الثلاث .

(٢) راجع الوثيقة التاسعة عشرة ، فهذه الرسالة فى نفس الغرض السابق .

من قضية أخيكم أبى الفضل ، الذى كنا وثقنا فيما شرطنا عليه من الهدوء والاستقامة بحسن عهده ، ورجونا عمله فيه على شاكلة مجده ، وأصلنا له أصلا ظننا وقوفه عند حده . وأنه فيض له من يعقوب (٥١ : ب) بن أبى عياد مثير عجاجه ، ومنفق لجاجه ، صدع بها شمل سكونه ، واسحاب العافية عليه صدع زجاجة ، فورى بقصده ربط العبادات ، وأماكن القرب المودات ، وقد أضمر الحيلة ، وأكذب فيه المخيلة ، ولحق بالروم فى عدد نزر ، وطائفة لا تستقر بأمر ، متورطا فى لجج هائلة ، مقتديا بآراء مائلة . وأننا اتهمنا أخاه وابنا عمه بالادهان فى قضيته ، بما كان فى طويته ، وأنكرنا عليهم ما كان من اخفاء هذا الغرض الذى أخذنا عليهم فى اعلامنا به أشد الميثاق ، وركبنا ما تقتضيه أصالة الاحساب ومكارم الأخلاق . فقبضنا عليهم قبضا شمل جماعتهم واستوعبها ، وراع جملتهم وأرعبها . وما زلنا نبحث عن أحوالهم . ونواصل التنقير عن أقوالهم وأعمالهم ، ونختبر ما نظن بهم من التهم الداعية الى اعتقادهم ، والريب الحاملة على نكالهم . فثبت عندنا براءة جوانبهم ، وسلامة مذاهبهم ، وحققنا من بسط الأحوال ، واستقل لدينا أتم الاستقلال أن أبا الفضل انفرد عنهم بتدبيره ، وطوى عنهم ما هجس فى ضميره . حتى ركب الخطر الذى يتعذر الخلاص معه ، وآثر الطمع الذى قلما صارع أحدا الا صرعه . وانقضت مدة من ركوبه البحر لم يسمع له خبر ، ولا دلت منه عين على أثر ، (حتى أن حالة التلف أقرب اليه بحسب ماتدل العوائد عليه)[1] . (٥٢ : ١) وما كان الله ليظهر للكم من العجائب ما أظهره ، وأيد سلطانه فى كل موطن ونصره ، الا بخبيئة عناية لا يضر معها كيد من كاده ، ولا ينجح عمل من بسوء أراده ...[2] » .

---

(١) الزيادة بين القوسين ساقطة من الكناسة ، واردة بنسخ الريحانة الثلاث .

(٢) هكذا وجدنا نهاية الرسالة فى كل من الكناسة ونسخ الريحانة ، فلعل الناسخ اقتصر على المضمون ، واستغنى بالتالى عن الختام المعهود .

الوثيقة الحادية والعشرون

نفس الغرض السابق

وكتب اليه (١) – رحمه الله – فى قضية أخيه المذكور، وقد اشتهر أنه ركب البحر يرسم اللحاق ببعض الجبال ، فظهر علية الأسطول المأمور بالترصد له، وأخذ الجفن بالمذكور وبمن معه ، ولم يصح الخبر ، فاستدرك الأمر وأمسك الكتاب:

• المقام الذى شهد الليل والنهار باتصال سعادته ، وجرى الفلك الدوار بحكم ارادته ، وتعود الظفر بمن يناوئه فاطرد – والحمد لله – جريان عادته ، فوليه متحقق لافادته ، وعدوه مرتقب لابادته ، وحلل الصنائع الالهية تضفو على أعطاف مجادته . مقام محل أخينا الذى سهم سعده صائب ، وأمل من كاده خاسر خائب ، وسير الفلك المدار فى مرضاته دائب ، وصنائع الله تعالى له تصحبها الألطاف العجائب ، فسيان شاهد منه فى عصمة الله وغائب ، السلطان الكذا (أمير المؤمنين أبو عنان) ، بن السلطان أبى الحسن ، بن السلطان أبى سعيد ، بن السلطان أبى يوسف يعقوب ، بن عبد الحق . أبقاه الله تعالى مسدد السهم ، ماضى العزم ، تجل سعوده عن تصور الوهم ، ولا زال (٥٢ : ب) مرهوب الحد ممتثل الرسم ، موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعود القسم ، فائزا بفلج الخصام عند لدد الخصم . معظم قدره ، وملتزم بره المبتهج بما يسنيه الله تعالى له من اعزاز نصره واظهار أمره ، ، فلان (السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) (٢) .

سلام كريم ، طيب بر عميم ، (يخص مقامكم السعيد ، ومثابتكم التى حازت فى الفخر الأمر البعيد) (٣) (وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد (٤)) ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله تعالى الذى فسح للمكم الرفيع فى العز مدى ، وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوما وغدا ، وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهابا (٥) رصدا ، وجعل نجح أعماله وحسن مآله قياسا مطردا ، فرب مريد ضره ضر نفسه ، وهاد اليه الجيش أهدى وما هدى . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذى ملأ الكون نورا وهدى ، وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قددا (٦) ، أعلى الأنام يدا ، وأشرفهم محتدا ،

---

(١) وردت الرسالة فى نسخ الريحانة الثلاث أيضا .

(٢) معاصر سلطان المغرب أبى عنان .

(٣) فى نسخ الريحانة (يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ، التى حازت .. الخ) .

(٤) زيادة فى نسخ الريحانة فقط .

(٥) اقتباساً من قوله تعالى : « وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » آية : ٩ من سورة الجن .

(٦) قددا : مفردها قدة مثل سدرة وسدر . وهى الطريقة والفرقة من الناس . وبعضهم يقول : الفرقة من الناس اذا كان هوى كل واحد على حدته ، وهو المراد هنا فى المتن . كذا فى اللسان .

الذى بجاهه نلبس أثواب السعادة جددا ، ونظفر بالنعيم الذى لا ينقطع أبدا • والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمدا ، وأوضحوا من سبيل أتباعه مقصدا وتقبلوا شيمه الطاهرة عدلا وفضلا وبأسا وندى ، فكانوا بالنهار أسدا ، وبالليل ركعا وسجدا ، سيوفا على من اعتدى ، (٥٣ : أ) ونجوما لمن اهتدى ، حتى علت فروع ملته صعدا ، وأصبح بناؤها مديدا مخلدا • والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذى يتصل سرمدا [١] ، والصنع الذى يتوالى مثنى وموحدا • كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب ، على توالى الأحقاب ، يجعل سيفكم سفاحا ، وعلمكم منصورا ، ورأيكم رشيدا ، وعزمكم مؤيدا •

فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله تعالى لكم صنعا يشرح للاسلام خلدا ، ونصرا يقيم للدين الحنيف أودا ، وعزا [٢] يملأ أفئدة الكفر كمدا ، وجعلكم ممن هيأ له أمره رشدا[٣] ، ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد (به) [٤] فى كتابه (العزيز) [٥] والله أصدق موعدا ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زائد بفضل الله سبحانه الا استطلاع سعودكم فى آفاق العناية ، واعتقاد جميل صنع الله لكم فى البداية والنهاية ، والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بآية ، وأجرى جياد السعد فى ميدان لا يحد بغاية ، وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر الا لأصحاب الكرامة والولاية • ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفا ، ويسدل عليه من العصمة سجفا ، تقاسمه الارتياح [٦] لمواقع نعم الله تعالى نصفا ونصفا ، ونعقد بين أبقاء مسرته وبين الشكر لله حلفا ، ونعد التشيع له مما يقربنا الى الله زلفى ، (٥٣ : ب) ونأمل من امداده ، ونرقب من جهاده ، وقتا يكفل به الدين ويكفى ، وتروى غلل النفوس وتشفى •

والى هذا ـ وصل الله سعدكم ، ووالى نصركم وعضدكم ـ فاتنا من لدن صدر عن أخيكم أبى الفضل ما صدر ، من الانقياد لخدع الآمال ، والاغترار بموارد الآل ، وقال رأيه فى اقتحام الأهوال ، وتورط فى هوة حار فيها حيرة أهل الكلام فى الأحوال ، وناصب من أمركم السعيد جبلا قضى الله له بالاستقرار والاستقبال • ومن

---

(١) سرمدا : أبد الدهر •

(٢) فى نسخ الريحانة الثلاث (وعزما) وهو مناسب كذلك •

(٣) اقتباسا من قوله تعالى : « اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا» الكهف • آية : ١٠ •

(٤) زيادة فى نسخ الريحانة أ ، ب ، ج •

(٥) زيادة فى نسخ الريحانة الثلاث •

(٦) فى نسخ الريحانة الثلاث «فقاسمه » •

ذا يزاحم الأطواد ، ويزحزح الجبال ؟ أخلف الظن منا فى وفائه ، وأضمر عملا استأثر عنا باخفائه • واستعان من عدو الدين بمعين قلما يُورى لمن استنصر به زَنْد، ولا خفق لمن تولاه بالنصر بند • وأن الطاغية أعانه وأنجده ، ورأى أنه سهم — على المسلمين — سدده ، وعضب للفتنة جرده ، فسخر له الفلك (١) ، وآمل أن يستخدم بسببه ذلك الملك (٢) ، فأورده الهلك والظلم الحلك ، علما أن طرف سعادته كاب (٣)، وسحاب آماله غير ذات انسكاب ، وقدم عزمه لم يستقر من السداد فى غرز ركاب ؛ فان نجاح أعمال النفوس مرتبط بفضل نياتها ، وغايات الأمور تظهر فى بداياتها ، وعوائد الله تعالى — فيمن نازع قدرته — لا تجهل ، ومن غالب أمر الله خاب منه المعول •

فبينما نحن نرتقب خسارة تلك الصفقة المعقودة ، (٥٤ : أ) وخمود تلك الشعلة الموقودة ، وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ، ويهدى طرف المسرات على أكف الاستبشار ، ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار ، عن الود الواضح وضوح النهار ، والتحقق بخلوصنا الذى يعلمه عالم الأسرار ، فأعاد فى الافادة وأبدى ، وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى • فعلمنا منهم مآل من رام أن يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ، ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود القتام (٤) • هيهات تلك قلادة الله تعالى التى ما كان يتركها بغير نظام • ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حبالة لا يفلتها قنيص ، وسددتم له من السعد سهما ما له عنه محيص ، بما كان من ارسال جوارح الأسطول السعيد فى مطاره ، حائلا بينه وبين أوطاره ، فما كان الا التسمية والارسال ، ثم الامساك والقتال ، ثم الاقتيات والاستعمال • فياله من زجر استنطق لسان الوجود فجدَّله ، واستنصر بالبحر فخذله ، وصارع القدر فَجَدَّله لمَّا جدَّ له !!! وان خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيدة ، ومنتسب الى نصبة (٥) غير سعيدة ، وسائر غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالى وصدور الشفار ، وتحصل منهم من تخطاه الحمام فى قبضة الاسار • فتعجبنا من تيسير هذا المرام ، (٥٤ : ب) واحمدنا الله لهذا الضرام ، وقلنا : تكييف لا يحصل فى الأوهام ، وتسديد لا تستطيع اصابته السهام ، كلما قدح الخلاف زندا أطفأ سعدكم شعلته ، أو أظهر الشتات ألمًا أبرأ يمن طائركم علته • ما ذاك الا لنية

---

(١) الأسطول القشتالى •

(٢) فى نسخ الريحانة الثلاث « وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك » •

(٣) كاب : انكفأ على وجهه •

(٤) القتام : الغبار الشديد •

(٥) فى نسخ الريحانة المذكورة (نسبة) •

صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت ، واسترسلت بركتها وسحت ، وجهاد نذرتموه اذا فرغت شواغلكم وتمت ، واهتمام بالاسلام يكفيه الخطوب التي همت [1]. فنحن نهنيكم بمنح الله ومننه ، ونسأله أن يلبسكم من اعتنائه أوقى جننه ؛ فأملنا أن تطرد آمالكم ، وتنجح في مرضاة الله أعمالكم ، فمقامكم هو العمدة [2] التي يدفع العدو سلاحها ، وتنبلج ظلمات كفره بأنوار صباحها ، وتنام العيون الساهرة تحت ظلال صفحاتها . وكيف لا نهنيكم بصنع ـ على جهتنا ـ يعود ، وبآفاقنا تطلع منه السعود ؟؟ فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت ، ود يَمُه بساحة الود قد وكَفَت [3] . الله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ، ولا يعدمكم عناية وسعادة . وهو سبحانه يعلي مقامكم ، وينصر أعلامكم ، ويهني الاسلام أيامكم ، والسلام (الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته) [4] .

---

(١) في نسخ الريحانة (أهمت) .

(٢) في نسخ الريحانة (العدة) بدل العمدة .

(٣) وكف البيت بالمطر والعين بالدمع وكفا ، من باب وعد ووكوفا ووكيفا ، سال قليلا قليلا ، ويجوز اسناد الفعل الى الدمع ، وأوكف بالألف لغة . كذا في اللسان والقاموس .

(٤) زيادة في نسخ الريحانة فقط دون « الكناسة » .

الوثيقة الثانية والعشرون

نفس الغرض السابق

وكتب عنه جوابا عن التعريف بالقبض على المذكور – بعد هذا – بما نصه (١)

المقام الذى يبدى الفضل (٥٥ : ١) ويعيده ، ويحق الحق ويشيده ، ويزيح الباطل ويبيده ، ويسوغ الطول ويفيده ، فلا يشرئب للترهات جيده ، ولا يخلص وده الأصيل جديده [٢] ، ولا ينفق عنده من القول والعمـــل الا ما ظهر صـــدقه وبان تسديده • مقام محل أخينا الذى برهان وده لا يعارض بالشبهات ، وأصيل اعتقـاده لا يستنزل بالترهات ، وشمس فضله باهرة الآيات ، وجيـــاد مجـده مستولة على الغايات ، السـلطان الكذا (أبو عنـان) ، بن فـلان (أبى الحسن على) بن فلان (عثمان) ، بن فلان (أبى سعيد) • أبقاه الله يعطى الأمور بعقله الرصين حقوقها ، ويحرس أرجاء المـودة – فى الله أن تعتـاد الألافى الكاذبة طـروقها ، وينحنى على غراس السعايات فيتتبع عروقها • معظم مقامه الحقيق بالتعظيم منصبا وشيما ، وموقـر ملكه توقيرا دائما ملتزما ، المثنى على فضله ثناء متمما ، الداعى الى الله فى صلة بقـائه يرفع للاسلام علما ، ويعمر من ربع المجد معلما ، الأمير فلان (يوسف الأول أبو الحجاج) •

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الأعلى وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته •

أما بعد حمد الله مظهر الحق ومعليه ، الذى يحكم آياته وينسخ مايلقى الشيطان ويمليه ، حتى يروق وجه اليقين لمجتليه ، ويفوز بحسن العقبى حـــزبه ومتوليـه • والصلاة (والسلام) [٣] على (٥٥ : ب) سيدنا ومولانا محمد ونبيه الذى جمع الفضل فيه ، وأنقذ الخلق من مهاوى التلف بتلافيه ، فثبت ما كان الضلال ينفيه ، وحصت

---

(١) هذه الرسـالة وردت فى نسخ الريحانة الثلاث ، وهى من السلطان يوسف الاول أبى عنـان فارس ، وتاريخها تقريبى كسابقاتها ، لنفس الموضوع – وهى كما يتضح من مضمونها تفنيـــد للسعاية والمكيدة التى دبرها ابن أبى عياد ضد أبى الحجاج ، فى شأن هرب الامير أبى الفضل ، وهذا يتمشى مع الواقع الذى يراه معظم مؤرخى العصر ، من أن السلطان يوسف الاول برىء من جريمة لحاق أبى الفضل بأرض النصارى ؛ حيث لا مصلحة له فى ذلك ، بالاضافة الى أن الدولة بغرناطة كانت تجتاز يومئذ نفس الظروف التى قاستها منذ بداية تأسيسها تجاه الاسبان •

(٢) فى نسخ الريحانة الثلاث (ولا يخلق من وده الاصيل جديده) •

(٣) زيادة أيضا فى نسخ الريحانة الثلاث •

قوادم الباطل وخوافيه [1] • والرضا عن آله وأصحابه وقرابته وذويه ، الذين كانوا نجوم ناديه وبروق غواديه ، وسيوفه على أعاديه • والدعاء لمقامكم الأسمى ، حرس الله اكناف معاليه ، وعرفه مقدم الفتح وتاليه ، وأبقاه لفخر يبنيه ، وأمل للدين يسنيه ، بالنصر الذى كرمت ألفاظه ومعانيه ، والسعد الذى عذبت مجانيه ، والصنع الذى يجمع للاسلام شتى أمانيه • فانا كتبناه اليكم ـ كتب الله لكم سعدا راياته منشورة ، وصنائع كتائب عناية الله لديه محشودة محشورة ، ومجدا آياته مؤرخة مسطورة ، وقضاياه ذائعة مشهورة ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، والتشيع فيكم قوى سببه ، لاحب [2] مذهبه ، والاعتداد بكم ـ فى سبيل الله ـ صريح نسبه ، جديراً أن يتسنى به للاسلام مطلبه ، ويتحصل للدين الحنيف أربه •

والى هذا ـ وصل الله سعدكم ، ووالى تأييدكم وعضدكم ـ فانا ورد علينا كتابكم الكريم الأنباء ، الباهر السناء ، السافر عن محيا المودة والولاء ، تعرفون بما انتهى اليه حال من عاندكم من التضييق على جهاته ، وأخذكم عليه طرق (٥٦ : أ) منجاته ، وأنكم أقمتم تلقاءه الحصص ، وجرعتموه الغُصص ، وأن الخائن الذى دلاه بالغرور ، وقدح زناد هذه الشرور ، ورام شق عصا الأمة بعد سكون الأمور ، واشراق النور ، يعقوب بن أبى عياد ، أورطه الله فى حبال مكيدته التى نصبها ، وأشرقه مأكلته التى غصبها ، وأمكن منه يد قدرتكم التى عودها التمكين ، وعرفها العز المكين ، وخذله بما جحد من عفوكم الذى ألبستموه ، وحلمكم الذى أوليتموه • فأطفأتم بجدول السيف نار شره ، وحسمتم بعلاج اليد سبب ضره ، وأنفذتم فيه حكم الله سبحانه بمقتضى أمره ، وأنه لما استفهم عن شأنه وأسباب خذلانه ، ختم عار قوله [3] بعار لسانه ، وزعم أن هذه الفعلة التى ارتكبها ، والدرة التى حلبها ـ انما كانت باشارة من جهتنا اعتمدها ، ورمى أمدها • وأن مقامكم الذى أقامه الله قسطاس حق ، وعقلكم الذى لا يلتبس لديه باطل بحق ، أنحى على هذه الدعوى الحنيئة [4]

---

(١) حصت : منعت • والقوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح • والواحدة قادمة • والخوافى : ريشات اذا ضم الطائر جناحيه خفيت والواحدة خافية ، والمراد هنا : الدعاء على الباطل بالاخفاق والفشل •

(٢) لاحب : موطأ ممهد •

(٣) فى نسخ الريحانة الثلاث (وختم عار فعله) وهو الأنسب •

(٤) الباطلة الكاذبة •

بالتكذيب ، ولم يعدها من الممكن البعيد ، فضلا عن الممكن القريب ، وأضرب عن قول العدو في الحبيب ، فاستوفينا ما فسرتم ، وحصلنا ما قررتم • فقابلنا نعم الله عليكم بشكره وحمده ، وسألناه لكم مزيد رفده • ومعلوم أن مقامكم محفوف من الله بعناية ملابسها (٥٦ : ب) لا تخلق ، مكنوف برعاية أنوارها تتألق ، وأنه ـ سبحانه ـ قد اختاركم وهو أعلم باختياره ، وقلدكم الأمانة ولا يفتات عليه في مقداره • فالعجب ممن خفيت عن بصيرته هـذه الدلائل والشـواهد ، أو غابت عنه هـــذه القواعد • زادكم الله من فضله ، وحكم لملككم باعتلاء محله • ونحن نصل شـكركم على التعريف ، ثم على رخص ما ألقاه ذلك الخبيث من الكلام السخيف ، بين يدى الرعب المخيف والجبن المطيف • ومقامكم أصل عقلا ، وأشهر فضلا ، من أن يصغى الى كلام يقوم البرهان على بطلانه ، ويشهد الحس بخسارة قائله وخـذلانه ؛ فالدعاوى اذا وقعت من برىء الجانب ، واضح المذاهب ، لا تقبل عن [1] غير دليـل يعضـدها ، أو شـهادة تؤيدها ، فكيف بها اذا صدرت عن ناكث غادر ، مسارع الى شق عصا الأمة مبادر ، مسـلوب العدالة ، يستنجد خدع النفس الختالة ، ويشاهد في السيف مجرى جريانه المسالمة ؟؟ ونحن نكل الأمر الى علمكم بسيرتنا وسيرة سلفنا ، في اجتنـاب هـــذه الشبهات ، والأغراض عن شيم بوارق الترهات ، والتحفظ عن مداخلة الفتن مهما وقعت بتـلك الجهات • ولا دليل أرجح ، ولا برهان أوضح ، مما شهده كثير من خدامكم الذين بين يديكم ، حسبما يقررون لديكم ، من أن (٥٧ : أ) والدكم ـ محل أبينا السلطان الواجب علينا حقه ، الواضحة في البر والتشيع لدينا طرقه ـ لـما طلب منا الاعانة على ما كان بسبيله ، وصرف الى الانجاد في الأجفان وغيرها وجه تأميله ، قابلنا طلبه بالأعذار ، وأمسكنا عن الركض في ذلك المضمار ، حذرا أن تكون بيننا وبين تلك الجهـة ترة تنعقب عند الهدنة ، أو مداخلة في شيء من هـــذا وحقـوقه تحجنا بألسنة فصيحة ، وتجادلنا بأدلة • أسباب الفتنة صريحة • ولكن اخترنا الوقف مذهبا ، ولم نترك للحجة علينا سببا • والحال في جهتكم عندنا الآن أعظم ، والسبيل ـ بحمد الله ـ أقوم ؛ فانكم زدتم في البر وأربيتم ، وأعدتم في الفضل وأبديتم • وما حمـل أخاكم على ارتكاب الخطر الذى قلما نجا راكبه ، واقتحام البحر المحيط الذى لا تتبين مذاهبه ، ولا تهدى السارين كواكبُه ، وتقبيل يد العدو الكافر وهو العمل الذى لا تمحى مثالبه ، الا لـمّا يئس من مداخلتنا في أمره الذى أبرمه ، واعانته على ما يممه ، وبعد أن سـدت عليه المسالك القريبة من مرمى أمله ، ولم يجد فينا طمعا لقبول قوله ولا عمـله • فانفرد

---

(١) في نسخ الريحانة الثلاث (من) بدل (عن) ولعله أوفق •

بغائلة ضميره ، ولم يطلع غير طائفته على تدبيره . فالذى عملتم فى رفض هـذا القول هو اللائق بدينكم ، وصدق يقينكم ؛ فمثلكم لا يرتاب فى أحبابه وأوليائه ، ولا يلتبس (٥٧ : ب) لديه مذاهب التشيع لعلائه ، وتعريفكم عندنا مقابل بشكر مقامكم الرفيع وثنائه ، على اتصال الدهر وتوالى آنائه . الله تعالى يعرفكم عوارف اعتنائه ، ويجزيكم عن الاسلام خير جزائه ، وينصر عزمكم على أضداد دين الله وأعدائه ، والسلام (الكريم المبارك العميم يخصكم ، ورحمة الله وبركاته [1]) .

---

(١) زيادة في نسخ الريحانة ، ساقطة من نسخة الكناسة .

الوثيقة الثالثة والعشرون

رسالة من السلطان يوسف الأول، الى أبى عنان فارس. يشكره فيها على هديته التى كان قد بعث بها من المغرب، صحبة سفارة خاصة فى هذا الشأن، ذات رسالة حول هذا الموضوع. وقد وردت الرسالة غير مؤرخة، ولكن يحتمل تاريخها فى أواخر عهد أبى الحجاج سلطان غرناطة.

وكتب فى مراجعة هدية حافلة ، تشتمل على خيل وعدة من مهندات ومهاميز ومال عين ، بما نصه :

« المقام الذى من سجاياه الشيم العلى ، ومن عطاياه الجرد العتاق تختال فى الحلى ، ونحاسن عقبان الحق وغزلان الفلا ، والأموال التى جـلى روض الجود من أزهار صفرانها للوجود أبهى مجتلى • مقام محل أخينا الذى قسم زمانه بين رفد مقسوم ، ووعد بالصدق موسوم ، وفضل فى صحف المجد مرسوم ، السلطان الكذا أبو عنان ، بن السلطان الكذا أبى الحسن ، بن السلطان الكذا أبى سعيد ، بن السلطان الكذا (أبى أبى يوسف يعقوب) ، بن عبد الحق • أبقاه الله عالى الهمم ، متوالى الجود والكرم ، تجمع يمينها من سيفها المرهوب ، وسيلها الموهوب بين الرى والصرم ، وتأمن النفوس فى ظل عدله الممدود ، وفضله المقصود ، أمن حمام الحرم • ولا زال ثناؤه فى الخافقين كنصرة خافق العلم ، وأخبار (٥٨ : ١) عزه المأثور ، ومجـده المشهور ، متجرى اللسان والقلم ، وأنوار سعده ماحية للظلم ، وعزما سـيوفه ترتقب فى (••• [١]) السلم • معظم أخوته الرفيعة ، المثنى على ماله من كرم الصنيعة ، المستند ـ من التشيع اليه والاعتداد به ـ الى المعاقل المنيعة ، فلان (السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر) •

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الأسمى ، ورحمة الله وبركاته • أما بعد حمد الله الذى جعل الشكر على المكارم وقفا ، ونهج منه بآرائها سبيلا لا تلتبس ولا تخفى ، وعقد بينه وبين المزيد سببا وحلفا ، وجعل المودة فى ذاته مما يقرب اليه زلفى ، مربح تجارة من قصد وجهه بعمله ، ومبلغه من القبول أقصى أمله ، حتى ترى الشىء ضعفا والواحد ألفا ، وناصر هـذه الجـزيرة من أوليائه الكرام السـيرة بمن يوسعها فضلا (و ••• [٢]) ، ويدنى ثمار الآمال تتمتع بها اجتناء وقطفا • والصلاة على سيدنا ومولانا محمد النبى العربى الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى مد من الرحمـة على الأمة سجفا ، وملأ قلوبها تعاطفا وتعارفا ولطفا ، القائل : من أيقن بالخلف جاد بالعطية ، ووعد من عامل الله بربح المقاصد السنية ، وعدا لا يجد فيه خلفا • والرضـا عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده للاسلام كهفا ، وعلى أهله فى الهواجر ظـلا

---

(١) طمس فى الكناشة ، وفى الريحانتين « وعزما سيوفه ترتقب فى القضا اثر السلم » •

(٢) طمس ، وفى الريحانتين «وعطفا» •

ملتفا . (٥٨ : ب) غيوث الندى كلما شاموا سماحا ، وليوث العدا كلما شهدوا زحفاء والدعاء لمقام أخوتكم الأسمى بالنصر الذى يكف من عدوان الكفر كفا ، والعز الذى يغض من الشرك ناظرا ويرغم منه أنفا ، والمجد الذى لا يغادر كتابه من المفاخر التى ترد الأول للآخر حرفا ، والعزم الذى يفيد جوارح الاسلام قوة لا تعرف بعضها ضعفا - فانا كتبناه اليكم - كتب الله لكم نصرا خافقا علمه ، وسعدا يتبارى فى ميدان الاستقلال - بحسب وظائف الأعمال - سيفه وقلمه ، وصنعا تجلى به عن افق الدين الحنيف ظلمة ، ويشفى بعلاجه الناجع آلمه ، وشكر عن هذه البلاد جودكم الذى وكفت ديمه ، وأبقى عليها وجودكم الذى زلفت شيمه - من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، والتشيع فيكم لا يعرف النسخ محكمه ، ولا يقبل الالتباس معلمه .

والى هذا - شكر الله عن الاسلام صنائع مقامكم ، وعرفه عوارف العز فى غرر أيامكم - فانا وصلنا كتابكم الكريم الوفادة ، العظيم الافادة ، مصحبا بالهدية التى صحبها الكمال ، وصدقت فى احتفائها واحتفالها الامال ، واشتملت على نكايتى العدو وهما الخيل والمال . فكأنه كان لواء نصر خفق أمام كتيبة ، ونسيم زهر عبق (٥٩ : آ) عن روضة عجيبة . ويا لها من هدية اتخذ الناس يومها عيدا ، وموسما سعيدا ، وعزم رآه العدو قريبا وكان يحسبه بعيدا [1] . نتيجة الهمة التى تقف الهمم دون مداها ، وتستقرى الغيوث مساقط نداها ، والشيم التى ترى العواذل فى الجود من عداها ، فلو خير المجد لما تعداها . وقفنا من مضمنه على لجة جود للسان فيها سبح طويل ، ومحجة فضل للأقلام فيها نص وذميل ، من كل طرف وسم بالصباح منه جبين . ناش فى الحلية وهو فى خصام الحرب مبين [2] ، من أشهب للشهب فارع ، ولاحراز الغايات مسارع ، حاسر فى شكل دارع ، كأنما خلعت عليه البزاة البيض صدورها ، وقلدته الكواكب شذورها . وأشقر عسجدى اللباس شعلة من شعل الباس ، كأن أذنه ورد فى الآس ، وغرته الحبابة الطافية فى الكاس ، وأحمر وردى الأديم ، حائز فى حلبة الحسن مزية التقديم ، كأنما صيغ من العندم [3] ، أو صبغ بالرحيق المقدم . يحسده الأسد الورد فى لونه ، وتدعى الريح أنها مادة كونه ، وكمت [4] ما فى خلفه من أمت كأنه قطعة من الغسق ، خالطت دهمتها حمرة الشفق ، وقرطاس كأنه درة ، سمع استحسان

---

(١) اقتباسا من قوله تعالى : «انهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا» سورة المعارج ، آية ٦ ، ٧.

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : «ومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين» . سورة الزخرف آية : ١٨ .

(٣) العندم : دم الأخوين ، كذا فى اللسان .

(٤) ج الكميت وهو الخيل بين الأسود والأحمر . قال ابو عبيد : ويفرق بين الكميت والأشقر بالعرف والذنب ، فان كانا احمرين فهو اشقر ، وان كانا اسودين فهو الكميت ، وهو تصغير اكمت على غير قياس ، والاسم : الكمتة .

الغرر فجاء وكله غرة ، أفق الفجر وسرجة هلاله ، وخالص الدر وسدفة جلاله (٥٩ : ب) وأدهم زنجى البزة ، مرتد الباس والعزة • كأن العيون النجل نفضت عليه سوادها ، والغصون الملد علمته انثناءها وانقيادها • وكل صامت ناطق متصف بزينة معشوق ، ولون غاسق مرينى المنتمى والضرب ، عدة فى السلم والحرب ، قامت قيامة العدو لطلوع شمسه من الغرب • أشبه شمس العالم فى استدارة قرصه وانتقال شخصه ، واعتدال طبعه وعموم نفعه • تعشو عيون الأمانى الى ضوء ناره ، وتدور فراش المطامع حول أنواره ، وتحوم محل الآمال على نواره • وكُمل صقيل الفرند ، منسوب الى الهند ، يخطب من الكلام بمقتضى به ، ويضحك فى الروع عند غضبه • ومن الآلات كل ماثلة فى المرأى الجميل ، مفض همزها للتسهيل • فمَنْ للسان الشكر أن يوفى حقا ، أو يهتدى فى هذه البيداء طرقا • انما نكِلُ الشكرَ لمن سمحتم بذلك المدد فى سبيله ، وأملتم فيه موهبة قبوله • فما هى – فى التحقيق – الا كتائب للعدو جهزتموها ، ومواعيد نصر أنجزتموها ، ومناقب أسلاف جددتموها وأحرزتموها •

وحضر لدينا رسولكم فلان ، فألقى من القول الذى صدقه الفعل ، واللفظ الذى شرحه المجد والفضل ، ما أوثق أسباب الآمال ووصلها ، وأحرزها وحصلها ، وقرر قواعد الاعتقاد وأصّلها • (٦٠ : أ) وقد رأيتم بالاستقرار الصريح والنظر الصحيح ، ما أثمر اعتناؤكم بهذا القطر المتمسك بأسبابكم ، المعتمد على جنابكم ، من صلة نصركم ، واعزاز أمركم ، واتساق سعدكم ، واسعاف مقصودكم • فاشكروا الله الذى أجرى الخير على يديكم ، وألهمكم لما يحفظ نعمه الجزيلة لديكم ، ويضفى ستر عصمته عليكم • وكتبنا اليكم هذا الكتاب ، فلولا أن حمرة مثله معتادة – حسبما اقتضاه عرف وعادة [1] – لقلنا خجل من تقصيره فَعَلَتْهُ حمرةُ الخجل ، لما ضاق عن مراده ذرع المروى والمرتَجل • لكن على اغضاء ذلك المقام المعتمد ؛ فهو الذى بَعُدَ منه – فى الفضل – الأمد • والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام » •

* * *

« الى هنا انتهى ما ألفى من المبيضات التى كتب بها عن السلطان أبى الحجاج رحمه الله ، ما عدا الثابت فى السفر المسمى بالسلطانيات » [2] •

---

(١) يستفاد من هذه الاشارة أن الرسائل السلطانية كانت تكتب باللون الأحمر ، وغالبا ما كان المداد لذلك من الزعفران والورس •

(٢) يغلب على الظن أنها عبارة الناسخ ، الذى لم يتوفر لديه مبيضة الرسالتين التاليتين ، واللتين أشار اليهما ابن الخطيب فى الاحاطة ، حسبما يروى عنه ذلك المقرى فى نفح الطيب كما ذكرناه بالمقدمة •

الوثيقة الرابعة والعشرون

رسالة من السلطان الغني بالله محمد الخامس ، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف الأول ، الى السلطان أبي عنان فارس المريني، في شأن الشفاعة للفقيه قاضي الجماعة بفاس، الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر القرشي المقرى . الذى وصل الى الأندلس في أوائل جمادى الثانية من عام ٧٥٧ هـ، في سفارة خاصة عقدها له سلطان المغرب المذكور، فلما قضى غرض الرسالة وارتحل عن غرناطة العاصمة ، بدا له عند وصوله مالقه أن يستقر بها ، وينبذ الخدمة السابقة لدى سلطان المغرب ، وشاع هذا الخبر في كل مكان حتى أسماع السلطان أبي عنان ، فأنكر منه ذلك وتوعده . فعاد الشيخ الى غرناطة مستجيرا مستشفعا ، فصدرت له هذه المكاتبة والتي تليها ، وقد حملها ـ صحبته ـ الى المغرب كل من الشيخين: قاضي الجماعة أبي القاسم الحسني السبتي، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج البلفيقي، « مشافهين بالشفاعة في غرضه ، فانقشعت الغمة ، وتنفست الكربة » (١) .

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ١٣٤ .

« المقام الذى يحب الشفاعة ويرعى الوسيلة، وينجز العدة ويتم الفضيله ، ويضفى مجده المنن الجزيلة ، ويعيى حمده الممادح العريضة الطويلة . مقام محل والدنا الذى كرم مجده ، ووضح سعده ، وصح فى الله تعالى عقده ، وخلص فى الاعمال الصالحه قصده ، وأعجز الالسنة حمده . السلطان الكذا (أبى عنان فارس) ابن السلطان الكذا (أبى الحسن على) ، ابن السلطان الكذا (أبى سعيد المرينى) أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها ، وشفاعة يكرم مسعاها ، وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطبع الكريم اذا دعاها ، معظم سلطانه الكبير ، وممجد مقامه الشهير ، المتشيع لأبوته الرفيعة قولا باللسان واعتقادا بالضمير ، المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمى والولى النصير ، فلان (السلطان الغنى بالله محمد الخامس ، بن السلطان أبى الحجاج يوسف الأول ، ابن الأحمر [1]) .

سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى جعل الخلق الحميدة دليلا على عنايته بمن حلاه حلاها ، وميز بها النفوس النفيسة التى اختصها بكرامته وتولاها ، حمدا يكون كفؤا للنعم التى أولاها ، وأعادها ووالاها . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله المترقى من درجات الاختصاص أرفعها وأعلاها ، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها ، مطلع آيات السعادة يروق مجتلاها . والرضا على آله وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها ، وعسل ذكرهم[2] فى الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها . والدعاء لمقام أبوتكم حرس الله تعالى علاها ، بالسعادة التى يقول الفتح أنا طلاع الثنايا وابن جلاها[3] ، والصنائع التى تخترق المفاوز بركائبها المبشرات فتفلى فلاها ، فانا كتبنا اليكم ـ كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء ، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء ، وقلدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشيد لذاتكم منة وبسابقة الاعتناء ـ من حمراء غرناطة ، حرسها الله والود باهر السناء ، مجدد على الأناء ، والتشيع رحب الدسيعة والفناء .

---

(١) راجع تاريخ الرسالة فى نهايتها ، ومنه يتضح أن هذا السلطان هو معاصر أبى عنان المذكور .

(٢) عسل ذكرهم : وجده الناس طيب المذاق ، واستعذبوا الحديث عنهم .

(٣) أخذا من مقالة أبى الحجاج يوسف الثقفى ، وصدرها هذا البيت المشهور :

انا ابن جلا طلاع الثنايا   متى أضع العمامه تعرفونى

والى هذا ، وصل الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ! _ فاننا خاطبنا مقـامكم الكريم فى شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبى عبد الله المقرى خار [1] الله تعالى لنا وله ، وبلغ الجميع من فضله العميم أمله ، جوابا عما صدر عن مثابتكم فيه من الاشارة الممتثلة ، والمآرب المعملة ، والقضايا غير المهملة ، صادركم بالشفاعة التى مثلها بأبوكم لا يرد ، وظمآها على نهل قبولكم لا تحلأ [2] ولا تصـد ؛ حسبما سنة الأب الـكريم والجد ، والقبيل الذى وضح منه _ فى المكارم _ الرسم والحد • ولم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيلة ، وتبلج صبح الزهادة والفضيلة ، وجود النفس الشحيحة بالعرض الأدنى البخيلة ، وظهر تخليه عن هذه الدار ، واختـلاطه باللفيف والغمار ، واقباله على ما يعنى من مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار • وكنا لما تعرفنا اقامته بمالقة لهذا الغرض الذى شهره ، والفضل الذى أبرزه للعيان وأظهره ، أمرنا أن يعتنى بأحواله ، ويعان على فراغ باله ، ويجرى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله ، وقلنا أما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله ، ففر من مالقة على ما تعرفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا (غرناطة) مستور المنتقى والمنتسب ، وسكن بالمدرسة [3] بعض الأماكن المعدة لسكنى المتسمين بالخير والمحترفين ببضـاعة

---

(١) خار وتخير بمعنى ، والجملة دعائية •

(٢) فى الأصل « تجل » ، واحسبها محرفة عن « تحلأ » بمعنى تمنع عن الماء •

(٣) وتسمى مدرسة غرناطة أو المدرسة النصرية ، من مفاخر السلطان أبى الحجاج ، على يد حاجبه أبى النعيم رضوان ، أنشأها عام ٧٥٠هـ (١٣٤٩ م) ، كانت تقع فى درب ضـيق يحاذى شارع الملكين الكاثوليكيين ، تجاه المدفن الملكى ، بيد أن مبناها القديم قد أزيل منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وانشأت البلدية مكانه مبنى حديثا ، ولم يتبق من المبنى الاصلى سوى الجناح الذى يشتمل على المحراب ، ويضـم مجموعة من النقوش والزخارف ، زانتها الآيات القرآنية التى انتشرت به ، هذا وتوجد بمتحف غـرناطة « الاركيولوجى » بعض اللوحات الرخامية الخاصة بهذه المدرسة ، منها قطع منثورة تشكل فى الجملة لوحة انشاء هذه المدرسة ، ونصها :

« أمر ببناء هذه الدار للعلم ، جعلها الله استقامة ونورا ، وأدامها فى علوم الدين على الايام ، أمير المسلمين _ أظله الله بعونه _ العلى الشـهير الكريم ، السعيد الطاهر الرفيع الهمـام السلطان المؤيد ، أبو الحجاج يوسف ، ابن العلى الكريم ، الكبير الخطير ، الشهير المجـاهد ، الفاضل العـادل ، المقدس الأرضى ، أمير المسلمين ؛ وناصر الدين * أبى الوليد اسماعيل ، بن فرج ، بن نصر ؛ كافى الله فى الاسلام صنائعه الزاكية ، وتقبل أعماله الجهادية ، وتم ذلك فى شهر محرم عام خمسين وسبعمائة » •

وتعد هذه اللوحة واحدة من عدة لوحات خاصة بهذه المدرسة ، قد نزعت منها عند هدمها ، ونقلت الى مختلف المتاحف الاسبانية •

وقد نظم الوزير ابن الخطيب قصيدة تشيد بالمدرسة ومنشئها ، كانت منقوشة على احدى حوائط المدرسة ، وهى ميمية القافية ، وتتألف من تسعة أبيات مطلعها :

ألا هكذا تبنى المـدارس للعلم ... وتبقى عهـود المجد ثابتة الرسم
ويقصد وجه الله بالعمـل الرضا ... وتجنى ثمـار العز من شجر العزم
تفاخر منى حضرة الملك كلمـا ... تقـدم خصم فى الفخار الى خصم
فأجدى اذا ضن الغمام من الحيا ... وأهدى اذا جن الظـلام من النجم
فياظاعنا للعـلم يطلب رحـلة ... كفيت اعتراض البيـد او لجج اليم
بيابى حط الرحل لا تنو وجهـة ... فقد فزت فى حال الاقامة بالغنم =

الطلب ، بحيث لم يتعرف وروده ووصوله الا ممن لا يؤبه بتعريفه ، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلة تصريفه ثم تلاحق ارسالكم الجلة فوجبت حينئذ الشفاعه ، وعرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة • وقررنا ما تحققناه من أمره ، وانقباضه عن زيد الخلق وعمره ، واستقباله الوجهة التى من ولى وجهه شطرها وقد آثر أثيرا ، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلا كبيرا وخيرا كثيرا • وسألنا منكم ان تبيحوه ذلك الغرض الذى رماه بعزمه ، وقصر عليه أقصى همه ، فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقى وقسمه ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه ، ويعول البرىء على فضله ويثق المذنب بحلمه • فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان وهو أرب من آراب ، وفائدة من جراب ، ووجه من وجوه عراب • فرأينا أن المطل بعد جفاء ، والاعادة ليس يثقلها خفاء ، ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء ، وبادرنا الآن الى العزم عليه فى ارتحاله ، وأن يكون الانتقال عن رضا منه من صفة حاله • وأن يقتضى له ثمرة المقصد ، ويبلغ طية الاسعاف فى الطريق ان قصد ؟ اذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله من مثلكم حاصلا ، والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلا ، وطالب كيمياء [1] السعادة باعانتكم واصلا ، ولما مدت اليد فى تسويغ حالة هديكم عليها أبدا يحرض ، وعلمكم يصرح بمزيتها ولا يعرض • فكملوا — أبقاكم الله — ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديث هذه الأباحة فهو أصح حديث فى الباب ، ووفوا غرضنا من مجدكم ، وخلوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب ، وقصد غافر الذنب قابل التوب باخلاص المتاب [2] ، والتشمير ليوم العرض وموقف الحساب ،

فكم من شهاب فى سمائى ثاقب ومن هالة — دارت على قمر — ثم
يفيضون من نور مبين الى هدى ومن حكمة تجلو القلوب الى حكم
جزى الله عنى يوسفا خير ماجزى ملوك بنى نصر عن الدين والعلم

كما أوقف ابن الخطيب على المدرسة نسخة من كتابه الاحاطة ؛ اعترافا منه بيد أبى الحجاج عليه ، ولانتفاع الدارسين بها بمؤلفه ، التاريخى الكبير ، وقد ذكر فى حجة الوقف أن تلك النسخة تتألف من اثنى عشر سفرا ، متصفة الخط والعمل ، وسطرت الحجة بأول سفر منه ، وكان نسخها بتاريخ رجب ٨٢٩ هـ • كما أوقف صاحب الفضل فى احداث المدرسة الحاجب أبو النعيم رضوان — بأمر السلطان — الأوقاف الجليلة عليها ، حتى « جاءت نسيجة وحدها ، بهجة ورصدا وظرفا وفخامة » •

هذا ، وقد تولى التدريس بهذه المدرسة نخبة ممتازة من العلماء الذين زخر بهم عصر يوسف الأول منهم — على سبيل المثال — الشيخ أبى سعيد فرج بن لب (٧٠١ — ٧٨٢ هـ) ، والشيخ أبو جعفر أحمد ابن على بن محمد بن خاتمة الانصارى (٧٢٤ — ٧٧٠هـ) وهما من أشهر أساتذة هذه المدرسة ، وتربطهما بالوزير ابن الخطيب صلات أدبية وعلمية معروفة ، كالقاضى صاحب كتاب الشفاعة هذا •

راجع فى هذا كلا من ابن الخطيب فى « الاحاطة » ج ١ ص ٥١٦ — ٥١٧ ، المقرى فى نفح الطيب ج ٩ ص ١٨٦ ، ٣٠٨ — ٣١١ •

(١) يستفاد من ورود هذه الكلمة (الكيمياء) أنها كانت مستعملة بمعناها العلمى فى ذلك العصر •

(٢) اقتباسا من قوله تعالى : « غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول لا اله الا هو واليه المصير » سورة غافر ، آية : ٤

وأظهروا عليه عناية الجناب ، الذى تعلق به ـ أعلق الله به يدكم ـ من جناب ، ومعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكملة الآراب [1] ، وقد بعثنا من ينـوب عنـا فى مشافهتكم بها أحمد المناب ، ويقتضى خلاصها بالرغبة لا بالغِلاب ، وهما فلان وفلان (أبو القاسم السبتى [2] وأبى البركات البليفيقى) ولولا الاعذار لكان فى هذا الغرض اعمال الركاب ، يسبق اعلام الكتاب . وأنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ، ويربى [3] على التأميل ، ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة التسجيل ، وهو سبحانه يبقيكم لتأييد المجد الأثيل ، وانالة الرفد الجزيل ، والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى ورحمة الله تعـالى وبركاته . فى الحـادى والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة » [4] .

(١) الآراب ، جمع أرب ـ بوزن سبب وأسباب ـ وهو المطلب والبغيه .
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٤ .
(٣) يربى : يزيد .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٥ ـ ١٣٨ .

الوثيقة الخامسة والعشرون

من سلطان غرناطة الغنى بالله محمد الخامس، الى سلطان المغرب أبى عنان فارس فى نفس الغرض السابق .

« .... والى هذا ، فاننا وقفنا على كتابكم الكريم فى شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبى عبد الله المقرى ، وفقنا الله واياه لما يزلف لديه ، وهدانا لما يقرب اليه ، وما بلغكم بتقاعده بمالقة ، وما أشرتم به فى أمره ، فاستوفينا جميع ما قررتم ، واستوعبنا ما أجملتم فى ذلك وفسرتم ، واعلموا يا محل والدنا - أمتعنا الله ببقائكم الذى فى ضمنه اتصال السعادة ، وتعرف النعم المعادة - أننا لما انصرف عن بابنا هو ومن رافقه عن انشراح صدور ، وتكييف جزل بما تفضلتم به وسرور ، تعرفنا أنه تقاعد بمالقة عن صحبه ، وأظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربه ، وصرف الوجه الى التخلى مشفقا من ذنبه ، واحتج بأن قصده ليس له سبب ، ولا تعين له فى الدنيا أرب ، وأنه عرض عليكم أن تسمحوا له فيما ذهب اليه ، وتقروه عليه ، فيجعل البدار ، ويمهد تحت ايالتكم القرار ، فلما بلغنا هذا الخبر ، لم يخلق الله عندنا به مبالاة تعتبر ، ولا أعددناه فيما يذكر ، فكيف فيما ينكر ، وقطعنا أن للأمرفيه هين ، وأن مثل هذا الغرض لاتلتفت اليه عين ؛ فان بابكم غنى من طبقات أولى الكمال ، ملى بتسويغ الآمال[1] موفور الرجال ، معمور بالفقهاء العارفين بأحكام الحرام والحلال ، والصلحاء أولى المقامات والأحوال ، والأدباء فرسان الروية[2] والارتجال ، ولم ينقص بفقدان الحصى أعداد الرمال ، ولا يستكثر بالقطرة جيش العارض[3] المثال ، مع ما علم من اعانتكم على مثل هذه الأعمال ، واستمساككم باسعاف غرض من صرف وجهه الى ذى الجلال .

ولو علمنا أن شيئا يهجس فى الخاطر من أمر مقامه ، لقابلناه بعلاج سقامه ، ثم لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزا فى طور التقلل والتخفيف ، خالطا نفسه باللفيف ، قد صار نكرة بعد العلمية والتعريف ، وسكن بعض مواضع المدرسة (اليوسفية) منقبضا عن الناس لا يظهر الا لصلاة يشهد جماعتها ، ودعوة للعباد يخاف اضاعتها . ثم تلاحق ارسالكم الجله ، الذين تحق لمثلهم التجلة ، فحضروا لدينا ، وأدوا المخاطبة الكريمة كما ذكر الينا ، وتكلمنا معهم فى القضية ، وتنحلنا فى الوجوه المرضية ، فلم نجد وجها أخلص من هذا الغرض ، ولا علاجا يتكفل ببرء المرض ، من أن كلفناهم الاقامة التى يتبرك بيمن جوارها ، ويعمل على ايثارها ، بخلاف ما نخاطب مقامكم بهذا

---

(١) ملى : أراد كفيل ضامن ، وتسويغ الآمال : اجازة المطلب وجعله سائغا .

(٢) الروية : التأنى فى الأمر والتمهل ، ويقابلها الارتجال .

(٣) السحاب المعترض فى الأفق ، والمثال : أراد المطر مطرا متتابعا .

الكتاب الذى مضمونه شفاعة يضمن حباؤكم احتسابها ، ويرعى انتماءها الى الخلوص وانتسابها ، ويعيدها قد أعملت الحظوة أثوابها .

ونقصدكم ومثلكم من يقصد فى المهمة ؛ فأنتم المثل الذائع فى عموم الحلم وعلو الهمة ، فى أن تصدروا له مكتوبا مكمل الفصول ، مقرر الفصول ، يذهب الوجـل ، ويرفع الخجل ، ويسوغ من مآربه لديكم الأمل ، ويخلص النية ويرتب العمل ، حتى يظهر مالنا عند أبوتكم من تكميل المقاصد ، جريا على ما بذلتم من جميل العوائد، واذا تحصل ذلك كان بفضل الله ايابه ، وأناخت بعقوة وعدكم[1] الوفى ركابه ، ويحصـل لمقامكم عزه ومجده وثوابه ، وأنتم ممن يرعى أمور المجد حق الرعاية ، ويجرى فى معاملة الله تعالى على أسس من فضله البداية ، وتحقق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حوزة الاسلام والحماية . هذا ما عندنا أعجلنا به الاعلام ، وأعملنا فيه الأقلام ، بعد أن أجهدنا الاختيار وتنحلنا الكلام . وجوابكم بالخير كفيل ، ونظـركم لنـا وللمسلمين كفيل . والله تعالى يصل سعدكم ويحرس مجدكم . والسلام[2] » .

(١) وقع فى بعض النسخ « بعقرة وعدكم » وأحسبه محرفا عما أثبته . والعقوة ـ بالفتح ما حـول الدار ، وساحتها ، والمحلة ، ويقال « ما يطور بعقوة فلان أحد » اى ما يدنو أحد من ساحته .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

ملحق

فترات السلم وفترات الحرب
فى عهد السلطان يوسف الأول

منذ عهد تولية السلطة حتى وفاته

٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤ ميلادية

فترات السلم ، وفترات الحرب
في خلال عهد السلطان يوسف الاول
منذ توليه السلطة حتى وفاته
٧٣٣ - ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤م [١]

عام ١٣٣٣ م :

فى ١٨ محرم ٧٣٤ هـ (٢٩ سبتمبر ١٣٣٣م) بعث الحاجب أبو النعيم رضوان النصرى بأمر الملك أبى الحجاج بأول رسالة الى ملك أراجون « ألفونسو السادس » بتجديد معاهدة السلم والصداقة .

وفى نفس التاريخ ، هناك رسالة أخرى من السلطان ، لنفس ملك أراجون ، تتضمن نفس الغرض المذكور .

فى أغسطس ١٣٣٣ م عقدت معاهدة سلم ، لمدة أربع سنوات بين غرناطة والأمير المغربى أبى مالك بن السلطان أبى الحسن المرينى من جهته ، وبين مملكة قشتالة من جهة أخرى .

فى ١٦ أكتوبر ١٣٣٣م عقدت معاهدة هدنة بين مملكتى غرناطة وقشتالة ، لمدة شهرين فقط ، أى حتى ١٥ ديسمبر ١٣٣٣م .

عام ١٣٣٤ م :

فى ٢٠ جمادى الثانية ٧٣٤هـ (٢٦ فبراير ١٣٣٤ م) عقدت اتفاقية سلم بين مملكتى غرناطة وبنى مرين بالمغرب من جهة ، وبين مملكة قشتالة من جهة أخرى ، ويسرى مفعولها من أول مارس ١٣٣٤ م حتى ٢٨ فبراير ١٣٣٨ م .

فى ٢٠ رمضان ٧٣٤ هـ (٢٥ مايو ١٣٣٤ م) بعث القائد الحربى العام عثمان أبو العلا برسالة الى « ألفونسو الرابع » ملك أراجون ، ورفق الرسالة اتفاقية سلميه معتمدة وممهورة من غرناطة .

---

(١) راجع فى هذه الأحداث والمعاهدات كافة :
Los documentos arabes deplomaticos del archivo de la cronica de Aragon, por Alarcon, y Garcia de Linares (Madrid-Granada 1940).

عام ١٣٣٥ م :

فى ٣٠ جمادى الثانية ٧٣٥هـ (٢٤ فبراير ١٣٣٥م) بعث السلطان يوسف الأول برسالة الى « ألفونسو الحادى عشر » ملك قشتالة ، يعلمه فيها برغبة مملكة غرناطة في عقد معاهدة سلم بينهما .

فى ٤ يونيو ١٣٣٥م عقدت معاهدة صداقة ، وتبادل منافع ، ومعونات حربية ، بين مملكتى غرناطة وأراجون فى الشمال .

وفى أواخر ذى الحجة من عام ٧٣٥هـ (١٥ يوليو ١٣٣٥ م) أبرمت معاهدة بين أراجون وغرناطة ، تبعا لشروط معقودة بين « ألفونسو الحادى عشر » ملك قشتالة ، وبين السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب .

وفى ٢٧ ذى القعدة ٧٥٣هـ (١٩ يوليو ١٣٣٥م) بعث الحاجب أبو النعيم رضوان بموافقة الى ألفونسو الرابع ملك أراجون ، فى شأن معاهدة بين المملكتين .

وفى نفس التاريخ بعث السلطان أبو الحجاج برسالة الى هذا الملك ينهى الى علمه بأنه قد وقع هذه المعاهدة .

عام ١٣٣٦م :

فى الرابع من ذى القعدة عام ٧٣٦هـ (١٤ يوليو ١٣٣٦م) جددت المعاهدة بين غرناطة وأراجون .

عام ١٣٣٩م :

فى صيف هذا العام قام السلطان أبو الحسن المرينى بتعزيز الحامية المغربية فى جنوب الأندلس بالنجدات العسكرية ، وظاهرته فى هذا الاجراء غرناطة[1] .

عام ١٣٤٠ م :

فى ١٦ أبريل شبت الحرب بين جيوش المغرب بقيادة الامير أبى مالك وبين الجيوش القشتالية الارجونية ، فى موقعة تسمى – معركة استريتشو – Batalla de Estreach هزم فيها النصارى بادىء ذى بدء ، كما قتل القائد النصرانى « الدون

---

(١) راجع فى هذا :
أرشيف تاج ألفونسو الحادى عشر وثيقة : ٢٩٢ .
Cronica Alfonso XI BAE, TLXVI, 292.

جوفرى تينوريو » ، ثم دارت الدائرة على المسلمين ، وقتل الأمير أبو مالك ، على نحو ما فصلنا القول فيه آنفا •

وفى يونيو من نفس العام رابط السلطان أبو الحسن المرينى بجيوشه فى جنوب الأندلس ، قرب مدينة طريف التى كانت ترابط تجاهها الجيوش النصرانية والبرتغالية أيضا ، وكانت الجزيرة الخضراء وجبل طارق ـ يومئذ ـ تحت سيطرة المغاربة •

وفى ٧ جمادى الأولى ٧٤١هـ (٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م) حدثت « معركة طريف الكبرى » وانتهت ـ بعد هزيمة المسلمين ـ باستيلاء ألفونسو الحادى عشر على بعض المدن بجنوب الاندلس كالقلعة وبيغو والجزيرة الخضراء •

عام ١٣٤٢ م :

فى أغسطس من هذا العام حط ألفونسو الحادى عشر بجيوشه ازاء الجزيرة الخضراء •

عام ١٣٤٣ م :

فى نوفمبر من هذا العام حدثت معركة وادى « بالمونيس » ، بين جيوش غرناطة وبنى مرين من جهة ، وبين جيوش قشتالة من جهة أخرى ، وانجلت المعركة عن هزيمة الغرناطيين والمرينيين[1] •

عام ١٣٤٤م :

فى ٢٦ مارس من هذا العام استرد ألفونسو الحادى عشر مدينة الجزيرة الخضراء ، ودخلها فى اليوم التالى مباشرة ، بعد أن كان قد استردها المسلمون من الأسبان •

وفى ابريل ١٣٤٤م عقدت معاهدة سلم بين غرناطة وقشتالة بالجزيرة الخضراء ، وقد بعث السلطان يوسف الأول برسالة الى سلطان المغرب ـ وقتئذ ـ أبى الحسن المرينى ، يعلمه فيها بأمر هذه المعاهدة ، وقد وردت هذه الرسالة غير مؤرخة ، بيد أن موضوعها يدور حول مضمون تلك المعاهدة •

---

(١) راجع فى هذا : Aguado Bleye, 714.

وفى ١٤ يونيو من نفس العام وقعت معاهدة ودية بين مملكتى غرناطة وأراجون فى الشمال •

وفى يوليو ١٣٤٤م بعث السلطان أبو الحسن المرينى الى القاهرة بسفارة مغربية، ومعها رسالة منه ، الى سلطان مصر اسماعيل بن قلاوون مؤرخة ٢٦ صفر ٧٤٥ هـ (٩ يوليو ١٣٤٤م) •

وفى ١٦ شعبان ٧٤٥هـ (٢٣ ديسمبر ١٣٤٤ م) بعث السلطان يوسف الاول بسفيره العسكرى القائد ابن كماشة الى ملك أراجون حينئذ ، مفوضا بتجديد معاهدة الصلح آنفة الذكر •

عام ١٣٤٥ م :

فى ٢٦ من رمضان ٧٤٥هـ (أول يناير ١٣٤٥م) وصل جواب السلطان اسماعيل ابن قلاوون ، على رسالة سلطان المغرب أبى الحسن المرينى ، وكان تاريخ الرسالة ٢٩ يوليو ١٣٤٤ م ، وفيها مواساة لهزيمة معركة طريف ، واعتذار رقيق عن طلب المعونة الحربية المصرية •

فى ٤ ربيع الأول ٧٤٦هـ (٥ يوليو ١٣٤٥م) بعث السلطان يوسف الاول برسالة الى ملك أراجون « بيدرو الرابع » ، وفيها يعلمه بموافقته وتوقيعه على معاهدة العام الماضى التى سبقت الاشارة اليها •

عام ١٣٤٨ م :

فى ٨ محرم ٧٤٩هـ (١٠ أبريل ١٣٤٨م) هزم السلطان أبو الحسن المرينى فى القيروان بتونس ، وكان لهذا تأثيره الفعال فى انصراف السلطان المرينى عن الاندلس واستجابة أى نداء لها ، بل على العكس فقد طلب أبو الحسن من أبى الحجاج نجدات أندلسية لمقاومة الثوار التونسيين ، واسترداد ما فقده من نفوذ هناك ، ولكن سلطان غرناطة كتب الى صديقه أبى الحسن يعتذر له عن امكان انفاذ هذه النجدات لافريقية ، بسبب ظروف غرناطة التى كانت تجتازها يومئذ •

فى ربيع الأول ٧٤٩هـ (يونيو ١٣٤٨ م) نشبت حرب أهلية بالمغرب فقد أعلن الأمير أبو عنان فارس المرينى الثورة ضد أبيه السلطان أبى الحسن ، ودعا لنفسه •

وحدث بعدئذ ـ تبعا لذلك ـ أن أعلن عامل جبل طارق انحيازه الى أبى عنان[1].

وفى صيف عام ١٣٤٨م ، وبعد أن بويع السلطان أبو عنان المرينى رأى الابقاء على عامله بجبل طارق ، الذى فوجىء بالفونسو الحادى عشر يتحلل من شروط المعاهدة التى عقدها مع السلطان السابق أبى الحسن المرينى فى خصوص وضعية جبل طارق المغربية .

وفى يوليو من هذا العام هاجم الجيش الاندلسى بعض البسائط الشرقية ، وكذا بعض البسائط الغربية من أراضى النصارى ، مما كبد الأخيرين خسائر فى الأموال والارواح .

وفى نهاية العام غزا الحاجب أبو النعيم رضوان المناطق الغربية بالحدود ، واستولى على حصن قنيط[2] .

عام ١٣٤٩ م :

فى يوليو من هذا العام حاصر الفونسو الحادى عشر بجيوشه جبل طارق[3] .

عام ١٣٥٠ م :

فى ٢٦ مارس من هذا العام مات ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر ، أثناء حصاره الجبل بعد أن فتك به الوباء .

وفى يوليو ١٣٥٠م كتب السلطان يوسف الاول ، الى السلطان أبى الحسن المرينى ، يعلمه بأن الفونسو الحادى عشر قد نقض معاهدة السلم مع المغرب والأندلس، وحاصر جبل طارق ، وكاد يسقط فى يده ، لولا أن تدارك الله الأمر بوفاة الفونسو ، واقلاع القشتاليين عن محلة الجبل .

بعد التاريخ السابق بعث السلطان يوسف الأول برسالة ، الى السلطان أبى الحسن المرينى ، غير مؤرخة ، وفيها ينبئه بأنه قدم التعزية الى ملك قشتالة الجديد (بيدرو الأول) ، بمناسبة وفاة والده الملك السابق « ألفونسو الحادى عشر » ، وبرغبته فى تجديد معاهدة السلم بين المملكتين .

---

(١) Torres Balbas, p. 183.

(٢) Luis seco de Lucena, El Hayib, p. 293.

(٣) Torres Balbas, p 183.

في ٣ محرم ٧٥١ هـ (١٣ مارس ١٣٥٠ م) كتب يوسف الأول الى السلطان أبى عنان المرينى ـ بعد فك الحصار عن جبل طارق ، بعد وفاة ألفونسو ـ يخصره بان القشتاليين قد تخلوا عن مدينة أسطبونة ، وبذلك عادت اسلامية .

أعلم السلطان أبو الحجاج الشعب الأندلسى ببشرى نجاة جبل طارق من حصار جيوش قشتالة ، بعد وفاة ملكهم ألفونسو الحادى عشر بين رجاله أمام الجبل .

عام ١٣٥١ م :

فى محرم ٧٥٢ هـ (فبراير ـ مارس ١٣٥١ م) أرسل السلطان أبو عنان فارس المرينى الى السلطان يوسف الأول بكتاب صحبه هدية ، وهى عبارة عن معدات حربية ليستخدمها فى الجهاد المقدس ضد النصارى .

فى يونيو من هذا العام توفى السلطان أبو الحسن المرينى ، وقبل وفاته بأيام تنازل عن العرش لابنه أبى عنان فارس[1] .

عام ١٣٥٢ م :

فى بداية هذا العام بعث أبو الحجاج سلطان غرناطة ، الى أبى عنان فارس سلطان المغرب ، برسالة تضمنت الآتى :

١ ـ اعلامه بوفاة « الانفانت خوان منويل » حاكم احدى ولايات الشمال الاسبانية .

٢ ـ احاطته علما بأن ملك قشتالة « بيدرو الأول » قد عقد معاهدة سلم مع القند (الكونت) « انريكى دى تراستمارا » .

٣ ـ اعلامه باتفاقية مع سفير قشتالة الذى قدم الى غرناطة ، فى خصوص تقديم معونة حربية أندلسية لصالح احدى الحصون ، بالاضافة الى معاهدة سلم وأمان .

عام ١٣٥٣ م :

فى ١٢ ربيع الأول ٧٤٥هـ (١٧ مارس ١٣٥٣ م) كتب السلطان أبو الحجاج الى السلطان أبى عنان فارس يهنئه بالاستيلاء على مدينة بجاية ، بعد أن امتنعت عليه .

---

(1) Gaspaar Remr ip : 184

ثم كتب سلطان غرناطة أبو الحجاج الى سلطان المغرب ، يهنئه بالاتصال على الأمير الزياني أبي ثابت ، والرسالة غير مؤرخة ، ولكن يحتمل أن تكون محررة أواسط عام ١٣٥٣ م •

عام ١٣٥٤ م :

بعث السلطان يوسف الأول ، الى السلطان أبي عنان فارس ، كتابا يخبره فيه بوصول سفير قشتالة ، وأمين الوثائق بها الى البلاط النصري ، حاملا معه معاهدة ذات اتفاق سبق عقده بين غرناطة وقشتالة •

والرسالة قد وردت غير مؤرخة ، ولكن يحتمل أن تكون محررة في أبريل ١٣٥٤ م •

ثم كتب سلطان غرناطة الى سلطان المغرب ، رسالة وردت غير مؤرخة أيضا ، ويحتمل أن تكون محررة في أبريل كذلك من نفس العام ، وتحتوي الرسالة على تسلم أبي الحجاج وثيقة مرينية بالموافقة على المعاهدة التي عقدتها غرناطة مع قشتالة •

في غرة شوال ٧٥٥ هـ (١٩ أكتوبر ١٣٥٤ م) توفي السلطان يوسف الاول قتيلا بمسجد الحمراء الاعظم ، أثناء صلاة العيد ، بيد مجنون أثيم •

فكتب السلطان الغني بالله محمد الخامس بن السلطان أبي الحجاج الى السلطان أبي عنان فارس المريني ، رسالة وردت غير مؤرخة ، ولكن يحتمل أن يكون تاريخها في أواخر أكتوبر ١٣٥٤ م ، يخبره فيها بمأساة والده ، ويبلغه اجماع الأمة الاندلسية على بيعته ملكا عليها ، ويجدد العهد الأخوي بين بلاطي غرناطة وفاس •



خريطة مملكة غرناطة ، يقابلها الجزء الشمالى من مملكة بنى مرين المغربية، وذلك فى منتصف القرن الرابع عشر الميلا

مصادر الدراسة

مصادر الدراسة

(أ) المصادر العربية

ابن الأحمر :

(الأمير أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)

(ت ٨١٠هـ – ١٣٢٥م)

١ – نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٣ – أدب) .

ابن بطوطة

(أبو عبد الله محمد عبد الله الطنجى)

(ت ٧٧٩هـ – ١٣٧٧م)

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار – ج ٣ (القاهرة ١٩٣٨) .

ابن الخطيب :

(لسان الدين أبو عبد الله محمد)

(ت ٧٧٦هـ – ١٣٧٤م)

(أ) الاحاطة فى أخبار غرناطة :

نسخة خطية بالاسكوريال رقم ١٦٧٣ ونسختان خطيتان بالأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمى ١٤٢/٥٣٤ . وتوجد نسخة مطبوعة فى جزأين (القاهرة ١٣١٩هـ) كما توجد نسخة خطية أخرى برواق المغاربة بالأزهر. هذا وقد نشر الأستاذ عبد الله عنان الجزء الأول من كتاب الاحاطة فى مجموعة ذخائر العرب.

(ب) نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب ، مخطوط بالاسكوريال رقم ١٧٥٠ .

(جـ) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥) وقد نشر جزءا كبيرا منه العالم الاسبانى جاسبار ريميرو (١٩٦٠ مدريد) .

(د) أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . نشره ليفى بروفنسال فى طبعتين (رباط ١٩٣٤) ، (بيروت ١٩٥٦) .

(هـ) كناسة الدكان بعد انتقال السكان (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٧١٢) .

(و) اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية (القاهرة ١٣٤٧هـ) .

(ز) رقم الحلل فى نظم الدول (تونس ١٣١٧ هـ) .

(ح) الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة . تحقيق د. احسان عباس - بيروت - ١٩٦٤ م .

ابن خلدون :

(عبد الرحمن بن محمد)

(ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م)

(أ) المقدمة (نشر مصطفى محمد)

(ب) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء بما فى ذلك المقدمة (القاهرة ١٢٨٤) .

(ج) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . نشر محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١) .

الادريسى :

(صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، عن (نزهة المشتاق) نشر دوزى ، ودى خويه (ليدن ١٨٩٦) .

ابن القاضى :

(أحمد بن محمد بن أحمد)

عاش فى القرن السابع عشر الميلادى .

(أ) جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس (فاس ١٣٠٩هـ) .

(ب) درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ٢ ج (نشر علوش ، رباط ١٩٣٤م).

الجواليقى :

(أبو منصور أحمد الخضر)

المعرب من الكلام الاعجمى على حروف المعجم . تحقيق أحمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٦١ هـ) .

الحميرى :

(ابن عبد المنعم)

عاش فى القرن الثامن الهجرى .

الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشرة ليفى بروفنسال (ليدن ١٩٣٨ م) .

السلاوى :

(شهاب الدين محمد بن خالد الناصرى)

(ت ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م)

الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى (٤ أجزاء فى مجلدين) (القاهرة ١٨٩٤م).

القلقشندى :

(أبو العباس أحمد بن على)

ت ٨٢١هـ - ١٤١٨ م

صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ جزءا (القاهرة ١٣١٢ - ١٣١٩ هـ) .

المقرى :

(أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى)

ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣٣م

(أ) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . نشر محيى الدين عبد الحميد ١٠ أجزاء .

(ب) أزهار الرياض ، ٣ أجزاء نشر مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحميد شلبى (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م) .

النباهى :

(أبو الحسن بن عبد الله)

توفى فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

(أ) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨)

(ب) نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) .

(ب) المصادر الاوربية

1. Ballesteros, A. : Historia De Espana, Tomo III. (Barcelona, Buenos Aries 1948).
2. Garios De Luna, Jose ; Historia De Gibraltar (Madrid 1944).
3. Lévi Provencal, E. ; La pénisule Ibérique Du Moyen-Age. d'après le Kitab Ar-Rawd al' Mietar, d'Ibn Abd al Munim al Himyari, (Tetuan 1950).
4. Leon Africano, Juan (A.) Hassan Ibn Muhammad A. Wazzan Al-Fa si) : Descripcion De Africa y De las cosas natables que en ella se encuentran. (Instituto General Franco—Tetuan 1952).
5. Muller, Marcus Joseph : Beitrage zur Geschichte der westlichen araber (Munchen 1866).
6. Seco De Lucena, Louis : Sobre el viaje de Ibn Battuta al Reino de Granada (Al Andalus, Vol, XVI 1951).
7. Simonet, Francisco Javier : Descripcion del Reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas (Madrid 1860).

كشاف عام

(أ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)